محب الدين الخطيب

مع الرعيل الأول

المكتبة العلمية
بيروت - لبنان

مع الرعيل الأول

محب الدين الخطيب

دار الكتب العلمية

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

مع الرعيـــل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد في الأثر من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

« إذا لعن آخر هذه الأمة أولها ، فمن كان عنده علم فليظهره ، فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في خطبة كتابه (منهاج السنة النبوية) تعليقاً على هذا الأثر : « وذلك أن أول هذه الأمة هم الذين قاموا بالدين تصديقاً، وعلماً، وعملاً ، وتبليغاً . فالطعن فيهم طعن في الدين ، موجب للإعراض عما بعث الله به النبيين » .

وروى الترمذي وابن حبان في صحيحه قول النبي ﷺ : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً : فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، فيوشك أن يأخذه » .

معدن سليم كريم

شعب ظهر فجأة من بين تلك الصحارى التي لا يكاد يعرفها أحد .

شعب جديد بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة ، بعد أن ظل نهباً مقسماً ، تناوىء كل قبيلة منه القبيلة الأخرى فيحتدم النزاع ، وتقع الحرب الطاحنة .

ها قد رأيناه يتحد ، ويجمع شمله الشتيت ، للمرة الأولى ...

ذلكم هو الشعب الناهض الذي تملك نفسه حب الحرية ، وساعدته على النجاح صفاته النبيلة . فقد كان متقشفاً في طعامه ، مخشوشناً في لباسه ، نبيلاً في أخلاقه كما كان طروباً ، سريع البديهة ، حاضر النكتة .

كان شريف النفس أريحياً . فإذا استثرته مرة فهو قاس غضوب ، شرس ، لا يني عن أخذ ثأره ، ولا يرده عن انتقامه شيء .

ذلكم هو الشعب الذي قلب - في لحظة واحدة - إمبراطورية الفرس ، بعد أن ظل السوس ينخر في عظامها قروناً عدة .

وانتزع من خلفاء قسطنطين أجمل ضواحيهم . ثم سحق مملكة جرمانية حديثة العهد تحت قدميه ، وشرع يهدد - بعد ذلك - بقية أوربا . بينما كان - في ذلك الوقت نفسه - يوالي فتوحه وانتصاره في الجانب الآخر من المعمورة ، حتى وصلت جيوشه الظافرة إلى الهملايا ...

لم يكن ذلك الشعب فاتحاً فحسب - كغيره من الشعوب الأخرى - بل كان داعياً إلى دين جديد ، ومبشراً به أيضاً .

كان داعياً إلى دين جديد ، فقام يناوىء الثنوية الفارسية ، والمسيحية التي أفسدتها الخرافات والبدع ، حاملاً إلى الناس توحيداً خالصاً لم يلبث أن دان به الملايين من الناس .

إن ديانة العرب الأولى كانت واهية لا ترتكز على أساس متين . ومتى أقررنا ذلك سهل أن نفرض أنه كان من اليسير على العرب أن يقبلوا ديناً آخر فيدينوا بالمسيحية أو اليهودية مثلاً .

هذا كلام صحيح ، ولكن إلى حد ما ...

إن المسيحية انتشرت لهذا السبب نفسه في جهتين : في الحبشة جنوباً ، وفي سوريا شمالاً ، حيث لقيت شيئاً من القبول .

وقد انتصرت كذلك في مدينة نجران في وقت مبكر ، ودانت شبه جزيرة سينا بالمسيحية كما تنصر عرب سوريا .

على أن هذا النجاح لم يكن – في أي مكان تقريباً – إلا مظهراً من المظاهر ، لا حقيقة من الحقائق ...

أما في أواسط بلاد العرب ، وفي قلب جزيرتهم ، حيث نبتت جرثومة العربي القح وأرومته ، فلم تنجح الدعاية للدين المسيحي ، ولم تكن لترى ثم إلا أثراً ضعيفاً له إن لم نقل معدوماً .

كانت المسيحية في ذلك الزمن – على وجه عام – بما تحويه من معجزات ، وبما فيها من عقيدة التثليث ، وما يتصل بذلك من رب مصلوب، قليلة الجاذبية، بعيدة عن التأثير في نفس العربي الساخر الذكي .

وآية ذلك ما نراه واضحاً فيما حدث للأساقفة الذين سعوا إلى تنصير المنذر الثالث ملك الحيرة حوالي سنة ٥١٣ من الميلاد . فإن المنذر ليصغي إلى ما يقوله الأساقفة بانتباه ، إذ دخل عليه أحد قواده فأسر اليه بضع كلمات ، ولم يكد ينتهي منها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق . فتقدم اليه أحد القساوسة يسأله – متأدباً متلطفاً – عما أشجاه . فأجابه الملك :

– يا له من خبر سيء ! لقد أعلمني قائدي أن رئيس الملائكة قد مات ، فواحسراه عليه !

فأجابه القسيس :

هذا محال أيها الملك ، فقد غشك من أخبرك بذلك ، إن الملائكة خالدون، ويستحيل عليهم الفناء !

قال الملك :

ـ أحق ما تقول ؟ وتريد مع ذلك أن تقنعني بأن الله ذاته يموت ؟!

العربي رجل عملي مادي ، لا يعنى بغير الحقائق ، حتى في شعـره . فهو لا يسبح في الخيال والوهم ، ولا يميل إلى الأخذ بتلك الألغاز والمعميات الدينية التي يعتمد الإنسان في استيعابها على التخيل ، أكثر من اعتماده على التعقل ...

المؤرخ الهولندي

رينهاردت دوزي

في كتابه (نظرات في تاريخ الإسلام)

تعريب الأستاذ كامل كيلاني

مولد الانسانية

قال الحكيم الفرنسي الشهير (غوستاف لوبون) : « ما عرف التاريخ حاكماً أعدل ولا أرحم من العرب » .

وهذا الامتياز الذي تفرد به العرب في التاريخ – كما لاحظه الحكيم الفرنسي وأعلنه للناس – إنما كان نفحة من رسالة الله التي اختار لها صفوة عباده ، وأكمل مخلوقاته ، محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، فكان يوم مولده يوم مولد العدل الذي كانت الانسانية في انتظاره ، وبشيراً برحمة الله التي تعامل الناس بها للمرة الأولى بمقياس واسع في ظل الرسالة المحمدية .

فالمولد المحمدي لم يكن مولد إنسان ، وإنما كان مولد إنسانية ، وكانت الانسانية قبل ذلك أمنية الخواص ، وكان التعامل بها محصوراً بين أفراد ممتازين. فلما آذن الله بمولد صاحب هذه الذكرى الخالدة على الدهر ، رفع بمولده مقام الانسانية ، ونهض بمستواها إلى المرتبة التي كان يحلم بها الحكماء ، ويرونها من أماني الخيال . فصارت الانسانية عقيدة وديناً ، بعد أن كانت أمنية ووهماً . وقامت لها في الأرض دولة تعد الصدق من دعائم دينها والحياء من شعب إيمانها ، والرحمة من أسلحة نضالها ، واقامة الحق من شعائر مجتمعها ، واماطة الأذى عن كل طريق خلقاً اسلامياً يتخلق به كل من سار وراء هذا المتبوع الأعظم .

يقول أديب العصر مصطفى صادق الرافعي رحمه الله « ليس المصلح من استطاع أن يفسد عمل التاريخ ، فهذا سهل ميسور حتى للحمقى ، ولكن المصلح من لم يستطع التاريخ أن يفسد عمله من بعده » .

وان سيد المصلحين ، وأفضل رسل الله أجمعين ، هو صاحب الرسالة الوحيدة

التي تولى الله حفظها ، وتكفل بالخلود لكتابها ، وحاط مبادئها وسننها وأحكامها وأهدافها بحياطته الصمدانية ، وأقامها بين أيـــدي البشر غضة سليمة كأن نبرات صوته الشريف تنطق بنصوصها وحروفهـا في كل حين ، فتبهر النـــاس بكمالها الذي لا يدركه كمال .

قالت الليدي ايفلين كوبولد في كتابها (الحج الى مكة) :

لقد تساءل غوتيه :

– اذا كان هذا هو الاسلام ، ألسنا كلنا مسلمين ؟

فأجاب كارليل :

– أجل ، ان من يحيا بالروح انما يحيا على الاسلام .

ويقول مستر ولز أكبر مؤرخي هذا العصر :

« كل دين لا يسير مع المدنية في كل طور من أطوارها ، فاضرب به عرض الحائط ولا تبال به ، لأن الدين الذي لا يسير مع المدنية جنباً الى جنب لهو شر مستطير على اصحابه يجرهم الى الهلاك . وان الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنية انى سارت هي الديانة الاسلامية ، واذا اراد الانسان ان يعرف شيئاً من هذا فليقرأ القرآن ، ان كثيراً من أنظمته تستعمل في وقتنـــا هذا ، وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة . واذا طلب مني القارىء أن أحدد له (الاسلام)فإني أحدده بالعبارة التالية :

الاسلام هو المدنيـــة

وهل في استطاعة انسان أن يأتيني بدور من الأدوار كان فيه الدين الاسلامي مغايراً للمدنية والتقدم ؟

ان محمداً هو الذي استطاع في مدة وجيزة لا تقل عن ربع قرن أن يكتسح دولتين من أعظم دول العالم ، وأن يقلب التاريخ رأساً على عقب ، وأن يكبح جماح أمة اتخذت الصحراء المحترقة سكناً لها ، واشتهرت بالشجاعة ورباطـــة الجأش والاخذ بالثأر واتباع آثار آبائها ، ولم تستطع الدولة الرومانية أن تغلب الامة العربية عن أمرها . فمن الذي يشك أن القوة الخارقة للعادة التي استطاع محمد أن يقهر بها خصومه هي من عند الله ؟ » .

وهذه الحضارة الانسانية ، بل الانسانيـة الممتازة ، التي ولدت ولد الهادي الاعظم ، وانطوت عليها رسالته السامية ، وحققها بالتعامل بها من اتبعـه من الصحابة والتابعين ، وهي التي وقف في طريقهـا شارتل ماتل [1] . وكان الذين يجهلون الاسلام من الغربيين يمجدون شارل مارتل ويقدسونه لذلك ، فلما ظهر فيهم من لمدرك أهداف هذه الرسالة ، وعرف كريم معدنها ، وثمـين جوهرها ، تغير حكمهم على تلك الحادثة التاريخية الاليمة ، فقال مسيو هنري دي شامبون مدير مجلة (ريفو بارلمنتير الفرنسية) :

« لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا ، لمـا وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ، ولما أُصيبت بفظائعها ، ولا كابدت المذابح الاهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي . ولولا ذلـــك الانتصار البربري على العرب لنجت اسبانيا من وصمة محاكم التفتيش . ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون . نحن مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا : في العلم ، والفن ، والصناعة ، مع أننا نزعم السيطرة على تلك الشعوب العريقـة في الفضائل ! وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشري مدة ثمانيـة قرون ، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية . وانه لكذب وافتراء ما ندعيه من ان الزمان قد اختلف ، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى » .

ويقول مسيو كلود فارير في المقدمة التي كتبها للترجمة الفرنسية من رواية « العباسة أخت الرشيد » تأليف جرجي زيدان :

« أصيبت الانسانية والعالم الغربي عام ٧٣٢م بكارثة عظمى لم تصب بمثلهافي القرون الوسطى ، وبقي أثرها ظاهراً في العالم مدة سبعة قرون أو ثمانية ، ان لم يكن أكثر من ذلك ، لان روح التجدد كانت يومئذ قد بدت للعيـان ، حتى وقعت تلك الكارثة فكان من نتائجها تأخر سير الحضارة ورجوع العـالم الى الوراء . هذه الكارثة هي الانتصار المؤلم الذي أحرزه وحوش (الهاركا) من جيوش الافرنج التي كان يقودها شارل مارتل سليل الكارلنجيــين محارباً بها

---

(١) انظر في مجلة الأزهر (م ٢٥ ص ٤٥٤ — ٤٦٢) مقـالة (انتكاس الانسانيـة والحضارة بانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغـافقي في معركة تور يوم السبت ٨ شعبان سنة ١١٤ - ٣ اكتوبر ٧٣٢) .

كتائب العرب والبربر التي لم يحسن عبد الرحمن جمعها وحشدها بالمقدار الكافي، فكان ذلك سبب خذلانها وتقهقرها.

في ذلك اليوم المظلم تقهقرت الحضارة الى الوراء ثمانية قرون وحسب الذين يبتغون ان يشهدوا مثالاً من مدنية العرب يومئذ ان يتنقلوا بين حدائق الاندلس الغناء، ثم ان يأتوا الآن فيترددوا بين خرائب ذلك العصر الماثلة للأنظار في اشبيلية وقرطبة وطليطلة وغرناطة ».

وبينما كان المنصفون من كبار ادباء الغرب وعلمائه يعترفون بهذه الحقائق عن الانسانية الكاملة التي بعث الله بها اكمل رسلة الى صفوة امه، كان شيخ ملاحدة الشرق العالم الشهير الدكتور شبلي شميل يقول بلا محاباة:

« ان القرآن فتح امام البشر ابواب العمل للدنيا والآخرة، وجاء لترقية الروح والجسد بعد ان اوصد غيره من الاديان تلك الابواب، فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلي عن هذا العالم الفاني ».

ونتخطى العلماء والحكماء والادباء الى سادة العروش وقادة الجيوش وساسة الامم، فننقل عن مسيو موريس باليولوغ – عضو الاكاديمية الفرنسية، وأحد سفراء فرنسا السابقين في روسيا – من كتابه (غليوم الثاني ونقولا الثاني) فقرة من النص الدقيق لرسالة بعث بها الامبراطور غليوم الى قريبه قيصر روسيا يوم ٩ نوفمبر ١٨٩٧ يصف له فيها شعوره عند زيارته بيت المقدس في ذلك الشهر من تلك السنة وختمها بقوله:

« ولما غادرت الاماكن المقدسة كنت اشعر بخجل عظيم من المسلمين، وكنت اقول لنفسي في قرارة نفسي: لو لم يكن لي دين عند وصولي الى القدس لكنت قد اعتنقت حتماً الدين الاسلامي ».

وهذا الدين الاسلامي – الذي نحتفل بذكرى رسوله الاعظم في شهر ربيع الاول من كل عام – هو دين الاخلاق، وشعب إيمانه – التي بلغت بضعاً وسبعين شعبة – يدور اكثرها حول الاخلاق، فالاخلاق من اركان الايمان في الاسلام، وقد تغنى (شوقي) بذلك يوم قال مخاطباً صاحب هذه الذكرى.

يا من له الاحلام ما تهوى العلا ... منها، وما يتعشق الكبراء

لو لم تقم دينـاً لقامت وحدها ... ديناً تضيء بنوره الآناء
زانتك في الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء
فإذا رحمت فأنت ام او اب ... هذان في الدنيا هما الرحماء
واذا غضبت فإنما هي غضبة ... في الحق ، لا ضغن ولا بغضاء
واذا قضيت فـلا ارتياب كأنما ... جاء الخصـوم من السماء قضاء
واذا اخذت العهـد او اعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء

أيها المسلمون ، إن الإسلام الذي بعث الله بـــه صاحب هذه الذكرى هوما يسميه الافرنج (السبرمان) أي الإنسانية في أسمى ذروتهـــا . وإنكم – يوم تنشدون لمجتمعكم النظام الصالح – لا مناص لكم من أن ترجعوا إلى هذا النظـام فتأخذوه من ينابيعه الأولى وتفهموا كل فقرة من نصوصه نحوها الذي كان لها يوم نطق بها هذا الهادي الأعظم ، وتأخذوها على أنها أمر لكم من نبيكم لتعملوا بها ، لا على أنها حكمة تحفظون ألفاظها لتتحدثوا بها إلى من تجالسونـه ثم تنتهي مهمتها هناك .

إن الله بعث صاحب هذه الرسالة الكريمة ﷺ لتكون لنا به أُسوة حسنة ، أي لنحاول السير معه من ورائه فيضع قدمنا على آثار قدمه الشريفة ، لا نخرج عن طريقه إلى أي طريق آخر . وإن طريقه – كما اعترف هؤلاء الافرنج الذين نقلنا نصوص أقوالهم – لا تحوجنا إلى التماس طريق آخر ، لا طريق موسكو ، ولا طريق لندن ، ولا طريق واشنطون ، ولا طريق باريس ، وكل ما عرف الناس وسيعرفون من حق أو خير ، فإن النظام المحمدي يدل عليه ويوصل اليه من أيسر الطرق وأجملها .

نعم إن عصور التأخر التي كان المسلمون محكومين فيها بنظام الاستبـداد ، ثم بنظام الاستعـمار ، قد أحالت قوة الإسلام ضعفـاً ، وجعلته دين مسبحـــة ومسكنة بعد أن كان دين حق ، ونظام مكافحة لإقامة الحق . ولكن نصوص الإسلام التي تكفل الله بحفظها كفيلة بأن تجعلنا من أصحـاب رسول الله صلوات الله عليه ، إذا حرصنا على فهمها فهماً سليماً كما لو كنا معـاصرين له ، وملازمين لمجالسه ، وسائرين في ركابه .

وبعد أن استحال دين القوة إلى ما نرى فقد أهله ثقتهم بأنفسهم ، وتراخت صلتهم بماضيهم ، ووقفوا من رسالتهم وقفة المتفرج ، فكان ذلك موضع العجب من عقلاء الأمم الذين عرفوا قوة هذه الرسالة وشاهدوا ضعف أهلها .

كنت عقب تأسيس جمعية الشبان المسلمين في الظاهرة قبل نحو ربع قرن أحد المستمعين إلى حديث عظيم تحدث به العالم المحقق الجليل مستر مارمادیوك بكثول في دار الشبان المسلمين ، عن الإسلام وقوته وضعف أهله ، فكان مماقاله :

« في رأيي أن الزمن الذي نحن فيه أنسب الأزمان وأصلحها لنشر الدعوة الإسلامية في الأرض . وما يظنه الظانون مثبطاً من نقص القوة هو - بالعكس - أدعى إلى نشر الاسلام وأكثر ملاءمة للنجاح فيه .

إن لنا في (هدنة الحديبية) لعبرة نقضي لها العجب كلما فكرنا فيها . فالصحابة رضوان الله عليهم وقعت منهم شروط تلك الهدنة موقع الأسى ، وكانت لهم منها صدمة عنيفة لم يسلم من تأثيرها بعد صاحب الهداية العظمى ﷺ غير عدد قليل منهم ، في مقدمتهم الصديق رضوان الله عليه . ولكن هذه الهدنة كانت الفتح الأكبر للإسلام . حتى ان عدد الذين دخلوا في الاسلام في سنة واحدة بعد صلح الحديبية كان أكثر من عدد الذين دخلوا فيه مدة تسع عشرة سنة قبل ذلك . والسبب في هذا الاقبال على الاسلام أن قريشاً وسائر العرب لما ظنوا الفوز في جانبهم بما حصلوا عليه من قيود وعهود ، تساهلوا في أمر الاتصال بالمسلمين ، وزال سبب كبير من أسباب صدودهم عن الاصغاء الى الهداية الاسلامية ، فكانوا يرون بأعينهم من سيرة أهل هذه الهداية ما يبهر النظر نوراً ، وكانوا يسمعون بآذانهم ما يملأ القلب حقاً وايماناً ، لذلك صاروا يدخلون في دين الله أفواجاً ، وكان للإسلام بذلك القوة العظمى التي مهدت لفتح مكة واعلاء كلمة الله فلا يعلو عليها شيء ، فتبين للذين تلقوا صدمة تلك الشروط القاسية في الحديبية أن هذه المواقف وأمثالها ليس من شأنها أن تدعو الى اليأس ، وليس من شأنها أن تحول بين الحق وبين ما يستحقه من فوز » .

ثم قال أخونا في الاسلام مستر محمد مارمادیوك بكثول رحمه الله :

« ان صوتاً علوياً نسمعه الآن من الحديبية ينادينا بأن في الامكان - بالرغم مما صرنا اليه من التجرد عن القوة أن نلم شعثنا ، ونعود الى نشر هداية ديننا .

وأن نبلغ هذه الهداية الى البشر أجمع ، فالشعوب اليوم أشد اصغاء الينا منها في العصور السالفة، لأن المشادة بين القوة والقوة قد تكون سبباً من أسباب الصدود عن الاصغاء الى الحق . فلم يبق على المسلمين الا أن يعملوا ، والعمل اليوم ممكن جداً ، ولكن له شرطاً واحداً – ولا مناص من تحقيق هذا الشرط – وهو أن نكون الآن متحلين بالصفات التي كان متحلياً بها مسلمو الحديبية ، فالمسلم المعاصر اذا تحلى بالأخلاق الاسلامية الأولى – من صدق واستقامة وحزم ، وعزة نفس، وسعى للخير جهد الطاقة – كان من وراء هذه الأخلاق قوة تستمد الدعوة منها ، فينتشر الاسلام حتى يعم الأرض . والشعوب تنظر الى أهل الدين ، قبل أن تنظر الى الدين نفسه . وأضرب لكم المثل بالاسلام في الهند ، فإن الى جانب مسلمي الهند ملايين كثيرة من مواطنيهم الوثنيين ، وان منهم من اذا أصغى الى مبادىء الاسلام وتأمل فيها بهرته وقال : ان هذا هو الحق ، وان هذا هو الذي يجب أن يدين به كل انسان . لكنه لا يملك نفسه بعد ذلك الا أن يسأل :

ولماذا المسلمون أنفسهم لا يعملون بهذه المبادىء ؟ ولماذا لا يهتدون بهذه الهداية ؟

هذه هي العقبة الحقيقية الواقفة في سبيل انتشار الاسلام، فلا بد من تذليلها، وليس بعد ذلك ما يحول بين الاسلام وبين أن يكون دين الانسانية » .

هذا الكلام الموجه الى المسلمين من أخ لهم في الاسلام دخل في دينهم عن بينة وايمان ، كلام « من طب لمن حب » ، ولو أن الله مد في حياته حتى يشهد تطور الدنيا بعد الحرب العالمية الأخيرة ، لأدرك معنا أننا في فترة من التاريخ يوشك ان تنهار فيها جميع الدعائم التي كان يقوم عليها بنيان النظم الغربية ، بعد افلاسها ، وثبوت عجزها عن توفير السعادة التي تنشدها الأمم . ولو ان الله سبحانه لم يبعث رسوله بالاسلام قبل بضعة عشر قرناً لكانت حكمته العظمى ورحمته بالبشر جديرة بأن تحسن اليهم الآن برسالة الاسلام نفسها دون غيرها ، لما انطوت عليه من اعتدال ورفق ومعالجة عملية لجميع مشاكل المجتمع ، واقرار للأوضاع المألوفة لبني الانسانية ، مع تهذيبها بابقاء ما فيها من حق وخير ، وتجريدها من كل ما يتصل بأسباب الجور والحيف والضرر . فالزمن الذي نحن فيه انسب الازمان لقبول الانسانية مبادىء الاسلام واحكامه مطبقة على كل

مشاكل العصر ، ومنظمة تنظيماً يسهل على رجال التشريع وزعماء الشعوب وقادة الفكر الاستفادة منها في معالجة مشاكلهم والتفهم لما انطوت عليه من حكمة ومصلحة وخير .

فهذا التنظيم العصري لمبادىء الاسلام واحكامه يجب ان يكون من اهم ما تتوجه اليه همم الجامعيين والمثقفين - فضلاً عن افاضل علماء الأزهر ونجباء طلابه - ولا يكون ذلك الا بالوفاء لهذا التراث ، والاخلاص له ، والصبر عليه ، واخذه من ينابيعه ، وفهمه فهماً سليماً كما كان يفهمه الصحابة والتابعون ، وهو من العموم والشمول بحيث يصلح لكل زمان ومكان . واذا كان عقل عالم بريطاني كبير كالمستر مارماديوك بكثول اقتنع بأن زمن القائه تلك المحاضرة كان انسب الأزمان واصلحها بتعميم النظام الاسلامي في الأرض ، فإن ما بعد الحرب العالمية الأخيرة اكثر ملاءمة لذلك .

وبعد فإن المسلمين ما برحوا - من مئات السنين - حريصين على إحياء (ذكرى) مولد الهادي الأعظم ، ولكن بما نعرفه من أقوال وأشكال ومظاهر . وأكبر ظني أن الأمة بلغت الآن من الوعي الرشيد ما يجعلها تحيي هذه الذكرى بإحياء (رسالة) صاحبها عليه من الله أكرم السلام والتحية ، فالإسلام يحتاج من أبنائه إلى طبقة من الشباب والشيوخ يجعلون شعارهم التأسي برسول الله في أخلاقه الشريفة السامية ، وفي مبادىء رسالته العظمى ، وتحقيق أهدافها العقلية والاجتماعية والإنسانية ، واعتبارها رسالة موجهة إلى عصرنا بالذات لتعالج مشاكله وتقيم معالمه وتسن أنظمته ، فنتعامل بها في بيوتنا وأسواقنا ومحاكمنا ودواوين حكمنا وقصور عظمائنا ، فالإسلام إسلام بالتعامل به ، لا بادعائه في شهادة الميلاد ، وأرقام التعداد . وتحقيق ذلك يكون بالشروع به من الواحد إلى الاثنين إلى الجماعة الصغيرة ، فالبيئة الواسعة ، فالوطن الأعظم . ونحن الآن في عصر الديمقراطية الذي تنزل فيه الدولة على حكم الأمة . ومن هي الأمة ؟ الأمة أنا كاتب هذه السطور ، وأنت القارىء لها ، والآخر السامع لك وأنت تقرأ ، وغير كل ممن ستجتمعان بهم ، وتتحدثان اليهم ، وتنقلان من إيمان قلوبكما إلى إيمان قلوبهم ، فإذا كثر المقتنعون بذلك ، والداعون اليه ، والعاملون به ، حتى تكون هذه العقيدة عقيدة الرأي العام ، كان لا مناص لمجالسنا

النيابية أن ينزل أعضاؤها على إرادة ناخبيهم ، وبذلك تكون دولتنا دولاً إسلامية حقاً . ويوم نحقق ذلك ، يحق لنا أن ننشد مع (شوقي) في يوم هذه الذكرى من كل عام :

تجلى مولد الهادي وعمت ... بشائره البوادي والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب ... يداً بيضاء طوقت الرقابا
فقام على سماء البيت نوراً ... يضيء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكاً ... وفاح القاع أرجاء وطابا
نبي البر بينه سبيلا ... وسن خلاله وهدى الشعابا
تفرق بعد عيسى الناس فيه ... فلما جاء كان لهم مثابا
وشافي النفس من نزعات شر ... كشاف من طبائعها الذئابا
وكان بيانه للهدي سبلاً ... وكانت خيله للحق غابا
وعلمنا بناء المجد حتى ... أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال ... إذا الإقدام كان لهم ركابا
فرب صغير قوم علموه ... سما وحمى المسومة العرابا
وكان لقومه نفعاً وفخراً ... ولو تركوه كان أذى وعابا
فعلم ما استطعت، لعل جيلاً ... سيأتي يحدث العجب العجابا

بيئة الاسلام الاولى
التي اختارها الله لمولد خاتم رسله وظهور أكمل رسالاته

بلدة لا كالبلاد ، لجيل لا كالأجيال ، من أمة لا كالأمم ...

بلدة اختارها الله – في الدهر الأول – لأول بيت قام في الأرض لتوحيد الله والعبادة الخالصة والنسك السليم : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ .
آل عمران ٩٦ – ٩٧

قال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله : كان الرجل قبل الإسلام يقتل ، فيضع في عنقه صوفة ويدخل أرض الحرم ، فيلقاه ابن المقتول ، فلا يهيجه حتى يخرج من حدود الحرم .

وقد وصف الله في سورة العنكبوت (الآية ٦٧) هذه الميزة لبيت الله الحرام ، ومن بها على أهلة فقال :

﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ وفي سورة القصص (٥٧ – ٥٩) – وهي مكية – نعى الله على الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف وأمثاله من رجالات قريش وشبابهم أنهم تخوفوا من اقامة الحق بالدخول في الاسلام يوم كانت مكة هي بيئة الاسلام الأولى ومشرق دعوته ﴿ وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ،

فتلك مساكنهم لم تكن من بعدهم الا قليلا ، وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون ﴾ .

ومما خاطب الله به قريشاً – فيما أنزله من القرآن بمكة – ومن عليهم بهذه الميزة الكبرى لبلدتهم دون بلاد الأرض كلها قوله جل ثناؤه ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .

ان حرم مكة الآمن لا ينحصر في حرم الكعبة ، ولا يقتصر على البلدة كلها ، بل يعم أرض الحرم الى مسافات بعيدة أقيمت لها أعلام في كل ناحية من نواحيها ، فما كان خارج هذه الأعلام يسمى « الحل » وما هو في داخل نطاقها يسمى « الحرم » ، وفي الحرم تأمن الطير أيضاً – كما يأمن الإنسان – فلا تنفر عن أوكارها ، ويأمن فيه حتى الوحش فلا يحل اصطياده . بل من جملة تحريمها تحريم قطع شجرها وقلع حشيشها ، وقد خطب رسول الإنسانية الأعظم صلوات الله عليه يوم فتح الله عليه مكة ، فقام على باب الكعبة يقول لقريش ومن وراءها من جماهير الناس ، ولكتائب الفتح من المهاجرين والأنصار :

« ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة . وانه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي الا في ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة . لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته الا من عرفها ولا يختلي خلاه » فقال عمه العباس : يا رسول الله الا الاذخر (وهو نبات طيب الرائحة ينتفعون به) فقال ﷺ : « الا الإذخر » .

وقد حيل بين من يلجأ الى الحرم من المجرمين وبين حقوق الله والناس بما رواه سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس ان القاتل اذا عاذ ببيت الله في مكة اعاذه الله ، ولكن ليس على احد من ساكني الحرم ان يؤويه ، او يطعمه ويسقيه ، حتى يضطر الى الخروج من حدود الحرم ، فإذا خرج اخذ بذنبه .

ومن اعجب ما امتازت به مكة عن بلاد الله جميعاً بين زمن مولد حامل اكمل رسالات الله وزمن هجرته ، انها بلدة لم يشعر اهلها بحاجتهم الى حكومة ، ولم تمس حاجتهم الى اقامة شرطة تحمي اهل العافية فيهم من اهل البغي والشر ،

لأنهم قلما عرفوا فيهم مواطناً من اهل مكة تنزع نفسه الى البغي والشر . واكثر ما كان يقع فيهم الباطل ان يمطل المدين دائنه في وفاء ما في ذمته ، فكان يستعين عليه بأهل العافية فيحصل منه على حقه بلا حاجة الى قضية او محكمة . ولأجل هذا وامثاله انعقد في بيت وجيه من وجهاء مكة وشريف من اشرافها وهو عبد الله بن جدعان التيمي – من اسرة ابي بكر الصديق – حلف اشترك فيه طائفة من اهل الفتوة والمروءة في قريش ، وتعاقدوا على ان لا يجدوا بمكة مظلوماً من اهلها – او غيرهم ممن دخلها من سائر الناس – الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه ، حتى ترد عليه مظلمته . وكان رسول الله ﷺ لا يزال يومئذ فتى. روى طلحة الندى وهو طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري قاضي مكة في القرن الأول للإسلام ، ان رسول الله ﷺ قال « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما احب ان لي به حمر النعم ، ولو ادعى به في الاسلام لأجبت » .

ان الناس هم الناس ، وفيهم الطيب والوسط والخبيث ، تشترك في ذلك الأمم كلها ، غير انها تتفاضل بنسبة اهل هذه الاصناف الثلاثة بعضهم الى بعض: فمن الامم من تطغى نسبة الخبيث من اهلها على من فيها من الطيبين والعنصر الوسط ، فهي من شر الامم ، ومنها من يكثر فيها العنصر الطيب وتكون له الكلمة النافذة والتوجيه المطاع في المجتمع ، فهي من اكرم الامم معدناً ، ومنها من تعظم فيها نسبة الطبقة الوسطى فيعم فيها الخير ويستتب الاستقرار .

يقول النبي ﷺ فيما قرره من حقائق : «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » .

وقد علق شيخ الاسلام ابن تيمية على هذا الحديث في كتابه منهاج السنة (٢ : ٢٦٠ – ٢٦١) بقوله :

« فالارض اذا كان فيها معدن ذهب ومعدن فضة كان معدن الذهب خيراً ، لانه مظنة وجود افضل الامرين . فإن قدر انه تعطل ولم يخرج ذهباً ، كان ما يخرج الفضة افضل منه . فالعرب في الاجناس – وقريش فيها ، ثم هاشم في قريش – مظنة ان يكون فيهم الخير اعظم مما يوجد في غيرهم . ولهذا كان في بني هاشم النبي ﷺ الذي لا يماثله احد في قريش ، فضلاً عن وجوده في سائر العرب وغير العرب . وكان في قريش الخلفاء الراشدون وسائر العشرة وغيرهم

ممن لا يوجد له نظير في سائر الاجناس . فلا بـد ان يوجد في الجنس الافضل ما لا يوجد مثله في المفضول : وقد يوجد في المفضول ما يكون افضل من كثير مما يوجد في الفاضل . كما ان الانبيـاء الذين ليسوا من العرب افضل من العرب الذين ليسوا بأنبياء . والمؤمنون المتقون من غير قريش افضل من القرشيين الذين ليسوا مثلهم في الايمان والتقوى . وكذلك المؤمنون المتقون من قريش وغيرهم افضل ممن ليس مثلهم في الايمان والتقوى من بني هاشم . فهذا هو الاصل المعتبر في هذا الباب . دون من الغى فضيلة الانساب مطلقـاً . ودون من ظن ان الله تعالى يفضل الانسان بنسبه على من هو اعظم ايماناً وتقوى منه ، فكلا القولين خطأ ، وهما متقابلان ، بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة ، وفضيلة لاجل المظنـة والسبب . والفضيلة بالايمان والتقوى فضيلة تعيـين وتحقيق وغاية فالاول يفضل به لانه سبب وعلامة ، ولان الجملة منه افضل من جملة تساويها في العدد. والثاني يفضل به لانه الحقيقـة والغـاية ، ولان من كان اتقى لله كان اكرم عند الله ، والثواب من الله يقع على هذا ، لان الحقيقة قد وجدت فلم يعلق الحكم بالمظنة ، ولان الله تعالى يعلم الاشياء على ما هي عليه فلا يستدل بالاسباب والعلامات » .

بهذا فسر شيخ الإسلام ابن تيمية حديث معادن الناس ، وكان ينظر – وهو يعـالج هذا الموضوع الدقيق – إلى آية الحجرات ١٣ ﴿ إن أكرمـكم عند الله أتقاكم ﴾ ، كما كان ينظر إلى حديث عبد الله بن عمر قال : إنا لقعود بفناء رسول الله ﷺ إذ مرت به امرأة ، فقال بعض القوم : هذه ابنة محمد ﷺ (والحقيقة أنها كانت درة بنت أبي لهب ، وكانت زوجة للحارث بن نوفل ، ثم تزوجهـا دحية الكلبي) ، فقال رجل : إن مثل محمد ﷺ في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن . فانطلقت المرأة فأخبرت النبي ﷺ ، فجاء عليه السلام يعرف في وجهه الغضب ، ثم قام على القوم فقال : « ما بال أقوام تبلغـني عن أقوام ! إن الله عز وجل خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختـار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم . فأنا خيار من خيار ، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم » قال الحـافظ العراقي : وهو حديث حسن ، أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، ورواه من غير هذا

الإسناد أيضاً ، وروى نحوه من حديث أبي هريرة ، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط وقال : حديث صحيح .

فالتفاضل بالتقوى هو الأصل ، وهو الحقيقة والغاية . وكرم المعدن فضيلة جملة ، ومظنة أن يوجد فيه الخير أكثر مما يوجد في غيره .

إن البيئة التي وجد فيها خاتم رسل الله ، وهي قريش سكان شعاب مكة وبطاحها ، قد تفاوت رجالها ونساؤها في سرعة الاستجابة لدعوة الإسلام . فهذا عمر بن الخطاب كان من مشركي قريش يوم كان أبو بكر أول رجل من قريش استجاب لهذه الدعوة ، وأخذ يجيبها بحكمته ورجاحة عقله ودماثة خلقه إلى طائفة من أعز شباب قريش في بطحاء مكة ، من أمثال عثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من مسلمي الرعيل الأول . فهل أزرى بعمر أن تأخر إسلامه عن إسلام هؤلاء وعن إسلام أخته وصهره ؟

وهذا خالد بن الوليد كان – في وقعة أُحد - قائد خيل المشركين ، وكان المفروض فيه لما عاد من غزوة أُحد إلى مكة أن يكون ثملاً بخمرة ما اتفق له من فوز ، فيكون ذلك أبعد له عن الاستجابة لنداء الحق . لكننا رأيناه في أوائل السنة الثامنة للهجرة يزهد في عظيم الجاه الذي كان لأبيه وبيته في أم القرى . ويخرج متوجهاً إلى المدينة ليلتحق بدعوة الحق ، فيلتقي في الطريق بين مكة والمدينة بعمرو بن العاص السهمي وعثمان بن طلحة أحد بني عبد الدار سدنة الكعبة . قال عمرو : فقلت لخالد : – إلى أين يا أبا سليمان ؟

قال خالد : – والله لقد استقام للقسم ، وإن الرجل لنبي ، إني أذهب والله لأسلم ، فحتى متى ؟

قال عمرو : – وأنا والله ما جئت إلا لأسلم .

وقال صاحب مفتاح بيت الله الحرام مثل مقالتها .

فلما دخلوا على رسول الله ﷺ ونظر اليهم من بعيد قال لأصحابه :

« لقد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » .

قال عمرو : فتقدم خالد فأسلم وبايع ، ثم دنوت فقلت :

– يا رسول الله : إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي .

فقال ﷺ – يا عمرو بايع . فإن الإسلام يجب ما قبله ، وإن الهجرة تجب ما قبلها .

ونقل الحافظ ابن حجر في الإصابة عن الزبير بن بكار أن رجلاً سأل عمرو بن العاص : – ما أبطأ بك عن الإسلام ، وأنت أنت في عقلك ؟

فأجابه : – انا كنا مع قوم لهم علينا تقدم ، وكانوا ممن توازن حلومهم الجبال . فلما بعث النبي ﷺ فأنكروا عليه قلدناهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر الينا نظرنا وتدبرنا ، فإذا حق بين ، فوقع في قلبي الإسلام ، فعرفت قريش ذلك من ابطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه ،فبعثوا الي فتى منهمفناظرني في ذلك ، فقلت :

– أنشدك الله ربك ورب آبائك من قبلك ومن بعدك : أنحن أهدى ، أم فارس والروم .

قال : بل نحن أهدى (أي أعقل وأعظم بصيرة وادراكاً لحقائق الأمور).

قلت : فنحن أوسع عيشاً أم هم ؟

قال : هم .

قلت : فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى ان لم تكن الا هذه الدنيا وهم اعظم منا فيها ؟ وقد وقع في نفسي ان الذي يقوله محمد من ان البعث بعد الموت – ليجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته – حق ، ولا خير في التمادي في الباطل .

هذا نموذج للذين ابطأوا في اسلامهم ، وان الذي حمله امثال عمرو وخالد من اعباء الاسلام قد عجز التاريخ عن ان يحيط بحسناته ، وان لهما ولأمثالهما من ثواب الذين دخلوا في الاسلام بسببهما . ومن نشأ على الاسلام من سلالتهم وذرياتهم ، ما لا تحصيه ملائكة الرحمة .

ومما يدل على كرم معدن البيئة المعاصرة لظهور الاسلام في مكة ان الذين ماتوا على غير الاسلام من قريش كانوا قلة قليلة جداً ، يعرفهم علماء الأنساب

بأسمائهم ، فإن كل من ولدتهم قريش من معاصري النبي ﷺ مدونة اسماؤهم في كتاب نسب قريش لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري ، وكلهم ولله الحمد قد تشرفوا بالاسلام قبل ان ينتقل النبي ﷺ الى الرفيق الأعلى، ما خلا ذلك النزر القليل جداً ممن غلبت عليهم الشقوة وهم بضآلة عددهم لا يستحقون الذكر ، ولا يعرف التاريخ نبياً من انبياء الله ولا صاحب دعوة الى الحق والخير استجاب له من امته رجال يستحقون ان يعدوا من اولياء الله الصادقين المجاهدين كما استجابت قريش والانصار وسائر العرب للدعوة المحمدية ، وكان لكرم معدن هذه الأمة الأثر العظيم في هذا الامتياز الذي كان لبيئة الاسلام الأولى التي رأيت ان اتحدث عنها في هذه الكلمة ، وان اعالج عرض الحقائق عن موقفها من الاسلام فيما بين بعثة النبي ﷺ وهجرته الى ان اختاره الله اليه .

ترى هل كانت دعوة الاسلام تحفظ بمبادئها وكتابها وسننها كما حفظت حتى الآن بلا افراط ولا تفريط، وهل كانت تنتشر في اقطار الأرض بالقوة والسرعة والحكمة والرحمة التي انتشرت بها في القرن الأول الهجري ، لو ان بيئة الاسلام الأولى لم تكن هي البيئة التي اختارها الله لها ؟

انا اعتقد انه كما اختار الله رسوله محمداً ﷺ لأكمل رسالاته، اختار لها كذلك اللغة التي انزل بها كتابه ، والأمة التي حملت هذه الرسالة الى امم الأرض ، والأرض التي تبلج هذا النور من آفاقها . والذي اشرت اليه في هذه المقالة لمحات خاطفة تستحق من اهل العلم دراسات اخرى اعمق واوسع واشمل .

محمد ﷺ والذين آمنوا معه

(محمدٌ رسولُ الله ، والذين معهُ أَشِدّاء على الكفّار رُحماء بينهم ، تراهم رُكّعاً سُجّداً يَبْتغون فضلاً مِنَ الله ورضوانا سِيماهم في وُجوهِهم من أثر السُّجود ، ذلك مَثَلُهمْ في التوراة ومثلُهم في الإنجيل كزَرْعٍ أخرجَ شطْئَهُ فآزَرَهُ فاستَغْلظ فاستوى على سُوقه يُعجب الزُّرّاع ليَغيظ بهم الكفار ، وَعدَ الله الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات منهمْ مغفرةً وأجراً عظيما) .

خاتمة سورة الفتح

هيبة صاحب رسالة الحق ﷺ في عيون اعدائه

قبل ظهور الاسلام بنحو ثلاثمائة سنة رحل اخوان عربيان – لأسباب لا نعلمها – قاصدين جهة الشمال من بلاد العرب . فاستقر احدهما في ارض البلقاء (وهي من مملكة الأردن كما تسمى الآن) فتوطن فيهـا هو واولاده الى ظهور الاسلام بعد ذلك بثلاثة قرون .

وعرج الأخ الآخر نحو الغرب فاستوطن مصر ، وكـثر فيهـا بنوه ونسله ، واسم هذا العربي المتمصر من قبل الاسلام بثلاثمائة سنـة : ذهل بن تميم بن عوذ مناة البلوى ، من سلالة قسم ايل ابن فران بن بلي القضـاعي ، وكانوا يلقبونـه (الثريد الأكبر) . اما اخوه الذي اتخذ بلاد الأردن وطناً له فاسمه عبد الله ، وكانوا يلقبونه (اراشة) .

ومن ذرية الأخ الأردني (اراشة) رجل معاصر للنبي ﷺ اسمه كهلة الأصغر ابن عصام بن كهلة الاكبر بن وهب بن سبلان بن ذبيان بن مودوع بن اراشة البلوى الذي كان هاجر الى البلقاء عندما هاجر اخوه الثريد الاكبر الى مصر .

وقراؤنا يعلمون ان النبي ﷺ لما كان مقيماً في وطنه مكة قبل الهجرة كان يقضي اكثر اوقاته في ظلال الكعبة من الحرم المكي .

واتفق ذات يوم ان كهلة الاصغر قدم من البلقـاء الى مكة ومعـه اباعر له تحمل طعاماً يتجر به في الحجاز كما كانت قريش تتجر في الشام ، فاشترى منه عمرو بن هشام بن المغـيرة المخزومي (ابو جهل) ما تحمله اباعره من طعـام . ولامر ما تأخر عليـه في نقـد ثمن ما اشترى ، وكان الاردني يريد العودة الى

وطنه ، فاستعدى على ابي جهل من يعرفهم من اعيان قريش . فلم يجبهم ابوجهل الى ما توسطوا به .

فلما كان النبي ﷺ في مجلسه الى جوار الكعبة ، وكان كهلة يخاطب اعيان قريش في ثمن بضاعته التي اشتراها ابو جهل، ارادوا ان يهزأوا بالرجل فقالوا له:

– عليك بذلك الجالس (يعنون النبي ﷺ) .

فأتاه الرجل فشكا اليه ابا جهل ، وسأله ان يكلمه .

هذه الحادثه قد يظنها جمهور الناس من الامور العادية ولا علاقة لها برسالة الحق التي بعث الله بها نبيه صلوات الله وسلامه عليه . غير ان الذي يعرف رسالة الاسلام وشمولها ولا سيا ما يتعلق من معاملات الناس باقامة الحق والنصرة له يراها من صميم رسالة الاسلام لذلك لم يتردد النبي ﷺ في ان ينهض مع كهلة البلوي فيسيرا الى ابي جهل عمرو بن هشام . فلما اتاه النبي ﷺ في بيته قال له:

– اعط هذا حقه !

فلم يكن من ابي جهل – وهو ما هو في مكانته من قريش وعدوانه للرسالة المحمدية – الا ان قال :

– نعم ، الساعة !

واعطى البلوي حقه . فلامت قريش ابا جهل وقالوا له :

– كلمناك في هذا الامر فأبيت ، وشفعت محمداً ؟

فأخبرهم ابو جهل انه لما كلمه رسول الله ﷺ في اعطاء الرجل حقه كان – اي ابو جهل – كأنه يرى امام عينيه جملاً قد فغر فاه يريد ان يأكله ان لم يعط ما عليه .

قال ابن الكلبي في (جمهرة النسب) في باب انساب (بلي) من قضاعة – ونحن ننقل ذلك عن مختصر الجمهرة المسمى (المقتضب) لياقوت الحموي ،من النسخة الاثرية الباقية في الدنيا : –

« ومن ولده – اي من ذرية صاحب هذه الواقعـة – صفوان بن سليمة بن النواح بن كهلة الاصغر صاحب البلقاء (اي امير الاردن) في الاسلام ، وكان شريفاً جداً ، وابنه علي بن صفوان شريف ايضاً » .

وعـــد

(وَعَدَ اللهُ الذين (آمنوا) منكم و (عَمِلوا الصالحات) ليَستخلفنهُم في الأرض كما استخلفَ الذين من قبلهم وليُمكننَ لهم دِينهم الذي ارتضى لهم ولنبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يَعبدونني لا يُشركون بي شيئاً ، ومن كفرَ بعد ذلك فأولئكَ هم الفاسقون) .

سورة النور

في نادي الكملة غرفـة محمد بن مسلمة الاوسي

أماني الطفولة واحلامها

للطفولة أماني وأحلام ، لو عني أصحابها بتدوينهـا لـكان في بعضها ما يحفز الانسانية للتقدم نحو الخير بخفة الأطفال وسذاجتهم المحببة وقـد يراجع الرجل المسن ذكريات طفولته فيستعرض منها ما كان يتمنى أن يحققه لو استقبـل من أمره ما استدبر ، ثم يقول في نفسه : ولماذا لا ألقي تلك البذور الآن في حقوق الطفولة الخصبة بمروجها ، اليانعة بأثمارها ، على أمل أن ينبت فيها غداً ماعجزنا عن استنباته في الأمس ؟

وعلى هذة النية أعرض الأفكار الصبيانية التالية على أنظار فتيـان المسلمين من قرائي :

نادي الكملة

في يوم أبلج مفضض من شتاء دمشق – قبل بضع وخمسين سنة – كان طلبة المدرسة الثانوية الأميرية [1] يتمتعون في فسحة الظهر بالثلوج وهي تتطـاير بين السماء والأرض كالقطن المندوف ، والعهن المنفوش ، فيجمعون منهـا أكراً يتراشقون بها ، ويتصارعون على بساطها الأبيض الناصع الذي يملأ الساحة الكبرى فيتمرغون فيه . إلا أربعة منهم كانوا فيما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من أعمارهم جالسين حول موقد الفصل – وكان يتلظى بالحطب الملتهب – فيتذاكرون

---

(١) وكانت تسمى في طفولتنا باسم (مكتب عنبر) .

ما يودون تحقيقه من أمانيهم . ثم أجمع رأيهم على أن ينشئوا في المستقبل نادياً يسمونه (نادي الكملة) يكون مشيداً من بضع طبقات في كل طبقة عشرات من الغرف المتسعة . أما الطابق الأرضي فينتقي له من كبار تلاميذ المدارس الابتدائية وصغار تلاميذ المدارس الثانوية أهل القابلية للخير ممن يغلب عليهم الصدق والجد ومحبة الحق ، فينضم النظراء إلى نظرائهم ، ويلتحق المتشابهون بأشباههم ، حتى تكون منهم حلقات تأوي كل حلقة منها إلى غرفة من غرف الطابق الأرضي في نادي الكملة . وكلما استوثق القائمون على النادي من تمكن خليقة الصدق في أفراد حلقة من حلقات الطابق الأرضي ارتقوا بأعضائها إلى الغرفة الأولى من الطابق الثاني وقد كتب على بابها هاتان الكلمتان : (أهل الصدق) . وفي هذه الغرفة يتمرن أعضاؤها على « الاعتدال » و « الرفق » . ويثقفون بيانهم بما في القرآن الإلهي والحديث النبوي والأمثال البليغة وأقوام الحكماء من جوامع الكلم في مزايا الاعتدال ، وأن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ، حتى يصبح الاعتدال والرفق سليقة لهم ، وخلقاً طبيعياً فيهم ، وحتى يكون كل ما قيل فيهما من أهم محفوظاتهم . وحينئذ ينقلون إلى (غرفة أهل الاعتدال والرفق) ، وفيها يتمرنون على « الإنصاف » ثم « الإيثار » ،ويثقفون ألسنتهم وعقولهم بكل ما قيل فيهما . حتى إذا حذقوه عملاً وعلماً ، انتقلوا إلى (غرفة الإنصاف والإيثار) . فيتمرنون فيها على خلق التضحية : التضحية بالنفائس ، وهو الكرم . والتضحية بالنفوس ، وهو الجهاد والسخاء بالمعارف والتجاريب ، وهو التعليم والتهذيب لوجه الله ، وبلا أجر يشوهون به جمالها[1]. ثم ينتقلون إلى (غرفة القناعة والاقتصاد) فيتعلمون فيها كيف يكون زهد الأغنياء . وتواضع الملوك وبلوغ معارج العظمة الأدبية باحتقار الأنانيات والمتع المادية والشهوات الزائلة . ثم يصيرون إلى (غرفة الحياء) فغرفة (التعاون على الحق والخير) ... الخ . فإذا انتهوا من هذا الطابق ، انتقلوا إلى الطابق الذي فوقه ، فيجدون الغرف فيه مسماة بأسماء المتازين بالفضائل السامية من أصحاب

---

(١) الا ما يجيء منه عن غير تشوف ولا مسألة .

رسول الله ﷺ ، ولا يتأهل للالتحاق بغرفة منها إلا من يستقصي كل ما حفظه التاريخ من فضائل الصحابي المكتوب اسمه على تلك الغرفة ، ويحاول التخلق بأخلاقه ، وتمثيل حياته تمثيلاً عملياً في هذا العصر وبذلك يكون لأبناء الجيل طبقة من المعاصرين الممتازين الذين يمثلون الإنسانية المنشودة بأسمى كمالاتها ، فيرجع الاسلام غضاً جميلاً لا تصنع فيه ، ولا متاجرة ببضاعته ، ولا مراعاة بمظاهره للاستغناء بها عن حقائقه ، فإذا كثر أفراد هذه الطبقة في جيل من أجيال المسلمين ، كان سائر المسلمين تبعاً لها ، ونزلت الدولة على سننها « وكما تكونوا يول عليكم » ، فرأت الأمم ذلك بأعينها ، ولا يلبث أن يكون الاسلام بعد ذلك دين الانسانية كلها .

غرفة محمد بن مسلمة

ومحمد بن مسلمة الأوسي – حليف بني عبد الأشهل – واحد من أصحاب رسول الله ﷺ وأنصاره الأولين ، ولهذا الصحابي غرفة منفردة على اسمه في الطابق الخاص بأصحاب رسول الله ﷺ من نادي الكملة كما كان يتصوره أولئك التلاميذ الاربعة في مدرسة دمشق الثانوية قبل بضع وخمسين سنة . وقد اخترته من بين عشرات الصحابة الممتازين الذين لكل واحد منهم غرفة في ذلك النادي ، لانه مع امتيازه بما يرفعه إلى الذروة في الانسانية السامية لم يشتهر عند الجماهير كاشتهار عمر وعلي وخالد وعمرو وأبي عبيدة ، ولذلك آثرت أن أعرض على فتيان المسلمين ما يتسع له المقام من سيرته .

أولية في الاسلام

قد يسبق إلى ذهن القارىء أن محمد بن مسلمة ولد في الاسلام فتسمى (محمداً) على اسم الهادي الاعظم ﷺ . وليس كذلك . فإن اسم (محمد) وإن كان قليل الذيوع قبل الاسلام ، لكنه كان متداولاً . وابن مسلمة ولد في يثرب بعد ولادة النبي ﷺ في مكة بثمانية عشر عاماً ، فلما بعث الله خاتم رسله ﷺ بدعوة الحق وبالرسالة العظمى إلى الانسانية ، كان محمد بن مسلمة في الثانية والعشرين من عمره ، ولو أنه كان مكياً ومن قريش لكان من الرعيل الاول في الاسلام ، لكنه – وهو من مواليد يثرب – كان أسبق الانصار إلى دين الحق .

فقد أسلم قديماً على يدي مصعب بن عمير بن هاشم العبدري عندما بعث به النبي ﷺ إلى المدينة قبل الهجرة . فكان إسلام محمد بن مسلمة أقدم من إسلام سعد بن معاذ وإخوانه من الانصار .

ونشأ محمد بن مسلمة أسمر طويلاً معتدلاً ممتلىء الجسم أصلع مقداماًفي العزائم صداعاً بالحق سريعاً إلى الخير مبغضاً للفتن وأهلها . وأنجب للإسلام عشرة من الذكور كلهم من أهل الخير ، وقد أدرك نصفهم صحبة رسول الله ، وهم : عبد الرحمن ، وعبد الله ، وجعفر ، وسعد ، وعمر .

ولما قدم النبي ﷺ المدينةوتبعه المهاجرون فآخى بين كل مهاجري وأنصاري ، آخى بين محمد بن مسلمة وأمين هذه الامة أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري أحد العشرة المبشرين بالجنة وصاحب الفتوح الخالدة بنتائجها في سبيل الحق الى يوم القيامة .

جهـــاده

شهد محمد بن مسلمة بدراً . وجاهد مع رسول الله ﷺ في جميع الميادين ، ولم يتخلف الا عن غزوة تبوك بأمر من النبي ﷺ ، وأغلب الظن أنه كان خليفته على المدينة في غيبته الى أن عاد من تبوك .

وكان ثقة رسول الله ﷺ في العظائم التي لا يصمد فيها الا أهل العزائم . من ذلك أن ابن اليهودية عدو الله كعب بن الاشرف الطائي لما أسرف في ايذاء المسلمين والكيد للإسلام بثروته وجاهه وشجاعته وبلاغته في شعره ، حتى تطاول الى التشبيب بنساء المسلمين وحتى ذهب الى مكة فنزل في بني سهم وجعل ينظم أبلغ الشعر في رثاء أهل القليب من قتلى بدر ليهيج قريشاً لثاراتها ، رأى النبي ﷺ من الخير للانسانية بتر هذا العضو الفاسد من اعضائها ، وانه ان لم يقتل فستسفك بشعره وتحريضه دماء لا ترقأ . فقال ﷺ يوماً لاصحابه -وكلهم في حالة حرب مع ابن الاشرف والذين على شاكلته : -

- من لي بابن الاشرف ؟

فقال محمد بن مسلمة : انا لك به يا رسول الله ، انا اقتله ...

قال : - فافعل ان قدرت على ذلك .

فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاث ليال لا يأكل ولا يشرب الا ما يعلق به نفسه ، لما اهمه من هذا الامر ، فلما علم النبي ﷺ بذلك دعاه فقال له :

– لم تركت الطعام والشراب ؟

قال : يا رسول الله قلت لك قولاً لا ادري هل افين لك به ام لا ...

فقال ﷺ : انما عليك الجهد ...

واختار محمد بن مسلمة لمرافقته في هذه المهمة اربعة من الرجال هو خامسهم : احدهم من اسرته بني حارثة الاوسيين وهو ابو عبس بن حبر ، والآخرون من حلفائه بني عبد الاشهل اولهم اخ من الرضاعة لكعب بن الاشرف ، وهو ابو نائلة سلكان بن سلامة بن وقش ، وابن عمه عماد بن بشر بن وقش ، ثم الحارث ابن اوس بن معاذ الاشهل .

ولما ازمعوا ، مثلوا بين يدي النبي ﷺ وقالوا :

– يا رسول الله ، انه لا بد لنا من ان نقول (اي ان يتظاهروا بالعداوة للإسلام حتى يتمكنوا من الرجل) .

فقال : قولوا ما بدا لكم ، فأنتم في حل من ذلك .

فلما نهضوا ليقوموا بمهمتهم ، مشى معهم ﷺ إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم فقال : « انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم » . ثم رجع إلى بيته وهو في ليلة مقمرة . وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصن كعب بن الأشرف ، في ظاهر يثرب ، فاستنزلوه ، وأعملوا فيه السيف . فقتل وهو يصيح صيحة لم يبق حول حصنه حصن إلا أوقدت عليه النيران لتعرف خبر ذلك الصوت .

ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ ، قالت الخزرج : والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً ، فتذاكروا من رجل في العداوة لرسول الله ﷺ كابن الأشرف ؟ فذكروا رأس اليهود وطاغيتهم سلام بن أبي الحقيق في خيبر ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله بمعقله بخيبر . ولما قتلته الخزرج قال حسان بن ثابت :

لله در عصابة لاقيتهم ... يا بن الحقيق وأنت يا بن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف اليكم ... مرحا كأسد في عرين مغرف

حتى أتوكم في محل بيوتكم فسقوكم حتفاً ببيض ذفف
مستنصرين لنصر دين نبيهم مستصغرين لكل أمر مجحف

ويوم تآمرت يهود بني النضير على النبي ﷺ في السنة الرابعة للهجرة وأرادت أن تلقي عليه الصخرة وهو مستظل بجدار من جدران بيوتها ، اعتبر ﷺ هذا الغدر نقضاً من اليهود لعهودها ، فندب محمد بن مسلمة ليبلغهم أمره لهم بالجلاء عن الحجاز إلى جنوب الشام على ألا يحملوا معهم شيئاً من أسلحتهم ولأمتهم . وكانت الأوس – قوم محمد بن مسلمة – حلفاء قدماء لبني النضير ، فقالوا لابن مسلمة :

- يا محمد ، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا الأمر رجل من الأوس .

فقال محمد بن مسلمة : تغيرت القلوب ، ومحا الإسلام تلك العهود .

فقال اليهود : نتحمل !

وخرجوا بلا سلاح ولا ذخيرة ، لكل ثلاثة منهم بعير وسقاء .

فارس رسول الله

ثم لما نزلت يهود بني قريظة على حكم النبي ﷺ في السنة الخامسة للهجرة ، كان محمد بن مسلمة قائد حرس رسول الله ﷺ . وقد تصرف في هذه المهمة العسكرية تصرف القائد الحكيم المطلق اليد ، وأقره النبي ﷺ على تصرفه .

وشهد محمد بن مسلمة حرب المسلمين مع اليهود في خيبر في السنة السابعة للهجرة ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، واستشهد في تلك الحرب أخوه محمود بن مسلمة ، فحاول محمد أن يثأر لاخيه من بطل اليهود (مرحب) وأثخن فيه إثخاناً كوفيء عليه بأخذ سلبه بعد قتله ، ثم كان ثأره لاخيه بقتله كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وصار يقال بعد ذلك لمحمد بن مسلمة (فارس رسول الله ﷺ) .

وفي عمرة القضية (سنة ٨) كان محمد بن مسلمة أميراً على خيل المسلمين ، كما كان قائد غزوة القرطاء من هوازن . وهكذا كانت حياة هذا البطل جهاداً متواصلاً كلما احتاج الإسلام الى جهود رجاله وعقولهم وجوارحهم وأخلاقهم .

الوصية النبوية له

روى الحسن البصري (رحمه الله) عن محمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطاه سيفاً وقال له . « قاتل به المشركين ما قاتلوا . فإذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضاً فائت به جبل أحد ، فاضرب به حتى ينكسر ، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة . أو منية قاصية » ففعل .

وقال حذيفة : إني لأعرف رجلاً لا تضره الفتنة (وذكر محمد بن مسلمة) وصرح بسماعه هذه الوصية له من النبي ﷺ .

يد عمر بن الخطاب

وكان محمد بن مسلمة في خلافة عمر بن الخطاب يد الخليفة اليمنى في كشف الأمور المعضلة ، والإشراف على الولاة والأمراء فيما يشكوه أهل الأمصار من أعمالهم ، فإذا كانت الحالة قارة سارة ، والرعية مغتبطين بولاتهم ، لا يدع عمر يده اليمنى عاطلة عن العمل ، فيرمي بمحمد بن مسلمة إلى أي عمل آخر من أعمال الدولة : فيوماً يلي صدقات جهينة ، ويوماً تجده على ثغرة أخرى من ثغور الإسلام . وكل عمل كان عمر يحب أن يؤدى كما يريد ، وعلى ما يريد ، يرمي اليه بمحمد بن مسلمة فيؤديه بأمانة وبصيرة وإتقان .

هذا سعد بن أبي وقاص صاحب رسول الله ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة وفاتح العراق وإيران والقائم للإسلام بكل خير ، ينم عليه النامون من أهل الكوفة إلى عمر بأنه بنى في الكوفة قصراً ، وجعل بينه وبين الرعية باباً يغلق ، هل يسكت عنه عمر ؟ هل يشفع له عنده أنه المجاهد الفاتح ، والأمير الصالح ، وصاحب الدعوة ليس بينها وبين السماء حجاب ؟ إن عمر لا يكتفي بالخير الماضي ، ولا يعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله . فإذا كان سعد من أهل الخير فيما مضى ، فقد مضى ما مضى ، ويجب على سعد أن يكون مصدر خير في كل لمحة ونفس .

– يا محمد بن مسلمة ، عليك بسعد بن أبي وقاص ، فقد زعم أهل الكوفة أنه صار نمروداً في أرض بابل . اذهب إلى الكوفة ، واكشف لي عن هذا

القصر الذي بناه أمير العراقين وفاتحها ، وإذا رأيت للقصر باباً أغلقه سعد في وجوه الناس فأضرم فيه النار حتى لا يبقى بين سعد والرعية باب ، ثم ارجع إلي من حيث ذهبت ؟

وتسرع الناقة بمحمد بن مسلمة تطوي الأرض بين المدينة والكوفة حتى يقف أمام ما سموه قصراً لسعد بن أبي وقاص فيرى داراً متواضعة بناها لتحول بينه وبين ضجيج الأسواق المجاورة لمكان الحكم ، وكانت الغوغاء تمنع سعداً قبل ذلك من أن يسمع حديث أصحاب الحاجات الذين يقصدون الأمير بحاجاتهم ، فلما بنى هذه الدار سماها محبو الفتنة من أهل الكوفة قصراً ، وادعوا عليه ما لم يفعل . إلا أن الدار باباً . وقد أمر الخليفة باحراقه ، فجمع محمد بن مسلمة حطباً وأضرم به الباب . ثم أراد أن يعود من حيث أتى ، فدعاه سعد وأراده على دخول داره والنزول عنده – لأنه صديقه القديم ، المجاهد معه في ركاب النبي ﷺ دهراً طويلاً – فأبى أن يدخل . وعرض عليه سعد الزاد لسفره ؛ فرفضه ، ورجع من فوره . وقبل أن يصل إلى المدينة فنى زاده فصار يأكل نبات الأرض ولحاء الشعر إلى أن بلغ عمر فأخبره خبره . فقال عمر : « إن سعداً أصدق مما روي عليه ، وما بلغني عنه » . وقال لمحمد بن مسلمة :

– هلا قبلت الزاد من سعد ؟

فأجابه : لم أكن أعلم أنك تأذن لي به .

فقال عمر : إن أكمل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم ولم ينكل .

في خلافة عثمان

لما انصرف الثوار من أهل مصر والكوفة والبصرة عن المدينة مقتنعين بما أجابهم به عثمان عن كل الشبهات التي بثها جماعة عبد الله بن سبأ في آذانهم ، دبر اثنان من عملاء عبد الله الرسالة المزورة على عثمان إلى عامله في مصر . وكان ثوار كل بلد قد أخذوا طريقهم الى بلدهم من غير طريق الآخرين ، والرسول الذي حملة السبأيون الرسالة المزورة تراءى لجماعة مصر وحدهم لأنهم المقصودون بالدسيسة المرتبة . ولكن أهل المدينة لم يشعروا الا بثوار الأمصار الثلاثة

قد رجعوا جميعاً كأنما كانوا على ميعاد ، فأتى محمد بن مسلمة المصريين وقال لهم في مجلس علي :

– ما الذي أرجعكم بعد ذهابكم ؟

قالوا : أخذنا كتابنا من البريد مع خادم عثمان لعامل مصر يأمره فيه بقتلنا.

وسأل البصريين عن مجيئهم ، فقالوا : لنصر إخواننا. وكذلك قال الكوفيون فقال محمد بن مسلمة للبصريين والكوفيين – وقال لهم مثل ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنهما : –

– كيف علمتم بما لقي أهل مصر ، وكلكم على مراحل من صاحبه ، حتى رجعتم الينا جميعاً ؟ هذا أمر دبر بليل !

فقالوا : اجعلوه كيف شئتم ، لا حاجة لنا بهذا الرجل ، ليعتزلنا .

قال الشيخ محمد الخضري (في اتمام الوفاص١٨٥): ولم يلهم الله أحداً أن يحقق أمر هذا الكتاب ، اذ كيف اتحدوا على الرجوع بعد افتراقهم في طرق مختلفة؟

وعلق عليه فضيلة الأستاذ صادق عرجون شيخ علماء الاسكندرية (في كتابه النفيس عثمان بن عفان ص ١٢٩) فقال : بلى قد ألهم الله حكيم الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في رواية الطبري (٥ : ١٠٥) ، او الألمعي محمد بن مسلمه كما ذكره الخضري نفسه في سيرته ، فألقى ظلاً كثيفاً من الشك على قصة هذا الكتاب المزور ، والغلام الأسود المختلق على عثمان او على مروان ، وفضح امر المزورين [١] .

لا تضره الفتنة

ان محمد بن مسلمة « لا تضره الفتنة » كما سمع ذلك حذيفة من فم النبي ﷺ . ولذلك استطاع ان يكون في الفتنة رجلاً صالحاً يرد كيد اعداء الله عن دين الله وعن اولياء الله ما استطاع الى ذلك سبيلا .

فلما تم لعثمان ما بشره به رسول الله ﷺ من الشهادة ، ذهب محمد بن مسلمة

---

(١) انظر العواصم من القواصم ص ١٢٦ – ١٢٩ ، والطبري ٥ : ١٢٠ .

الى صخرة في جبل أُحد فكسر عليها سيفه ، واتخذ لنفسه سيفاً من خشب ، وسكن الربذة ، وكان هو وسعد بن ابي وقاص ، وعبد الله بن عمر ،وابوموسى الاشعري ، وابو مسعود عقبة بن عمرو الانصاري ، واسامة بن زيد ، وابو بكرة نفيع بن الحارث الثقفي ، وحكيم تميم وعظيمها الاحنف بن قيس ، على رأس جمهور الامة الاعظم في الكف عن القتال بين المسلمين ، الى ان لقي محمد ابن مسلمة ربه في شهر صفر من سنة ٤٣ عن خمس وسبعين سنة ، فصلى عليه امير المدينة مروان بن الحكم ، وصلى عليه بقية الصحابة وصالحو التابعين . رحمه الله ، ورضي عنه وارضاه ، وبعث فينا اخلاقه وفضائله ، ووفقنا الى الاقتداء به في صدقه وجهاده وولايته للإسلام واهله .

رسول مصطفى ، وأمة مصطفاة

قال عبد الله بن مسعود :

إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلبَ محمد ﷺ خيرَ قلوب العباد فاصطفاه لنفسه .

ثم نظر في قلوب العباد فوجد قلوب أصحابه ﷺ خيرَ قلوب العبادفجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه .

عن منهاج السنة لابن تيمية ١ : ١٦٦
والمنتقى من منهاج الاعتدال ٧٧

من إلهامات الهجرة

في الإسلام ظاهرة يمتاز بها على غيره من الأديان التي تموج أقطار الأرض بأتباعها . فأهل الديانات الأخرى ينحصر معنى (الدين) عندهم في العقيدة والعبادة ، فإذا ضمننا لهم في أي نظام من أنظمة الحكم اكتفوا بهما ، وأذعنوا لذلك النظام مهما كان ، ولا يعرفون دينهم إلا ساعة الاجتماع في المعابد .

أما الإسلام ، فكما أنه دين عقيدة وعبادة ، فإنه يشمل أيضاً الآداب في المنازل والمجتمعات ، والتعاون بين الأفراد والجماعات ، ويتناول العقود والمصالح والالتزامات : وتتسع دائرته فتحيط بنظام الحكم كله .

والمسلمون لا يعتبرون أنفسهم عائشين في بلد إسلامي ، إلا إذا ساد نظام الإسلام بلدهم ، وقامت فيه أحكامه وآدابه ، كما تقوم فيه شعائره وتسود عقائده. وإذا تعذر على المسلمين إقامه أحكام دينهم ، وتأييد أنظمته الاجتماعية ، وآدابه الخلقية والبيتية ، وجب عليهم الانتقال إلى البلد الذي يعمل فيه بأحكام الإسلام وآدابه ، تكثيراً لسواد المسلمين ، وإعزازاً لأمر الدين ، واستعداداً لنصره وتأييده في العالمين . وإذا لم يكن للمسلمين بلد تتوافر فيه هذه الشروط ، وجب عليهم أن يتجمعوا في بقعة صالحة يقيمون فيها نظام الإسلام تاماً كاملاً، ويتعاونون على حماية دعوته ، واتخاذ الأسباب والوسائل لتحقيق رسالة الإسلام كما جاء بها صاحبها صلوات الله عليه ، وكما فهمها منه أصحابه والتابعون لهم باحسان .

هذه هي حكمة (الهجرة) ، وهذا هو الباعث عليها والداعي لها .

فالإسلام يجب أن يكون له وطن تقام فيه معاني الإسلام كلها ، ويعمل فيه بأحكامه وأنظمته في دواوين الدولة ، ومرافق الأمة ، ومعاملات الأفراد ،

وآداب البيوت ، بقدر ما يعمل فيه بشعائر العبادات ، وبقدر ما تمحى فيه حقائق العقيدة التي لا يكون الإسلام إسلاما إلا بها .

وقد غفل عن هذه الظاهرة من أمر الإسلام بعض الذين دخلوا فيه على عهد رسول الله ﷺ . فلبثوا في وطنهم (مكة) مستضعفين فيها لا يستطيعون إعلاء كلمة الله ، لغلبة الباطل يومئذ على الحق ، ولا يهاجرون منها إلى المدينة فيقوى بهم الإسلام . فنزل فيهم قول الله عز وجل ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم – أي بعدم إقامة دينهم في بلدهم ، وتخلفهم عن نصره وتأييده في دار هجرته – قالوا فيما كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا ﴾ . هذه الآية نزلت في قوم أسلموا ، وكانوا يؤدون صلواتهم على النهج الشرعي في منازلهم أو في الحرم إن استطاعوا ، وكانوا صحيحي العقيدة ، وغير مقصرين في العبادة . الا أنهم كانوا سبب ضعف الإسلام ، باذعانهم لنظام غير نظامه ، واحجامهم عن تقوية الإسلام في وطنه ودار هجرته . ولما كان الإسلام دين يسر ، ومن مبادئه أن نقدر الضرورات بقدرها ، وأن يعذر أهلها ، كان من تمام الآيات السالفة قول الله عز وجل ﴿ الا المستضعفين من النساء والرجال والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفوا عنهم ، وكان الله عفواً غفورا . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً – أي مذهباً ومتحولا – كثيراً وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما ﴾ .

ان النفس الإسلامية يريد لها الاسلام أن تعيش في جو من النظام والحكم يسهل لها فهم هداية الاسلام ، ويحبب اليها العمل بهذه الهداية في كل ضرب من ضروب الحياة ، وتتوفر فيه حرية الدعوة الى كل ما ينشده الاسلام من حقيقة وخير ، فيتيسر القيام بها جهاراً في جميع أحوال الفرد المسلم والجماعة الاسلامية ، ويكون فيه للحق قوة تقمع كل من يصد عن ذلك ، أو يحول بين المسلمين وبين الدعوة الى هدايتهم والعمل بها في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم ومجتمعاتهم . فإذا نشأت النفس الاسلامية ونمت تحت جناح نظام يقيم أحكام الاسلام ويحمي دعوته ويحمل الأمة على آدابه ، كانت هذه النفس قوة للإسلام تعمل على رفعته وتوسيع

دائرته ، وكانت غصناً في دوحة الاسلام تزهر وتورق وتثمر في جناته . أما اذا نشأت ونمت تحت جناح يخالف الاسلام ويخذل دعوته ولا يربي الأمة على آدابه ، فإن قوتها تكون معطلة عن تأييد الاسلام وتعميم هدايته .

ان (الهجرة المحمدية) من ديار الشرك الى دار النصرة قد مضت بأهلها ، ولكن (الهداية المحمدية) لا تزال في امانة المسلمين ، وهي في عصرنا أحوج ما كانت الى تفكير المسلمين في صيانتها ، والتماسهم الأسباب لازدهارها وتعميم العمل بها .

لما هاجر النبي ﷺ بأصحابه من ديار الشرك الى دار النصرة كان للاسلام — على قلة أهله يومئذ — قوة بتلك القلة من أهله لا نكون صادقين لو زعمنا أن عندنا للاسلام مثلها اليوم مع كثرتنا واتساع آفاق أوطاننا . فإن كانت الهجرة مضت بأهلها . فإن القوة التي توخاها النبي ﷺ للاسلام بالهجرة ، لا تزال أنظمة الاسلام وآدابه وأهدافه مفتقرة اليوم الى معلمها ، بل هي اليوم أشد افتقاراً الى مثل تلك القوة مما كانت في زمن الهجرة .

نحن محتاجون اليوم — من معاني الهجرة وأهدافها وحكمتها — الى ان ننخلع في بيوتنا عن الآداب التي تخالف الاسلام ، وأن نعيد الى هذه البيوت الصدق والصراحة والنبل والاستقامة والاعتدال والمحبة والتعاون على الخير . فالبيت الاسلامي وطن اسلامي ، بل هو دولة اسلامية وقبل أن أتبجح فأنتقد ما خرج عن دائرتي من بيئات لا يفيدها انتقادي شيئاً ، يجب علي أن أبدأ بمملكتي التي هي بيتي فأهاجر انا ومن فيه من زوجة وبنات وبنين الى ما يحبه الله من الصدق ، هاربين من الكذب الذي يكرهه الله ويلعن اهله في صريح كتابه . ويجب ان انخلع انا واهل بيتي من رذيلتي الافراط والتفريط فنكون معتدلين في كل شيء لأن الاعتدال ميزان الاسلام . ويجب ان نحب انظمة الاسلام وآدابه محبة تمازج دماءنا ، فنتحرى هذه الأنظمة في اخلاقنا واحوالنا وتصرفاتنا ومعاملة بعضنا لبعض ، (هاجرين) كل ما خالفها مما اقتبسناه عن الاغيار وخذلنا به مقاصد الاسلام فضيعنا اغراضه الجوهرية .

اذا تربينا في بيوتنا على محبة الانظمة الاسلامية ، وتأصل ذلك في اذواقنا وميولنا ، وتعودنا العمل به في مختلف ضروب الحياة ، فشا العمل به حينئذ

من البيوت الى الاسواق والاندية والمجتمعات ودواوين الحكم ، ولا يلبث الوطن كله بعد عشرات قليلة من السنين ان يتحول من وطن عاص لله ، الى وطن مطيع لله ، ومن وطن تسود فيه الانظمة التي يسخطها الله ، الى وطن تسود فيه الانظمة التي امر بها الله .

نحتفل بذكرى الهجرة كل سنة ونتكلم فيها عن الماضي فلا ننتفع بها في الحاضر . ولو انا فهمنا الحكمة التي انطوت عليها حادثة الهجرة ، وعلمنا ان كتاب الله الذي نتلوه قد انحى باللائمة على جماعة من اصحاب رسول الله ﷺ كانوا في مكة يصلون ويصومون ، ولكنهم ارتضوا البقاء تحت انظمة تخالف الاسلام — فلا قوة لهم على تغييرها ، ولم يهاجروا الى قلعة الاسلام ليكونوا من جنودها المتحفزين لتغيير تلك الانظمة — لعلمنا ان الإسلام لا يكتفي من اهله بالصلاة والصوم ، بل يريد منهم مع ذلك ان يقيموا انظمنه وآدابه في بيوتهم واسواقهم وانديتهم ومجامعهم ودواوين حكمهم ، وان عليهم ان يتوسلوا بجميع الوسائل لتحقيق هذا الغرض الاسلامي ، بادئين به من البيت ، وملاحظين ذلك في تربية من تحت امانتهم من بنات وبنين ، ومتعاونين عليه مع كل من ينشد للاسلام الرفعة والازدهار من اخوانهم . حتى اذا عم هذا الاصلاح ارجاء واسعة ، تلاشت تحت اشعته ظلمات الباطل ، فكان لهذا الاسلوب من اساليب الهجرة مثل الآثار التي كانت لهجرة النبي ﷺ واصحابه الاولين .

روى مسلم في كتاب الامارة من صحيحه عن ابي عثمان النهدي ان مجاشع ابن مسعود السلمي قال : جئت بأخي (أبي معبد) الى رسول الله ﷺ بعد الفتح فقلت : يا رسول الله بايعه على الهجرة ، فقال ﷺ : « قد مضت الهجرة بأهلها » ، قال مجاشع : فبأي شيء تبايعه ؟ قال : « على الاسلام ، والجهاد ، والخير » . قال ابو عثمان النهدي : فلقيت ابا معبد فأخبرته بقول مجاشع ، فقال : صدق .

وفي كتب السنن — وبعضه فى الصحيحين — عن عبد الله بن عمرو بن العاص وفضالة بن عبيد بن ناقد الانصاري ان النبي ﷺ قال « المهاجر من هجر السيئات » .

وفي حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة ، وفى حديث عبد الله بن

عبيد بن عمير عن ابيه عن جده، انه قيل لرسول الله ﷺ «... فما افضل الهجرة ؟ قال : من هجر ما حرم الله » .

وفي مسند الامام احمد بن حنبل (٦ : ٢١) من حديث فضالة بن عبيد بن ناقد ان النبي ﷺ قال في حجة الوداع « الا اخبركم بالمؤمن ؟ من امنه الناس على اموالهم وانفسهم ، والمسلم ؟ من سلم الناس من لسانه ويده . والمجاهد ؟ من جاهد نفسه في طاعة الله . والمهاجر ؟ من هجر الخطايا والذنوب » .

فإلى الهجرة ايها المسلمون ...

الى هجر الخطايا والذنوب في اعمالنا ، واخلاقنا وتصرفاتنا .

الى هجر ما يخالف انظمة الاسلام في بيوتنا ، وما نقوم به من اعمالنا.

الى هجر الضعف والعطالة والاهمال والسرف والكذب والرياء ووضع الاشياء في غير مواضعها .

الى هجرة الانانية والصغائر والسفاسف مما اراد نبي الرحمة ان يطهر منه نفوس أُمته حتى تكون خير أُمة اخرجت للناس كما اراد الله لها .

بهذا ، وبهذا وحده ، نحيي ذكرى الهجرة الشريفة ، ونحقق مقاصدها . ونستمطر رحمة الله على بيوتنا ، واوطاننا ، وممالكنا . وهذا هو « الفلاح » الذي يدعونا اليه المؤذن خمس مرات في كل يوم عندما يدعونا الى الوقوف بين يدي الله الكريم .

وبهذا تكون صلاتنا صلاة اسلامية تصقل نفوس المسلمين والمسلمات، وتصفيها وترتفع بها عن السفاسف، وتجعل هذه الشعيرة من شعائر الله بالوصف الذي وصفها به الله سبحانه ﴿ ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

أهل بدر كأنك معهم

ثورة

... لقد ضحى بوطنه في سبيل دعوة الحق التي أفاضها الله على قلبه، فجالت مع الحياة في أنفاسه، وجرت مع دمه في شرايينه.

بل ضحى وهو في وطنه براحته، وبمكانة أصحابه في ذويهم ومجتمعهم، وبطمأنينتهم في حياتهم وأعمالهم.

وكان في متناول يده أن يكون فتى مكة، وسيد قريش، وعظيم العرب، لو سكت عن الباطل وتركه سادراً في هواه، ولو تجاوز عن الظلم وأقره ماضياً في غطرسته وغلوائه، ولو أغضى من عيوب المجتمع مكتفياً بما يسديه اليه المجتمع من عزة ومتعة ورفعة.

لقد دفعت به رسالة الحق من مكة وطن ميلاده، إلى مدينة يثرب التي فتحت له ذراعيها، وضمته إلى صدرها. فهل استقر به المقام وانتهت مهمته عند ذلك؟

لو أن صاحب رسالة الحق يطلب الطمأنينة والاستقرار، لأصابها في وطنه يوم عرضت عليه قريش بلسان عمه كل ما يصبو اليه طالب عظمة الدنيا وأمجادها فكان جوابه يومئذ:

– والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته أو تنفصل سالفتي ...

إنه ثائر: ثائر على الباطل، ثائر على الشر، ثائر على النفاق والرياء، ثائر على الكسل والعطالة والأكل من كسب الآخرين، ثائر على الضعف في العقول

والأخلاق ، ثائر على عيوب المجتمع : لا في مكة وحسب ، ولا في جزيرةالعرب وحدها ، ولا في المجتمع الإنساني مدة حياته ، بل هو ثائر على ذلك جميعاً في كل زمان ومكان ، ورسالتــه عامة إلى أهل الأرض حتى تقوم الساعة ، وسيضرب بأهل الحق أهل الباطل ما دام للباطل دعاة وأولياء ، وسيقمع بأهل الخير أهل الشر حيثما ثقفوا . وما دامت هذه الدعوة عامة عالمية . ليس لها حدودجغرافية ولا تاريخية ، فإن الله سيبسط سلطانها على ملايــين القلوب ، فتثور دائماً للحق على الباطل ، وللقوة العادلة المستقيمة على الضعف الملتوي ، وللفضائل النبيلةعلى الشرور وأهلها . وهذه القلوب التي يبسط الله سلطان الدعوة المحمدية عليها في كل زمان ومكان ، هي القلوب المسلمة التي لا تأنس بالباطل ولا تخالفه ، ولا تعنو للشر ولا تتعاون معه . وآية ذلك أن يواصل كل مسلم مهمــة الهــادي الأعظم في ثورته للحق على الباطل بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن ، فإن لم يفعل - وفي استطاعته أن يفعل - فليس هو من الإسلام إلا بمقــدار ما يصنعــه للاسلام ، وبمقدار ما يقيم من سنن الاسلام .

حالة حرب

وكانت الشهور تنقضي على صاحب رسالة الحق وهو في مهاجره بالمدينــة . فهل يترك الباطل مطمئناً في مكة ، وفي جزيرة العرب ، وفي المجتمع الانساني ؟

لقد كان الحق والباطل في حالة حرب . وإن اضطرار رسول الله ﷺ إلى الهجرة في سبيل الدعوة كان بذاته إيذاناً من المشركين بقيام حالة الحرب بينهم وبين الاسلام . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ لمـا خرج من مكة قال أبو بكر :

- أخرجوا نبيهم ! إنا لله وإنا اليه راجعون . والله ليهلكن .

قال ابن عباس فنزل قول الله سبحانه ﴿ أُذن للذين يقاتلون بأنهـم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لهــدمت صوامع وبيـع وصلوات ومساجد يذكر فيهـــا اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ﴾ .

وأول نتائج هذه الحالة الحربية بين الاسلام والشرك ، غزوة رسول الله ﷺ إلى (الأبواء) وهي قرية في سفح جبل من أعمال الفرع بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ٢٣ ميلاً وفيها قبر آمنة أم النبي ﷺ . خرج إلى هذا الموضع في صفر من السنة الثانية للهجرة يريد قريشاً وبني ضمرة الكنانيين ، فوادعه بنو ضمرة ورجع إلى المدينة ولم يلق كيداً .

وبعث من مقامه ذاك بالمدينة بعثين : أحدهما بقيادة عمه حمزة إلى سيف البحر من ناحية العيص فانصرف بلا قتال . والثاني بقيادة عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ، فلقوا جمعاً من قريش بأسفل ثنية المرة فلم يكن بينها قتال ، إلا أن سعد بن أبي وقاص رمى المشركين يومئذ بسهم ، وهو أول سهم رمى به في الاسلام .

في ربيع الأول من السنة الثانية كانت (غزوة بواط) – جبل من جبال جهينة بناحية رضوى – قادها ﷺ بمائتي راكب معترضاً عيراً لقريش فيها أمية ابن خلف ، فلم يلق كيداً ، ورجع إلى المدينة .

وعلم في جمادى الآخرة أن عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام ، فخرج إلى ذي العشيرة – وهو حصن في لحف واد بين ينبع وذي المروة – فلم يلق عير قريش فوادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ، ولبث قرابة شهر ، ورجع إلى المدينة . وبعد نحو أسبوع من عودته أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة ، فخرج ﷺ في طلبه ، فانهزم كرز وطارده ﷺ الى وادي سفوان من ناحية بدر ، وتسمى هذه الواقعة (وقعة بدر الأولى) ، ثم قفل الى المدينة .

وفي رجب بعث عبد الله بن جحش الأسدي ومعه سبعة من صفوة المهاجرين في مهمة سرية يحملون كتاباً أمروا أن لا يفتحوه الا بعد يومين من مسيرهم ، فلما فتحوه وجدوا فيه الأمر بأن يمضوا الى (نخلة) بين مكة والطائف فيترصدوا فيها قريشاً ويأتوا بأخبارهم ، فساروا حتى اذا بلغوا معدناً للحجاج بن علاط البهزي بناحية الفرع مرت عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة المخزومي والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة ، وكان

آخر يوم من رجب ، فخافوا ان تركوهم لحرمة الشهر الحرام ان يدخلوا الحرم ويمتنعوا به ويذيعوا خبرهم . ثم شجعوا أنفسهم وهاجموهم فرمى واقدبن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله،وهو أول قتيل بين المسلمين والمشركين، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت نوفل فأعجزهم ،وعاد عبد الله بن جحش الى المدينة بأسيريه وبالعير ، وهي أول غنيمة غنمها المسلمون فامتعض النبي ﷺ لهذا الحادث ، ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ الخمس ، وقالت قريش : استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، فنزل قول الله سبحانه ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا﴾ وحينئذ قبض ﷺ العير والأسيرين .

وتلا هذه الوقعة تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة في شعبان .وفرض الله عقب ذلك صوم رمضان ، وفي رمضان هذا كانت وقعة بدر الكبرى .

عير قريش

في أوائل رمضان وردت الأخبار الى النبي ﷺ بأن أبا سفيان وثلاثين أو أربعين رجلاً من قريش فيهم مخرمة بن نوفل الزهري وعمرو بن العاص السهمي أقبلوا من الشام في عير لقريش عظيمة تقدر بألف بعير محملة بأموال قريش وتجارتها . انها قوة للباطل ، وهو في حالة حرب مع الحق وأهله ، فهل تترك حتى يقوى الباطل بها على الحق ؟

أيها المسلمون ، هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا اليهم ، لعل الله ينفلكموها .

ولم يكن اولياء الحق يعلمون انهم ذاهبون لقتال ، وانما هي العير معها ثلاثون او اربعون نفراً ، فانتدب لها ناس من المهاجرين والأنصار ، وتخلف كثيرون .

وبلغت الاخبار ابا سفيان حين دنا من الحجاز بان النبي ﷺ استنفر اصحابه للاستيلاء على القافلة ، فبعث ضمضم بن عمرو الغفاري الى مكة

يستنفر قريشاً لحماية اموالها ، واشرف ضمضم على شعاب مكة مرتحلا ذلوله وهو يصرخ ببطن الوادي :

– يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة ... اموالكم مع ابي سفيان قد عرض لها محمد في اصحابه . لا ارى ان تدركوها . الغوث ، الغوث .

فتجهزت قريش سراعاً وهم يقولون : – ايظن محمد واصحابه ان تكون كعير عمرو بن الحضرمي ؟ كلا والله فيعلمن غير ذلك .

وأوعبت قريش فكانوا بين رجلين : اما خارج بنفسه . واما باعث مكانه رجلاً . ولم يتخلف الا بنو عدي وابو لهب ارسل العاص بن وائل مكانه بدين كان له عليه . واراد أُمية بن خلف – وكان شيخاً جليلاً جسيماً – ان يتخلف . فاتاه عقبة بن ابي معيط وهو جالس في المسجد فوضع بين يديه مجمرة وقال له :

– استجمر ابا علي كما تستجمر النساء !

فاستحيى وتجهز . ثم خرج مع الناس .

وفيما كانت قريش تتجهز للخروج من مكة . كان النبي ﷺ يدفع لواءه إلى مصعب بن عمير من بني عبد الدار ويتأهب للخروج من المدينة . وكان ذلك في يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان . وكان أمامه رايتان سوداوان : إحداهما راية العقاب مع علي . والأخرى للأنصار مع سعد بن معاذ . وكان على الساقة قيس بن أبي صعصعة الأنصاري أحد بني مازن بن النجار . وكانت هذه العصبة المؤمنة في نحو ثلاثمائة ليس معهم غير ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقب البعير الواحد ثلاثة رجال أو أربعة . يركب الواحد ثم يترجل ليركب زميله . وكان البعير المخصص لرسول الله ﷺ يعتقب عليه معه علي ومرثد بن أبي مرثد ، فقالا له ﷺ :

– نحن نمشي عنك يا رسول الله .

فقال : – ما أنتما باقوى مني ، ولا أنا باغنى عن الأجر منكما .

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً واحداً ، وهكذا الآخرون .

الى بدر ...

وخرجت كتيبة الحق من نقب المدينة إلى العقيق ، متوجهة نحو ذي الحليفة فاولات الجيش ، إلى أن بلغت السيالة وفج الروحاء ، حتى اذا كان ﷺ بالمنصرف ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً ، فلما علا مضيق الصفراء وانصب منه بعث بسبس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة، وعدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار الى بدر يتحسسان له الأخبار ، ثم ترك الصفراء بيسار وسلك ذات اليمين على وادي ذفران .

مؤتمر ذفران

وفي ذفران أتاه الخبر بمسير قريش من مكة ، فجلس ﷺ لأصحابه يستشيرهم ، وأخبرهم عن قريش واستعدادها ومسيرها . فخطب أبو بكر وقال ما يحسن بمثله أن يقول ، وخطب عمر فقال ما يحسن بمثله أن يقول . ثم خطب المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى ﴿ اذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فدعا له ﷺ بخير ، ثم قال :

— أشيروا علي ايها الناس !

(وانما كان يريد الأنصار ، لأنهم العدد الأكثر في كتيبة الحق ، ولأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : انا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا ، فإذا وصلت الينا فانت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا. فكان ﷺ يتخوف الاتكون الانصار ترى عليها نصره الا ممن دهمه بالمدينة ، وان ليس عليها ان يسير بهم الى عدو في خارج ديارهم) .

فلما قال ﷺ ذلك ، قال له سعد بن معاذ :

— والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال : — اجل .

قال سعد : لقد آمنا بـك وصدقنـاك ، وشهدنا ان ما جئت به هو الحق ، واعطيناك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامضِ يا رسول الله لما اردت، فنحن معك . فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره ان تلقى بنا عدونا غداً : انا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء . ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ...

فقال ﷺ : – سيروا وابشروا ، فان الله وعدني احدى الطـائفتين (اي القادمين مع العير من الشام ، او القادمين من مكة لحماية العير) والله لكأني الآن انظر الى مصارع القوم .

حول بدر

وارتحل ﷺ من ذفران فسلك على ثنايا الاصافر حتى نزل قريباً من بدر، ثم انفرد وابو بكر ، فابتعدا عن منازل كتيبة الحق ، حتى وقفا على شيخ من العرب يسمى سفيان الضمري ، فسأله ﷺ عن قريش ، وعن محمـد واصحابـه وما بلغه عنهم . فقال الشيخ :

– بلغني ان محمداً واصحابه خرجوا من يثرب يوم كذا ، فإذا صدق الذي اخبرني فهم اليوم بمكان كذا (وذكر المكان الذي نزل به اصحاب رسول الله). وبلغني ان قريشاً خرجوا من مكة يوم كذا ، فإن صدق الذي اخبرني فهم اليوم بمكان كذا (للمكان الذي فيه قريش) .

ورجع ﷺ فلما امسى بعث علياً والزبير وسعداً في نفر من اصحابه الى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه ، فاصابوا غلاماً وعبيداً لقريش يرتوون ، فيهم اسلم غلام ابن الحجاج ، وابو يسار غلام بني العـاص بن سعـد ، فأتوا بهـما وسألوهما – والنبي ﷺ قائم يصلي – فقالا :

– نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقي من الماء .

فكره القوم خبرهمـا ، ورجوا ان يكونا لابي سفيـان فضربوهمـا ، فلما اذلقوهما كذبا وقالا :

– نحن لابي سفيان . فتركوهما. وسجد ﷺ سجدتيه ثم سلم وقال لاصحابه :

اذا صدقاكم ضربتموهما ، واذا كذباكم تركتموهما . صدقا والله ، انهما لقريش . اخبراني عن قريش .

قالا : — هم والله وراء هذا الكثيب (كثيب العقنقل) الذي ترى بالعدوة القصوى .

فقال لهما ﷺ : — كم عدد القوم ؟

قالا : — لا ندري .

قال : — كم ينحرون كل يوم ؟

قالا : — يوماً تسعة من الابل ويوماً عشرة .

فقال ﷺ : — القوم فيما بين التسعمائة والالف .

قال : — فمن فيهم من اشراف قريش ؟

فذكروا له الاشراف باسمائهم . فقال ﷺ :

— هذه مكة قد القت اليكم افلاذ كبدها .

وكان بسبس بن عمرو وعدي بن ابي الزغباء قد مضيا حتى نزلا بدراً فأناخا الى تل قريب من الماء ووردا يستسقيان ، فرأيا المجدي بن عمرو الجهني على الماء وجاريتان تتلازمان تقول احداهما لصاحبتها :

— انما تأتي العير غداً او بعد غد فاعمل لهم ثم اقضيك الذي لك .

فقال المجدي : — صدقت .

وسمع ذلك عدي وبسبس فجلسا على بعيريهما وانطلقا الى رسول الله ﷺ فاخبراه بما سمعا ، فصار ﷺ على علم بموعد وصول عير الشام مع ابي سفيان وبمكان الجيش القرشي الذي جاء من مكة يحمي ذلك العير .

واقبل ابو سفيان على بدر متقدماً العير حذراً عليه ، فلما ورد الماء سأل المجدي بن عمرو :

— هل احسست احداً ؟

قال : — ما رأيت شيئاً انكره ، الا ان راكبين اناخا الى هذا التل فاستقيا ثم انطلقا .

فاتى ابو سفيان مناخها فاخذ من ابعار بعيريها ففته فإذا فيه النوى فقال :

– والله هذه علائف يثرب !

واسرع الى اصحابه فضرب وجه العير عن الطريق فساحل بها ،وترك بدراً بيسار ، وانطلق حتى اسرع . فلما رأى انه احرز عيره ارسل الى قريش : انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم واموالكم ، فقد نجاهم الله ، فارجعوا !

فقال ابو جهل بن هشام : لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليها ثلاثاً فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا ابداً بعدها .

ورجع بنو زُهرة إلى مكة بمشورة الأخنس بن شريق الثقفي وكان حليفاً لهم . ورجع طالب بن أبي طالب (الأخ الأكبر لعلي) وكان مع القوم فاختلف مع بعضهم ورجع . ومضت قريش حتى نزلوا من كثيب العقنقل إلى العدرة القصوى من وادي بدر . وكانت آبار بدر في العدوة الدنيا من بطن يليل إلى جهة المدينة . فبعث الله السماء ، فأصاب النبي ﷺ وأصحابه منها ماء لبّد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير ، وأصاب قريشاً منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا معه ، فخرج ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى نزل في أدنى ماء منه. فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح :

– يا رسول الله ، أرأيت هذا منزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولانتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

قال الحباب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغوّر ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال ﷺ : لقد أشرت بالرأي .

وسار ﷺ حتى نزل على أدنى ماء وفعل ما أشار به الحباب .

وقال له سعد بن معاذ : يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعدّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدوّنا ، فإن أظهرنا الله عليهم كان ذلك ما أحببنا ،

وإن كانت الأخرى لحقتَ بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف منهم أقوام ما نحن بأشدّ لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنا . فدعا له ﷺ بخير ، وبنى العريش فكان ﷺ فيه .

ولما رأى ﷺ قريشاً تنحدر من (العقنقل) إلى الوادي قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنهم الغداة ! » .

وبعد أن اطمأنت قريش في منازلها بعثت عمير بن وهب الجمحي ليحزر عدد المسلمين ، فاستجال بفرسه حول المعسكر ورجع فقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون . ثم ضرب في الوادي يبحث هل للمسلمين كمين أو مدد، فلم ير شيئاً . فرجع فقال لأصحابه : ما رأيت شيئاً ، ولكنها المنايا تحمل البلايا. نواضح يثرب تحمل الموت الناقع قوم لا ملجأ لهم إلا سيوفهم . والله ما أرى أن يُقتل الرجل منهم حتى يَقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟

وسمع كلامه حكيم بن حزام فمشى إلى العقلاء يدعوهم إلى السلم ، وبدأ بعتبة ابن ربيعة فوعد بأن يدفع من ماله دية عمرو بن الحضرمي وما أُصيب من ماله ، وخطب في قريش فخوّفهم الحرب ونتائجها وثارات قتلاها ، ثم قال « فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم . وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون » .

أُما أبو جهل بن هشام فإنه لما خوطب في السلم اتهم عتبة بأنه خاف على ابنه أبي حذيفة الذي انضوى إلى كتيبة الحق . ثم دعا عامر بن الحضرمي فحرّضه على المطالبة بثأر أخيه عمرو ، فصرخ واَعمراه ، واعمراه ! فأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم اليه عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام ، وحميت الحرب ... وكان ذلك يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان .

القتـــال

وكان أول من بدأ القتال الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وكان شرساً سيء الخلق ، فأقسم ليشربنّ من حوض المسلمين أو ليهدمنه أو يموت دونه .

فقتله حمزة دون الحوض . وخرج بعده عتبة بن ربيعة يتوسط أخاه شيبة وابنه الوليد ، فخرج اليهم بعض الأنصار ، فأبوا إلا أكفاءهم من قريش ، فخرج لهم عبيدة بن الحارث بن المطلب وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب ، وقتل حمزة شيبة وقتل علي الوليد ، واختلف عبيدة وعتبة ضربتين وكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه ، ثم تزاحف النـــاس ودنا بعضهم من بعض ، ووقف ﷺ يعـــدّل صفوف أصحابه وينظم مواقفهم . ومر بسواد بن غزية فرآه خارجاً عن صفه فطعن في بطنه بقدح كان بيده وقال له : استو ! فقال له سواد : يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدني من نفسك فكشف ﷺ عن بطنه وقال : استقد !

فاعتنق سواد رسول الله ﷺ وقبّل بطنه – وهو ينوي أن يقـاتل ذلك اليوم إلى آخر قطرة من دمه – وقال للنبي ﷺ : أردت أن يكون هـذا آخر العهد بك يا رسول الله .

تلك كانت محبة أولئك الرجال للهادي الأعظم . وكان هو رفيقاً بهم مشفقاً عليهم كشفقة الأم على وليدها ، إلا أن الحق الذي هو ثائر بهم ليبسط سلطانه على الأرض كان أعز عليه من نفسه ومن أصحابه الذين هم عنده بمنزلة الأهل والولد .

وفيما كان يسوّي صفوفهم أوعز اليهم أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال لهم : إن اكتنفكم القول فانضحوهم عنكم بالنبال .

ولما انتهى من تسوية الصفوف وتنظيمها رجع إلى العريش فدخله – ومعه فيه أبو بكر ليس معه غيره – وجعل يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد » فيقول له أبو بكر : يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجزٌ لك ما وعدك .

وخفق ﷺ خفقة وهو في العريش ، ثم انتبه فقـــال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثنايا النقع ...

وتبادل الفريقان النبال ، فأصيب مهجع مولى عمر بن الخطـاب وكان أول قتيل من المسلمين . واصيب بعده حارثة بن سراقة من بني عدي بن النجار وهو يشرب من الحوض فقتل . وخرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم وقال :

« والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة . فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة — وفي يده تمرات يأكلهن — :

— بخ بخ . أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟

وقذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل .

وسأل عوف بن الحارث (وهو ابن عفراء) : يا رسول الله ، ما يضحك الربَّ من عبده ؟

قال : غمسه يده في العدو حاسراً .

فنزع عوف درعه وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتل . ولما التقى الفريقان ودنا بعضهم من بعض كان شعار المسلمين « أحد ، أحد » ونفح ﷺ العدوَّ بحفنة من الحصباء وهو يقول : شاهت الوجوه ! ثم نفحهم ثانية وقال لأصحابه : شدّوا ! فقتل الله من قتل من صناديد قريش ، واسر من اسر من اشرافهم . وكانت الهزيمة ، فجعل أبطال الحق يأسرون من يقع في أيديهم ، وبادر سعد بن معاذ إلى باب العريش في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله أثناء تلك الجلبة يخافون عليه كرّة العدو . ورأى ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس من اخذ الأسرى . فسأله عن ذلك . فأجاب سعد :

— إنها اول وقعة اوقعها الله بأهل الشرك . فكان الإثخان في القتل بهم أحبَّ إليّ من استبقاء الرجال .

وكان النبي ﷺ يوصي خيراً بالذين حضروا الواقعة من قريش كرهاً . كبني هاشم وابي البختري بن هشام . واراد من وقع ابو البختري في يده ان يحقن دمه . فأبى إلا ان يحقن معه دم زميل له وفاء منه للصداقة او يقتلا معاً فقتلا معاً . واراد عبد الرحمن بن عوف ان يحقن دم امية بن خلف وابنه علي ويأخذهما أسيرين . فهيج بلال عليهما الناس جزاء ما لقيه من عذاب امية قبل الهجرة ، وجعل يصرخ :

— يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف . لا نجوت إن نجا ... فهبرهما الناس بأسيافهم .

وجمعت وقعة بدر بين أمين الأمة الإسلامية أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن

الجراح الفهري وبين أبيه : أبو عبيدة في كتيبة الحق ، وأبوه في كتيبة الباطل . أخرج الطبراني بسند جيد عن عبد الله بن شوذب (من تلاميذ الحسن البصري وابن سيرين ومكحول) قال : جعل والد أبي عبيدة يتصدّى لأبي عبيدة يوم بدر فيحيد عنه ، فلما أكثر قصده قتله ، فنزل في ذلك قول الله عزوجل :

﴿ لا نجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يؤادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، اولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، اولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

واحتزّ عبد الله بن مسعود رأس أبي جهل بن هشام ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ وهو يقول :

– هذا رأس عدوّ الله أبي جهل !

فقال ﷺ : – آلله الذي لا إله غيره ؟

قال ابن مسعود : والله الذي لا إله غيره .

فحمد ﷺ ربه كثيراً ، وأمر بالقتلى أن يطرحوا في القليب ، ثم وقف عليهم ﷺ فقال : « يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا » .

فقال له أصحابه : أتكلم قوماً موتى ؟

فقال لهم : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق .

ولما كانوا يُسحبون إلى القليب نظر ﷺ في وجه أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير ، فقال له : يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟

فأجابه : لا والله يا رسول الله ، ما شككتُ في أبي ولا في مصرعه ، ولكن كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه الله إلى الإسلام فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنني ذلك (فدعا له ﷺ ، وقال له خيراً) .

وكانت بدر أول وقعة فاصلة بين الحق والباطل ، وكان لها ما بعدها ، وفيها نزلت سورة الأنفال التي يقول الله عز وجل فيها :

﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنّة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير . واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خُمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير . إذ أنتم بالعُدوة الدنيا وهم بالعُدوة القصوى والركب أسفلَ منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكنْ ليقضيَ الله أمراً كان مفعولا . ليَهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من حيّ عن بينة ، وإنّ الله لسميع عليم ﴾ .

بلى ، ان تصبروا وتتقوا

﴿ ولقد نصرَكم اللهُ ببدر وأنتم أذِلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقولُ للمؤمنين ألن يَكفيَكم أن يُمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين . بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يُمددْكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسوّمين وما جعله الله إلا بُشرى لكم ولتطمئنّ قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

سورة آل عمران ١٢٣ — ١٢٦

وقفة عند ذكرى بدر

تمرّ بنا الآن أيام يكاد يكون العالمُ فيها شبيهاً بما كان عليه في أيام بدر من ثلاثة أوجه: انغماس البشر في شهواتهم، واكتفاؤهم من الهدايات الأولى بمظاهرها وألفاظها، واندفاع القوى الإنسانية الكبرى في تيارات متناقضة تمعن بالناس بعداً عن أهداف الحق والخير، وعن الاعتدال الذي حضت عليه الشرائع.

ومن بعد أيام بدر إلى يوم الناس هذا لم تكن الإنسانية في حاجة إلى الرسالة التي أيدها الله في بدر كحاجتها اليها اليوم. ومن بعد أيام بدر إلى يوم الناس هذا لم تكن الرسالة التي أيدها الله في بدر أحوجَ إلى مثل الرجال الذين أيدها الله بهم في بدر، منها إلى مثلهم في هذا اليوم.

ان عناصر العظمة في وقعة بدر – التي كان لها ما بعدها في قيام الإسلام وتغيير مجرى التاريخ – لا تخرج عن ثلاثة عناصر:

أحدها – سمو الرسالة العظمى التي استماتت أبطال بدر في الدفاع عنها.

والثاني – الرجال الذين أدركوا بكمال مواهبهم وصفاء نفوسهم مساوىء الباطل الذي شحذوا عزائمهم لتقويض بنيانه وهدم أركانه، بعد ادراكهم قيمة الحق والخير اللذين بذلوا في تأييدهما كل ما وهبهم الله من معادن النفس وسلامة التفكير وصدق الإيمان وصلابة العزم وكريم الخلق.

والثالث – مكافأة الله لهم على هذا البذل بما وعد أهله من النصر.

ان الرسالة التي استماتت رجال بدر في الدفاع عنها. هي الرسالة الإلهية الخالدة التي صانها الله عن التشويه والتحريف. وحملت الأجيالُ أمانتها عصراً فعصراً حتى صارت الينا اليوم.

كان المنتسبون الى هذه الرسالة في يوم بدو ثلاثمائة أو يزيـدون ، وهم اليوم خمسمائة مليون أو يزيدون .

الرسالة هي الرسالة . وحاجة الإنسانيـة اليوم الى معرفة أهدافهـا والعمل بمبادئها وقواعدها ، لا تقل عن حاجة الإنسانية الى ذلك في يوم بدر . وها نحن اولاء نعد منا أكثر من الف الف مسلم في مقابل كل واحد من رجال هذه الرسالة في يوم بدر . ولا تستطيع - أيها القارىء - أن تقيم عليّ الحجة بعلمهم وجهلنا، فإن عندنا من حملة الشهادة العالمية بشريعة الإسلام مائة رجل على الأقل في مقابل كل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ في يوم بدر . فما الذي ينقصنا للقيـام بأعباء هذه الرسالة على النحو الذي قاموا به لنستحق وعد الله بأن يكون معنا، وان يجعل النصر حليفنا ؟

يا شباب الجيل ، ان رسالة الإسلام التي دافع عنها ابطـال بـدر ليوصلوا امانتها الى من بعدهم سالمة كاملة فتتناقلها العصور حتى تصل الينا واليكم ، هي رسالة الإنسانية التي لا دواء لها من اوصابها الا بها . وهي امانة ثقيلة على الجيل المثقل بالشهوات والأباطيل ، وخفيفة هينة على الجيل الذي يرجع الى فطرة الله، ويتحرى في اعماله سبيل الله ، ويقصد بجميع تصرفاته وجه الله .

ان رسالة الإسلام التي استمات في سبيلها ابطال بدر لا تحتاج الى علمـاء ينشرونها بألسنتهم ، ولكنها تحتاج الى شبـاب تهضمها ارواحهم ، وتمتزج بها نفوسهم ، وتنبض بها قلوبهم ، وتراها الأمم في اخلاق حملة امانتها من شبـاب الإسلام وفي اعمالهم وتصرفاتهم ، فتنقـاد من ورائهم الى هذا الحق وهذا الخير معجبة بهما ومقتدية بأهلها .

ان اعظم معجزات الاسلام بعد القرآن ذلك الانقلاب العجيب الذي حدث في مصر والشام والعراق وشمال افريقية وامهات البـلاد التي دخلت في الاسلام على ايدي رجال كان فيهم ابطال بدر ، وقد حار المؤرخون في تعليل ذلـك الانقلاب الذي تناول الدين ، واللغة ، والأخلاق ، والثقافة ، والعقلية ، والوجهة ، والأهداف . وقد حاول مثله المستعمرون بأحدث الأساليب ومختلف الوسائل ففشلوا ، وانما كانت علته ان ابطال بدر واخوانهم من الصحابة والتابعين كانوا يعرّفون الأمم بالإسلام بأخلاقهم وفضائلهم ، وبإنصافهم وانسانيتهـم ، فعلمت

الأمم ان الإسلام دين الانسانية المنشود ، وان الدخول فيه تكريم للإنسانية وتعجيل للنهوض بها الى مقام الكرامة اللائقة بها .

يا شباب الجيل ، لقد جاء الله بالاسلام ليجعل من اهله خلفاءه في الأرض ما عملوا به . وقد نسي المسلمون ربهم عصوراً فنسيهم الله . وان الانسانية احوج ما تكون في هذه الأيام الى الاسلام ، وسبيلها الى معرفته ان تراه مكتوباً في اخلاق اهله لا في مؤلفاتهم ، وفي تصرفاتهم لا في مقالاتهم ولا يكون ذلك الا اذا ادرك شباب الجيل من بني الاسلام ان الله اعدهم للخلافة على الأرض بالرجوع اليه ، وبامتلاكهم زمام القوة في جميع اسباب القوة : من علم وصناعة وزراعة وتجارة ، مع التحلي بأخلاق الاسلام وفضائله ، حتى تمتزج ارواحهم . وحتى يتعاملوا بها مع كل من يتعامل معهم .

هكذا فعل رجال بدر يوم خرجوا من جزيرتهم تحت ألوية الاسلام . ليعرّفوا الأمم بالاسلام : لا بكتب يؤلفونها . ولا بمحاضرات يلقونها . ولا بالجدل والمِراء والمناظرات . ولكن بعرّض الاسلام على الأمم عرضاً عملياً يراه الناس في اخلاق هؤلاء المجاهدين وفي احكامهم ومعاملاتهم وتصرفاتهم . فكانت بذلك المعجزة التي يوشك ان تكون على ايدي شباب هذا الجيل من المسلمين . اذا عادوا الى مثل ما كان عليه ابطال بدر من فضائل النفس وصدق الايمان وصلابة العزم وكريم الخلق .

وانهم يوم يفعلون ذلك يصيبون اهدافاً شتى : فيذكرون الناس بأبطال بدر ، ويعرفون الأمم بالاسلام ، ويرجعون امة صالحة للسيادة فلا تلبث ان يستخلفها الله على الأرض .

مع تلاميذ المدرسة الاسلامية الاولى

ولا اعني بالمدرسة الاسلامية الأولى (غار حراء) ، فتلك مدرسة كان يغشاها انسان فريد ، وكان طالبَ حقٍّ ناءت الانسانية بأباطيلها وانانيتها عن ان تدركه فتدرك بذلك السعادة المنشودة من اقدم العصور الى الآن . ولعلها تثوب يوماً الى رشدها ، فتلبي دعوة الله التي انار بها قلبه ، وملأ بها نفسه ، واجراها على لسانه . حتى اذا انضوت تحت لوائه جادّة صادقة مخلصة ، عاملة دائبة ، حقق الله لبني الانسان الصورة المثالية للحياة الطيبة ، فتم لهم بعدها حياة الخلود.

ولا اعني بها (دار الأرقم بن ابي الأرقم) التي كان يقوم في مكانها – على مقربة من الصفا – بيت الشيبيين من سلالة عبد الدار بن قصيّ الذين يحملون مفتاح الكعبة من ستة عشر قرناً الى الآن ، فتلك مدرسة قضت الظروف قبل الهجرة باستخفاء تلاميذها ، وبتلقيهم دروسَ الحق فيها همساً ، وكان ينبغي لي ان اخصها بصفحات من هذا الكتاب يستبين منها القارىء كيف كتب الله لتلاميذها الغلبة والظهور .

اما المدرسة التي يدور عليها الحديث الآن ، فهي البقعة التي لا تزال في المسجد النبوي الشريف بين منزل ام المؤمنين عائشة الذي تشرف بالقبر المحمدي الطاهر ، وبين موضع منبره ﷺ في جنوب ذلك البيت . ففي هذه البقعة تولى (معلم الناس الخير) اعداد الرجال الأولين الذين احدثوا اعظم انقلاب في الأرض وابقاه ، وانفعه واسماه . وقد كنت قرأت في رسالة (الإكليل) لشيخ الاسلام ابن تيمية (ص ٣١) عن ابي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمي (تلميذ اميري المؤمنين عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب واضرابهما من علماء

الصحابة كعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وابي بن كعب) وقد صار فيما بعد استاذ لشيوخ ائمة الاسلام كعاصم بن ابي النجود وعطاء بن السائب وابي اسحاق السبيعي وعامر الشعبي والحسن والحسين ابني علي بن ابي طالب وعشرات غيرهم من عظماء السلف . قال : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا – عثمان بن عفان وعبد الله ابن مسعود وغيرهما – انهم كانوا اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من « العلم » و « العمل » . قالوا – أي الصحابة – فتعلمنا القرآن والعلم .

ثم رأيت مثل هذا النص في ترجمة عبد الرحمن السلمي من طبقات القراء لابن الجزري (١ : ٤١٣) وزاد فيه : وانه سيرث القرآن بعدنا قوم لا يجاوز تراقيهم ، بل لا يجاوز ها هنا (ووضع يده على حلقومه) .

هذا اقدم نص تاريخي عرفنا به الطريقة التي كان يتعلم بها الصحابة من النبي ﷺ . كانوا لا يُعنون بالاكثار من العلم . ولكنهم يحرصون على اتقان ما يتعلمونه منه ، ثم على « العمل » به .

وأنا أفهم من ذلك أن الصحابي الذي ظهرت منه العجائب عندما قذف به الإسلام إلى أقطار المشرق والمغرب ، كان يتلقى من القرآن عشر آيات بعد عشر آيات ، فكان لا ينتقل من العشر إلى العشر إلا بعد حفظ هذه الآيات القليلة باتقان ، ثم يتدبر ما فيهن من آداب وأحكام وتوجيهات وأهداف . ثم يمرن نفسه وجوارحه على « العمل » بذلك حتى يصبح خُلقاً له وعادة وسجية . فإذا قرأ في سورة (العصر) آية « التواصي بالحق » وطن نفسه على أن يكون من أهل الحق ، سواء كان الحق في جانب المصلحة والمنفعة له ولمن يحبهم أم على خلاف ذلك . وأخذ يوصي بذلك ذويه وأحبابه والذين يستنصحونه ، ويتقبل الوصية به منهم ومن غيرهم بالبشاشة والابتهاج والسرور ، ويمضي في مسالك الأرض مقيماً للحق ناصراً له داعياً اليه بقلبه ولسانه وعمله . وكان لهذا الضرب من العلم الذي يعملون به قيمة عالية عندهم ، ويرون أنه هو العلم النافع المطلوب ، ويدعون بدعاء النبي ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع » ، فكل معرفة لها أثر نافع في تهذيب النفس . وفي الحياة الصالحة ، وفي تقوى الله والبعد عن الشر وأهله ، والدعوة إلى تعميم الخير ومناصرة أوليائه ، وفي إقامة الحق

وبسط سلطانه في الأرض ، يقبلون عليها ويمرنون أنفسهم وجوارحهم على العمل بها . ولا يشغلون مداركهم وعقولهم بلغو القول ، ولا بالفلسفة التي لا طائل تحتها فيما وراء الطبيعة وما استأثر الله بعلمه من غيبه ، مكتفين من ذلك بما ورد به النص ، لا يزيدون عليه ولا ينقصون منه . ويتعلمون العبادات بالقدوة ، ويزينونها بالخشوع ، ويجودون بالمال والنفس والولد في سبيل الحق والخير : يقيمونها في الأرض بالاعتدال والرفق إذا توصلوا اليها بهما ، ويقمعون الباطل والشر بالقوة والقسوة إذا لم يقمعا إلا بهما .

وكان الصحابة يختلفون الى هذه المدرسة فيصيبون منها علماً وهدى وفضائل وسجايا وآداباً وأحكاماً ، ما اتسعت لذلك أوقاتهم وساعدت عليه ظروفهم . قال عمر بن الخطاب : كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أُمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة — فكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بعلم ذلك اليوم ، وإذا نزل فعل مثل ذلك . فكان بعضهم أكثر ملازمة لهذه المدرسة وإحاطة بما يقال فيها ، كما كان بعضهم أعمق فهماً لما تريده هذه المدرسة ، وأوسع إدراكاً لما ترمي اليه من أهداف . هذا عبد الله بن مسعود (المتوفى سنة ٣٢) لا شك أنه من كبار علماء الصحابة وقرائهم وفقهائهم ، لأنه سادس ستة في الإسلام ، ولأنه كان ألزم لرسول الله ﷺ من ظله ، فقد جعل ﷺ إذنه عليه « أن يسمع سواده ويرفع الحجاب » فكان — كما قال ابن الأثير في أسد الغابة — يلج على النبي ﷺ ، ويلبسه نعليه ، ويمشي معه وأمامه . ويستره إذا اغتسل . ويوقظه اذا نام . فاستطاع ابن مسعود أن يلم بمجموع ما اصابه الصحابة — متفرقين — من هداية وتوجيه وتثقيف . وقد قال عقبة بن عمرو البدري (المتوفى سنة ٤٠) في مجلس شهده الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري (٢١ ق . ه - ٤٤) : ما ارى احداً اعلم بما أُنزل على محمد ﷺ من عبد الله بن مسعود . فوافقه ابو موسى على ذلك وقال : ان تقل ذلك فإنه كان يسمع حين لا تسمع ، ويدخل حين لا تدخل . وقال ابو موسى مرة : لقد قدمت انا واخي من اليمن وما نرى الا ان عبد الله بن مسعود رجل من اهل بيت النبي ﷺ ، لما نرى من دخوله ودخول امه على النبي ﷺ . وكان ابو موسى يقول : لَمجلسٌ كنت اجالس فيه عبد الله بن مسعود اوثق في نفسي من عمل سنة .

فعبد الله بن مسعود هذا – وهو ما سمعت عن علمه وفقهه وطول ملازمته الهادي الأعظم – كان يقول في عمر بن الخطاب (٤٠ ق هـ – ٢٣) : « لو ان علم عمر وضع في كفة الميزان ، ووضع علم اهل الأرض في كفة ، لرجح علم عمر » ولأجل ذلك كان ابن مسعود ايضاً يقول : «لو سلك الناس وادياً وِشعباً،وسلك عمر وادياً وِشعباً ، لسلكتُ وادي عمر وِشعبه » . ولا شك ان ابن مسعود اخذ ذلك من قول النبي ﷺ لعمر : « ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً الا سلك فجاً غير فجك » ، ومن قوله ﷺ « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» . وما ذلك الا لأن علم عمر الذي تلقاه من (معلم الناس الخير) كان علماً عظيم الشمول ، بعيد الأهداف ، يقاس عليه غيره ولا يقاس على غيره . ولأن عمر إنما كان يحاول ادراك المبادىء التي تتفرع عنها الأحكام ، والقواعد التي تبنى عليها السنن والآداب . ومع ما لعمر من ملكة فطرية في ادراك الحق لإحرازه مقاييسه كان يستعين في خلافته بعلم العلماء من الصحابة امثال عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وأُبي بن كعب وعبدالله بن عباس،وقال عمر في معاذ : « لولا معاذ لهلك عمر » ، وكان يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن.

وكانت التربية العملية في هذه المدرسة لها المقام الأول من العنـــاية ، لأنها نتيجة العلم وثمرته ، والعلم بلا تربية شر يستعاذ بالله منه ، وكل ما نحن فيه اليوم من شرور إنما هو بعض نتائج العلم المجرد من التربية .

ان اساليب رسول الله ﷺ في التربية العملية كانت المثـل الأعلى في تكوين الإنسانية بأسمى صفاتها ، و كتب السنه حافلة بنصوصها الصحيحة غضة،كأن نبرات حروفها تسمع من صوت الهادي الأعظم صلوات الله عليه ، وويل لأمة تسمع نداء هاديها يدعوها الى سلوك فجٍّ فتتحول عنه لتسلك فجاً غيره . واقرأ ان شئت في صحيحي البخاري ومسلم قصة الثلاثة الذين خُلفوا عن غزوة تبوك مروية بلسان أحدهم – كعب بن مالك السلمي – فهي نموذج للتربية المحمـدية في تكوين الرجال ، حتى خرج منهم اولئك الذين تم على ايديهم اعظم انقلاب في تاريخ المجتمع البشري .

عنايته بتربية النساء

ورأى نساء الصحابة ما يصيب ابناؤهن واخوانهن وازواجهن من علم وخلق

وتهذيب بالتزامهم مجلس رسول الله ﷺ . فبعثن اليه من قالت له :

– يا رسول الله ، غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً من نفسك .

فوعدهن يوماً لقيهن فيه ، فوعظهن وأمرهن : وكان مما أمرهن به الصدقة، والمساهمة العملية ، في اقامة الحق وتعميم الخير . فكان من علامة ايمانهن بما سمعن، وعملهن بما تعلمن ، أن كانت الواحدة منهن تنتزع القرط من اذنها فتلقيه صدقة لله والأخرى تخرج الخاتم من اصبعها فتلقيه ، وبلال يأخذ مايلقين في طرف ثوبه .

خلفاء المدرسة الأولى

وهكذا اصبح اصحاب رسول الله ﷺ – رجالاً ونساء – كالنجوم تهتدي الدنيا بنورها ، لأن ملازمتهم لتلك البقعة من مسجد الرسول جعلتهم خير أمة أخرجت للناس . فلما نشأ الجيل الثاني في الإسلام كان الموفقون للخير من شبابه يتلقفون هذه الهداية عن ألسنة الصحابة بالرواية والعلم ، ويقتبسونها من اخلاقهم بالقدوة والاتباع . واتسعت المدرسة الأولى فتفرعت عنها حلقات لعلماء الصحابة في كل بقعة وصل اليها الإسلام .

اما الخلفاء الأولون وولاتهم فقد تعلموا من المدرسة الأولى أن الولاية (تكليف وعبء) وليست حقاً لأحد منهم او متعة ، فكانوا يقومون بها باللقمة . وكانوا يعلمون ان المال الذي تحت ايديهم امانة لله يجب ان توضع في مواضعها على أحكام الله وسنن الإسلام ولما ُطعن عمر اقترح عليه اصحابه ان يعهد بالخلافة الى ابنه عبد الله ، وان عبد الله ابن عمر اهل لذلك بعلمه ، وامانته ، و ُبعد نظره ، واحاطته بأهداف الرسالة ، وبقناعته وتقواه ، فأبى عليهم عمر . ولما نال عثمان سعادة الشهادة ُعرضت الولاية على عبد الله بن عمر وعلى عليّ والزبير وطلحة فكانوا جميعاً يتهربون منها ويحيلها كل منهم على صاحبه . والذين تولوا هذا المقام الأعظم كانت الدولة كلها في نظرهم حلقة وعظ ومدرسة تهذيب يتولون فيها تربية الأمة وحملها على الطريق الواضحة .

وكان علماء الصحابة أعواناً للخلفاء على تكوين الأمة الصالحة ، فيكان من حول كل واحد منهم تلاميذ من شباب التابعين يعدّهم لقيادة الأمة وحمل اعباء الدولة ، واداء امانة الإسلام للجيل الذي يخلفهم . وأضرب المثل باثنين من

الصحابة العلماء ، لأن المقام لا يتسع للاستقصاء .

كان من تلاميذ معاذ بن جبل (٢٠ ق هـ – ١٨) مالك بن يخامر السكسكي (المتوفى سنة ٧٠) وقد عاش ما عاش ناقلاً من روح معاذ الى روحه ، ومن قلب معاذ الى قلبه ، ومن عقل معاذ وايمانه الى عقله وايمانه . فلما حضرتْ معاذ الوفاة بكى . فقال له معاذ : – ما يبكيك ؟

قال : – والله ما ابكي على دنيا كنت اصيبها منك ، ولكن ابكي على العلم والإيمان اللذين كنت استفيدهما منك .

فأجابه معاذ وهو يجود بروحه :

– ان العلم والإيمان مكانهما ، من ابتغاهما وجدهما .

ومن تلاميذ معاذ ايضاً عمرو بن ميمون الأودي (المتوفى سنة ٧٤) وهو من شيوخ الشعبي وسعيد بن جبير واضرابهما. وابومسلم عبد الله بن ثُوَب الخولاني (المتوفى بالشام سنة ٦٢) وهو من شيوخ جبير بن نفير رمكحول وامثالهما . ومسروق بن الأجدع الهمْداني (المتوفى في خلافة عمر بن عبد العزيز) وعشرات غيرهم . اما عمرو بن ميمون فكان اهم ما طلبه من معاذ في مرض موته ان يتخير له ينبوعاً آحر من ينابيع الحق والخير ، فأوصاه بأن يلحق بابن مسعود ويطلب العلم عنده ، ففعل .

ولا تتسع هذه الصفحات للكلام على عبد الله بن مسعود وحلقته ومدرسته ، ولا للكلام على اخوانه من علماء الصحابة واحداً واحداً ، فنقتصر على الإشارة الى حلقة حبر الأمة واصغر علماء الصحابة سناً عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فقد كان من تلاميذه طاوس بن كيسان الجَنَدي (المتوفى سنة ١٠٦) وهو من شيوخ المفسرين للقرآن مجاهد بن جبر ، وعمرو بن شعيب حفيد عمرو بن العاص ، والزهري ، وعمرو بن دينار ، وتلك الطبقة . ومن تلاميذ ابن عباس ، سعيد بن جبير ، وعكرمة ، وابن المسيب ، وابو العالية ، وعطاء بن يسار ، وابو الشعثاء . وعن هؤلاء انتشر العلم بالاسلام ، وبهم عرفت الشريعة ، وعلى فقههم قامت الدولة . روى البغوي في معجمه عن عطاء قال: ما رأيت قط اكرم من مجلس ابن عباس واكثر فقهاً واعظم خشية . ان اصحاب الفقه عنده ، واصحاب القرآن عنده ، واصحاب الشعر عنده : يصدرهم كلهم من واد واسع .

وروى ابن سعد قول طاوس: رأيت سبعين من اصحاب رسول الله اذا تدارءوا في امر صاروا الى قول ابن عباس . وقال ابن جبير : كنت اسمع الحديث من ابن عباس ، فلو يأذن لي لقبّلت رأسه (اي من حلاوة كلامه) . وروى الزبير ابن بكار ان ابن عباس كان يغشى الناس في رمضان – وهو امير البصرة – فما ينقضي الشهر حتى يفقههم .

وكما سنّ الخلفاء لشؤون المسلمين ان الولاية (تكليف) وليست (متعة) ، فكانوا لا يتناولون عليها اجراً الا لقمتهم وكسوتهم بالمعروف، فإن هؤلاء المعلمين الهداة من ائمة الاسلام كانوا يرون العلم وتعليمه (عبادة) لا يتناول الأجر عليها الا خسيس . وحتى الذين يقبلون الهدية – لأن قبولها من سنة الاسلام – لم يكونوا يقبلونها من تلاميذهم لئلا يكون فيها معنى الأجر عن العلم . عطاء بن السائب : كان رجل يقرأ على ابي عبد الرحمن السلمي (الذي تقدم انه من تلاميذ عثمان وعليّ وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب) فأهدى له تلميذه فرساً ، فردها وقال :

– ألا كان هذا قبل القراءة ؟

لأن الهدية قبل القراءة تكون لله ، أما بعد القراءة ففيها معنى الأجر ، والأجر على العلم ولا سيما القرآن كانوا يتعففون عنه كتعفف الخلفاء عن أموال بيت المال التي تحت أيديهم ، فضلاً عن أموال الأمة التي كانت أمانة الله تحت سلطانهم .

عنايتهم باكتشاف المواهب والتشجيع على الفضائل

وكان المتخرجون في هذه المدرسة يتعهدون الشباب بالتثقيف ، والمراقبة ، والتنويه بفضل أهل الفضل منهم . روى الزهري أن المهاجرين قالوا لعمر بن الخطاب :

– ألا تدعوا أبناءنا كما ندعو ابن عباس ؟

قال : ذاكم فتى الكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقول .

وحتى الحطيئة الشاعر غشي مجلس عمر فنظر إلى فتى بذّ الحاضرين بكلامه فقال :

– من هذا الذي نزل على القوم بسنّه ، وعلاهم في قوله ؟

قالوا : — هذا ابن عباس .

فأنشأ يقول :

إني وجدت بيـــان القول نافـــلة   يهدى له ، ووجدت العيّ كالصمم
المرء يبلى وتبقى الكـــلم سائرة   وقد يلام الفتى يوماً ولم يلم

ومر سعيد بن المسيب (١٣ — ٩٤) بعبد الله بن عمر بن الخطاب (١٠ق.هـ — ٨٣) فسلم عليه ومضى ، فالتفت ابن عمر إلى أصحابه وقال :

— لو رأى رسول الله ﷺ هذا الشاب لسرّه .

وفي كتاب المجتنى لأبي بكر بن دريد (ص ٤٥) عن أبي الحسن المدائني أن عبد الملك بن مروان دخل على معاوية وعنده عمرو بن العاص ، فسلم وجلس ، ثم لم يلبث أن نهض ، فقال معاوية : — ما أكمل مروءة هذا الفتى .

فقال عمرو : إنه أخذ بأخلاق أربعة ، وترك أخلاقاً ثلاثـة . أخذ بأحسن البِشر إذا لقي : وبأحسن الحديث إذا حدّث . وبأحسن الاستماع إذا ُحدّث ، وبأيسر المئونة إذا خولف . وترك مزاح من لا يثق بعقله ، وترك الكـلام فيما لا يعنيه ، وترك مخالطة لئام الناس .

وكان سفيان بن عيينة (١٠٧ — ١٩٨) إذا جاء شيء من التفسير أو الفتيـا التفت إلى الشافعي (١٥٠ — ٢٠٤) فقال :

— سلوا هذا الغلام

ونقل القاضي ابن خلكان عن عبد الله بن الزبير بن عيسى الحميدي (المتوفى سنة ٢١٩) قال : سمعت الزنجي بن خالد المكي (من قضاة صدر دولة بني العباس) يقول للشافعي وهو لا يزال ابن خمس عشرة سنة :

— أفتِ يا أبا عبد الله . فقد آن لك أن تفتي .

ومرض أبو يوسف (١١٣ — ١٨٢) في صدر حياته مرضاً خيف عليه منه قال محمد بن الحسن (١٣١ — ١٨٩) : فعاده أبو حنيفة (٨٠ — ١٥٠) ونحن معه ، فلما خرج من عنده وضع يديه على عتبة بابه وقال :

إن يمت هذا الفتى ، فإنه أعلم من عليها (وأومأ الى الأرض) .

وانما كانوا يفعهن ذلك لأن العلم الذي كانوا يحملونــه ، والأخلاق التي كانوا يتوارثونها ، ووصايا السلف التي كان كل حيل يؤديها الى من يخلفه ، انمـا كان ذلك كله من أمانات الملة وميراث الرسالة ، فكانوا أحرص عليـــه من حرصهم على المال والولد .

أدبهم مع شيوخهم

وكما كان الشيوخ يقدرون الأكفاء ممن سيحملون عنهم أمانات الله ، كان التلاميذ ينظرون الى شيوخهم نظرة الصالحين في الأمم الخالية الى أنبيـــائهم ، لموضع الأمانة من نفوس هؤلاء وهؤلاء .

علم سفيان الثوري (٩٧ — ١٦٠) بأن عالم أهل الشام الإمام عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي (٨٨ - ١٥٧) قادم الى مكة ، فخرج منها سفيان يستقبل ضيفها الأوزاعي حتى لقيه بذي طوى ، فحل رسن بعير الإمام من القطـــاو ووضعه على رقبته ، فكان اذا مر بجماعة يشغلون الطريق قال :

– الطريق للشيخ !

وقال أبو حنيفة (٨١ — ١٥٠) : ما صليت منذ مات حمـــاد بن مسلم الأشعري (وهو شيخه ، وكانت وفاته سنة ١٢٠) الا استغفرت لهمع والدي، وما مددت رجلي نحو داره وان بيني وبينهـا سبع سكك ، واني لأستغفر لمن تعلمت منه او علمني .

تلقى الإمام احمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤١) بعض أمانات الإسلام وسننه عن محمد بن ادريس الشافعي مدة اقامته عندهم في العراق ، فلما استتبّ للشافعي المقام في مصر ، واختار الله له الموت فيها ، جعل الإمام أحمـد يقول : ما بتّ منذ ثلاثين سنة الا وانا أدعو للشافعي وأستغفر له . وقال : ستـــة أدعو لهم سَحـَراً ، أحدهم الشافعي . وقال له ابنه عبد الله :

– أي رجل كان الشافعي ، فإني أسمعك تكثر من الدعاء له ؟

فقال : – يا بني . كان الشافعي كالشمس للدنيا ، وكالعافية للبـدن . هل لهذين من خلف ، أو عنهما من عوض ؟

كانت حلقاتهم مجامع علمية

وكان لكبار العلماء حلقات مع أصحابهم وتلاميذهم ، ينبغ كل واحد منهم في ناحية من نواحي العلم قد يبذّ بها أستاذه ، ويرى – مع ذلك – أن من أدب العلم أن يجعل علمه بين أيدي أستاذه ، كما أن من أدب البنوّة للأبوّة أن يجعل الابن ماله بين يدي أبيه عملاً بالسنة الإسلامية « أنت ومالك لأبيك » قال ابن كرامة : كنا عند وكيع بن الجرّاح الرؤاسي (المتوفى سنة ١٩٦) فقال الرجل :

– أخطأ أبو حنيفة ...

فقال وكيع : كيف يقدر أبو حنيفة يخطىء ، وعنده مثل أبي يوسف وزفر في قياسهما ، ومثل يحيى بن أبي زائدة وحفص بن غياث وحبان بن مندل في حفظهم الحديث ، والقاسم بن معن في معرفته باللغة العربية ، وداود الطائي وفضيل بن عياض في زهدهما وورعهما ؟ ومن كان هؤلاء جلساءه لم يكد يخطىء لأنه ان أخطأ ردّوه .

ومثل هذه الحلقات – التي استغنى عنها علماء زماننا بالمقاهي والأندية – أفضل وأغزر انتاجاً وأعلى في العلم مقاماً من كل ما نعرفه من مجامع العلم الرسميه التي يتزاحم أهلها عليها ابتغاء ثواب الدنيا .

وقد استمرت هذه الحلقات الى عصور متأخرة من تاريخ العلم والعلماء في الإسلام . ويقال عن الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢) في شرحه على صحيح البخاري الذي سماه (فتح الباري) ان أصحاب ابن حجر وتلاميذه كانوا كلما وصل في الشرح الى حديث من الأحاديث استقصوا كل ما ورد فيه أو قيل في تفسيره ، ولهم مع الشيخ يوم في الأسبوع يتلو أحدهم ما كتب الشيخ في خلال الأسبوع فيتباحثون فيه بين يدي الحافظ ابن حجر ، ويتولى هو تمحيص ذلك واستيفاء الكلام عليه ، فجاء (فتح الباري) دائرة معارف في علم السنة وأسرار الشريعة لا نظير لها ، وصدق عليه قول الناس « لا هجرة بعد الفتح » .

شغفهم بالعلم وتوسعهم فيه

ومع أن « العمل » كان من شروط العلم عندهم فإن « العلم » لم نكن له

عندهم حدود . كان طالب العلم منهم يساهم في مختلف ألوان العلم على قدر ما يأنس في همته من قدرة ، وفي مواهبه من كفاءة وطاقة . وهل عَلمَ الذين يزورون قبر الإمام محمد بن ادريس الشافعي ، أو يتعبدون على مذهبه في الفقه ، أنه كان أحذق قريش في الرماية ، وكان يصيب من العشرة عشرة ؟ وبرع في الشعر واللغة وأيام العرب ، فنقل القاضي ابن خلكان أن الأصمعي (١٢٢ – ٢١٦) – على جلالة قدره في هذه العلوم – قرأ على الشافعي أشعار الهذَليين . وذكروا أن أحد علماء الأنساب في العراق تحدّث مع الشافعي في هذا العلم ، فوجده من كبار العلماء ، فلما طال بينهما الحديث قال له الشافعي : مثلي ومثلك لا يليق بهما أن يتحدثا في أنساب الرجال من قِبَل آبائهم ، فتعال نتحدث في انسابهم من قِبل امهاتهم . ولقيه طلبة الطب في الفسطاط فوجدوا عنده من المعرفة في علومهم ما اطمعهم في ان يخصص لهم وقتاً يأخذون فيه عنه علوم الطب ، فأشار الى الفقهاء وهم واقفون ينتظرونه في ظل الجدار من جامع عمرو بن العاص فقال :

-- وهل ترك لي هؤلاء من الوقت ما اتفرغ به لكم ؟

وقال الربيع بن سليمان المرادي (١٧٤ – ٢٧٠) اسد رواة كتب الشافعي ومن اخص اصحابه واول من املى الحديث بجامع ابن طولون : لما قدم الشافعي الفسطاط كان يجالسه ارباب الخلق – عبد الله بن الحكم ونظراؤه – وكان حسن الوجه والخلق ، فحُبِّب الى اهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان . وكان يجلس في حلقته اذا صلى الصبح بجامع عمرو فيجيئه اهل القرآن فيسألونه فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء اهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره ،فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة . فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء اهل العربية والعَروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار فيصلي الظهر ثم ينصرف الى منزله في الفسطاط .

وقال الربيع : اقام الشافعي هاهنا في الفسطاط اربع سنين ، فأملى الفاً وخمسين ورقة ، وخرج كتاب الام الفي ورقة ، وكتاب السنن واشياء كثيرة كلها في اربع سنين . وكان – مع ذلك – عليلاً شديد العلة . وربما خرج الدم وهو راكب حتى يملأ سراويله وخفّه (يعني من البواسير) .

قال اسماعيل بن يحيى المزني (١٧٥ - ٢٦٤) قيل للشافعي :

- كيف شهوتك للعلم ؟

قال : اسمع بالحرف مما لم اسمعه ، فتود اعضائي ان لها اسماعاً تتنعم به مثلما تنعمت أُذناي .

قيل له فكيف حرصك عليه ؟

قال : حرص الجموع المنوع في بلوغ لذّته للمال .

قيل له : فكيف طلبك له ؟

قال : طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره .

وقال الربيع : سمعت الشافعي وهو مريض - وذكر ما جمع من الكتب - فقال : وددت لو ان الخلق تعلموه ، ولا ينسب اليّ منه شيء . وقال حرملة : سمعت الشافعي يقول: وددت ان كل علم يعلمه الناس، أؤجر عليه ولا يحمدونني .

●

وبعد فإن المدرسة الإسلامية الاولى كوّنت - من الاجيال الثلاثة الاولى - اصنافاً ثلاثة من الناس :

جمهوراً يقيم الحق ، ويحب الخير ، ويستحيي من الله ، ويتعامل فيما بينه بالمروءة والتواسي والإيثار .

وعلماء يطلبون المعرفة في كل ما ينفع ، ويعملون بها ، ويستعيذون بالله من علم لا ينفع ، ويضنون بأوقاتهم عليه . ويرون ان ما يحملونه من العلم هو من امانات الله والامانات لا تباع بالدراهم فيتعبدون بأدائها الى من يخلفهم عليها من اهل الكفاية والفلاح .

وحكاماً يرون الولاية عبئاً يحمله حامله لخير الدولة ، واستقامة الدعوة ، والرحمة بالامة ، فلا يبتغون على ذلك اجراً إلا الكفاف . ويعملون في الوظائف والمناصب بقاعدة « طالب الولاية لا يولى » فكانت الحال في دولتهم ان الوظائف تنشد الموظفين ، ولا ينشد الموظفون الوظائف . ولقلة التزاحم على الوظائف ، وامانة القائمين عليها ، قلّ عدد الوظائف واهلها ، فخفّ عبء

الميزانية على الامة ، وكان الامن اعمّ مما هو اليوم ، والعدل اظهر مما هو اليوم، ومصالح الناس مقضية بأسرع مما تقضى به اليوم .

لقد كانت تعاليم هذه المدرسة معمولاً بها في الاجيال الثلاثة الاولى التي قال فيها رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه (ك ٦٢ ب ١) من حديث عمران بن حصين، «خير أُمتي قرني ،ثم الذين يلونهم ،ثم الذين يلونهم ،ثم ان بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يفون » . قال الحافظ ابن حجر في تفسير هذا الحديث من فتح الباري (ج ٧ ص ٤) اتفقوا ان آخر من كان من اتباع التابعين (اي ثالث الاجيال الثلاثة) من عاش الى حدود سنة ٢٢٠ ، ثم ظهرت البدع ظهوراً فاشياً ، واطلقت المعتزلة السنتها ، وتغيرت الاحوال تغيراً شديداً ...

ايها المسلمون ، ان آداب مدرستكم الاولى وتربيتها وسننها معطلة منذ احد عشر قرناً . فهل ينبري لتجديد هذه الدعوة واحياء هذه المدرسة وتربيتها ، شباب يخضرّ بهم عود الماضي ، فينتفض بهم تراب الانقاض عن ذلك التراث ، فيظهر للدنيا جماله ، وتنبث في شرايين الملة حيويته ، فيتحرك الدولاب المعطل من سنة ٢٢٠ الى الآن .

الجواب عند الذين يحبون ان يكونوا من تلاميذ المدرسة الاسلامية الاولى خلفاً لمن سلف من اوليائها . واعتقد انهم موجودون . لان أمة محمد الى خير .

جاء الحق ، وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

ذكرى فتح مكة — ٢٠ رمضان سنة ٨ هـ

اخر عهد العرب بالوثنية

كان آخر عهد العرب بالوثنية ، يوم الفتح الأكبر ، يوم تطهير الكعبة والبيت الحرام من الاوثان وعبادتها .

والوثنية في الحجاز وجزيرة العرب مرضٌ أجنبي طرأ عليها من أرض الأردن وبلاد كنعان ، حمله منها عمرو بن لحى الخزاعي قبل الهجرة بنحو أربعمائة سنة ، فهي أقصر وثنيات العالم عمراً . ولأنها كانت قصيرة العمر ببلاد العرب لم تقم لها عندهم هياكل وتهاويل وأنظمة وأساطير ، كالتي كانت للوثنية في الصين والهند وأرض الفراعنة ، وفي أثينة وروما . وكان العرب وشعراؤهم وفرسانهم أكثر أمم الأرض سخرية بأوثانهم كما اصطدمت حلومهم بدليل من ادلة عجز تلك الأوثان وسخفها . ولعل هذا من حكمة الله في اختيار أُمة العرب وبلاد العرب لبعث خاتم رسله وأكمل دياناته من آفاقها . وإن البحث في تاريخ الوثنية العربية بين زمن عمرو بن لحى وفتح مكة يستحق دراسة منا ومن كل من يشعر بحاجة العرب إلى تصحيح تاريخهم .

السبب المباشر للزحف على مكة

إذا كان السبب الحقيقي لزحف الإسلام من المدينة لفتح مكة إنما هو القضاء على الوثنية في بلاد العرب إلى الأبد ، فإن لهذا الزحف سبباً آخر مباشراً ،وهو أن صلح الحديبية كان من شروطه أن « من أحبَّ أن يدخل في عقد الإسلام

وعهده فليدخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه » وكان بين خزاعة وبني بكر بن عبد مناة دماء وذحول ، فدخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ وعهده ، ودخلت بنو بكر بن عبد مناة في عقد قريش وعهدها . فلما مضت هدنة الحديبية بين المسلمين وقريش هاجم بعض بني بكر بن عبد مناة جماعة من خزاعة كانوا نازلين على ماء لهم يسمى (الوتير) خارج الحرم ،فاقتتلا. وعلمت قريش بذلك فرفدت حلفاءها من بكر وقاتلت معهم بالليل مستخفية إلى أن دخلوا أرض الحرم . فخرج عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة . ووقف في المسجد بين يدي النبي ﷺ وقال على ملإ الناس :

يا ربّ ، إني ناشد محمدا ... حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا
نحن ولدناك فكنت ولدا ... ثمة أسلمنا فلم ننزع يدا
يانصر هَداكَ الله نصراً اعتدا ... وادعُ عباد الله يأتوا عددا
في فيلق كالبحر يجري مُزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا

ثم قدم على النبي ﷺ بُديل بن ورقاء في نفر من خزاعة فأخبروه ﷺ بمظاهرة قريش لبني بكر في بغيها . وكانت قريش تعلم ان الاسلام بلغ من القوة شأواً عظيماً ، وان القبائل استجابت لدعوته ، وان مكة يوشك ان تصبح جزيرة تتلاطم امواج الاسلام على حافاتها . فما كاد بُديل بن ورقاء ينقلب عائداً من المدينة حتى لقي – في طريقه بعسفان – ابا سفيان بن حرب قادماً إلى مكة بمهمة من قريش ليشدّ عقد الحديبية مع النبي ﷺ ويزيدَ في مدة هدنتها ، لأن قريشاً رهبت ما صنعت في بغي بني بكر على خزاعة . ولما بلغ ابو سفيان المدينة دخل على بنته ام المؤمنين حبيبة بنت ابي سفيان واراد ان يجلس في دارها على فراش رسول الله ، فطوته عنه ، وجاهرته باستنكار الشرك واهله ، وان جزيرة العرب لم تعد تتسع لغير الاسلام . وحاول ابو سفيان ان يستشفع لقريش ببنته ، ثم بأبي بكر وعمر فلما ابوا عليه كلهم استشفع عند فاطمة بطفلها الحسن وقال لها :

– يا ابنة محمد هل لك ان تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

قالت فاطمة : – والله ما بلغ بني ان يجير بين الناس ، وما يجير احد على رسول الله ﷺ .

الزحف لفتح مكة

ما كاد ابو سفيان ينقلب إلى مكة يائساً من توثيق عهد الحديبية الذي اصبح منتوضاً ، حتى امر النبي ﷺ بالجهاز للحرب ، ولم يصرح بوجهته ، إلا ان الآراء اتجهت نحو الوجهة المقصودة . وكان لحاطب بن ابي بلتعة ولد واهل بين ظهراني قريش ، وليس له في مكة قرابة تحميهم . فأراد ان يصانع قريشاً لأجل اهله وولده ، فكتب اليهم كتاباً مع امرأة جعلته في شعرها وفيه خبر تجهيز الحملة الاسلامية ، فأعلم الله نبيه بما كتب به حاطب ، فأرسل علياً والزبير إثر المرأة حتى ادركاها في الطريق وانتزعا الكتاب منها وردّاها إلى المدينة . واراد عمر ان يقتل حاطباً لأنه نافق ، إلا ان حاطباً كان صريحاً وصادقاً في الاعتذار لزلته ، فقال النبي ﷺ لعمر « وما يدريك لعل الله قد اطلع على اهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فأنزل الله في حاطب : ﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم اولياء تلقون اليهم بالمودة ﴾ .

وسالت الأودية والطرق – في جنوب المدينة – بجحافل الحق فرساناً وركبانا ، فكانت كلما مرت بقبيلة انضم اليها المسلمون من شبابها ورجالها ، فلم ينزل النبي ﷺ مرّ الظهران حتى كان تحت الويته عشرة آلاف مقاتل ، ومع ضخامة هذا الجيش بالنسبة إلى ذلك الوقت فإن النبي ﷺ استطاع ان يعمي خبر حملته عن قريش اقصى ما يمكن ان يكون ذلك في جزيرة العرب التي اعتادت أن تتناقل اتفه الأنباء في مثل سرعة البرق .

وخرج من مكة ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة ، فلقيا النبي ﷺ بنبق العقاب ، فكلمته ام سلمة في دخولهما عليه وقالت له:

– يا رسول الله ، ابن عمك ، وابن عمتك وصهرك .

قال : لا حاجة لي بهما (وذكر سابق إساءتها اليه) فقال ابو سفيان بن الحارث : والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بنيي هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فرقّ لهما ﷺ واذن لهما ، فدخلا عليه واسلما ، وانشده ابو سفيان بن الحارث :

لعمرُك إني يوم احمل راية ... لتغلب خيلُ اللات خيلَ محمد

لكالمدلـــج الحيران اظلم ليله فهذا اواني حين اهدي واهتدي

وبينما كانت الحملة في طريقها من المدينة إلى مكة كان العباس بن عبدالمطلب في طريقه من مكة إلى المدينة مهاجراً بعياله ، وكان إلى ذلك الحين مقيماً بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راض ، فلما وقع نظره على جحافل الاسلام قال :

— واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل ان يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر .

وخطر على باله ان يسدي الى الاسلام والى قريش خيراً بحمل قريش على طلب الأمان من رسول الله ﷺ : فجلس على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وخرج عليها حتى جاء الأراك بظاهر مكة فقال في نفسه : لعلي اجد بعض الحطـــابة او صاحب لبن او ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ليخرجوا اليـــه فيستأمنوه قبل ان يدخل عليهم عنوة ،وبينما هو يلتمس من يحمل عنه الى قريش هذا البلاغ سمع تحت جناح المساء كلام ابي سفيان بن حرب وُبديـــل بن ورقاء وهمـــا يتراجعان — وكانا قد خرجا من مكة ومعهما حكيم بن حِزام يتحسسون الأخبار عن رسول الله — فسمع العباسُ ابا سفيان وهو يقول لورقاء :

— ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً .

فأجابه بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ...

فقال ابو سفيان: ان حزاعة اذلّ واقلّ من ان تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس : فعرفت صوت ابي سفيان ، فقلت : يا ابا حنظلة !

فعرف صوتي فقال : — ابو الفضل !

قلت : نعم .

قال مالك ؟ فداك امي وابي .

قال العباس : — ويحك ، هذا رسول الله ﷺ في الناس . واصباح قريش !

قال : فما الحيلة ، فداك ابي وامي ؟

قال العباس : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هـــذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فاستأمنه لك .

قال العباس : فكنا كلما مررنا بنار من نيران المسلمين – ونحن نخترق المعسكر – قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وانا عليها قالوا . عم النبي ﷺ على بغلته . حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام الي ،فلما رأي اباسفيان على عجز الدابة خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، فدخلت عليه ﷺ ودخل عمر فقال :

– يا رسول الله ، هذا ابو سفيان قد امكن الله منه بغير عقد ولا عهد . فدعني فلأضرب عنقه !

فقال العباس : يا رسول الله ، اني قد اجرته .

فلما اكثر عمر في شأنه قال العباس : مهلاً يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت انه من رجال بني عبد مناف .

فقال عمر : مهلاً يا عباس ، فوالله لاسلامك يوم اسلمت كان احب الي من اسلام الخطاب لو اسلم .

فقال ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فائتني به .

وغدا به العباس في الصباح إلى النبي ﷺ فأسلم أبو سفيان ، وجعل النبي ﷺ له ولقريش أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . وأمر النبي ﷺ العباس أن يقف بأبي سفيان في مضيق الوادي عند حطم الخيل حتى تمر به جنود الله فيراها . فوقف به ومرت القبائل على راياتها : غفار ، وجهينة ، ومزينة ، وسليم ، وأسلم ، وسعد هذيم ، حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء والمهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد . فقال أبو سفيان :

– سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟

قال : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار .

قال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ... والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما .

فقال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة .

قال : فنعم إذن .

وانفصل أبو سفيان بمشورة العباس - فطار إلى مكة ليدعو قريشاً إلى السلام ، فلما دخل مكة صرخ بأعلى صوته :

- يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبل لكم به . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

قالوا : وما تغني دارك ؟

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن :

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

على أبواب مكة

وانتهت جحافل الحق إلى ذي طوى ، فوقف ﷺ على راحلته معتجراً بشقة بُردْ حبرة حمراء ، وإنه ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما اكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل . ولما امتلأت ثنايا ذي طوى بجيوش رسول الله ﷺ كان بعض أهل مكة – ومنهم أبو قحافة والد أبي بكر – يشرفون عليها من أبي قبيس وجبال مكة يرون كثرتها ، ويراقبون حركات الخيل وهي تتقدم وتنتشر .

وفرق ﷺ جيشه من ذي طوى : فكان على المجنبة اليمنى خالد بن الوليد وتحت لوائه أسلم وسُليم وغِفار ومزينة وجهينة ، ووجهته من الليط أسفل مكة . وكان على المجنبة اليسرى الزبير بن العوام ، متقدماً إلى مكة من (كدى) وكان سعد بن عُبادة على راية من الرايات الخفاقة يقود كتائبه من ناحية (كداء) فسمعه عمر وهو يقول :

« اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحلّ الحرمة » .

فأخبر النبي ﷺ بذلك وقال : ما نأمن أن يكون لسعد في قريش صولة . فقال ﷺ لعليّ : أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذي تدخل بها . وأقبل أبو عبيدة بمن معه من كتائب الحق يسير بين يدي رسول الله ﷺ ، فسلك سبيل (أذاخر) حتى نزل بالحَجون أعلى مكة . فركزوا لواءه هناك وضربت له قبة نزل فيها ، فكانت هذه القلوب المملوءة إيماناً وقوة ترفرف كلها من حوله ، وتنتظر منه الإشارة لتهز الأرض هزاً .

وصدرت الأوامر إلى القواد وحملة الرايات بأن لا يقاتل المسلمون إلا من بدأهم بقتال ، واستثنى ﷺ نفراً عينهم بأسمائهم وكانوا قد أسرفوا في البغي على الحق وأهله ، وفي إيذاء هذه الدعوة وصاحبها صلوات الله عليه .

وأراد بعض شباب قريش وشجعانها أن يدافعوا المسلمين من جهة (الخدمة) فلما رأوا من لواء خالد بن الوليد ما قبلى لهم به انقلبوا إلى منازلهم فقبعوا فيها.

جاء الحق

ولما اطمأن الناس ، أقبل ﷺ من الحجون على راحلته مردفاً وراءه أسامة ابن زيد ومعه بلال وعثمان بن طلحة العبدري من حجبة الكعبة ، حتى جاء البيت ، وكانت حول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل ﷺ يطعنها بقضيب في يده ويقول :

﴿ جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ﴾ .

﴿ جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ .

فما أشار إلى واحد من هذه الأصنام في وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع .

فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ، فدخلها ومعه بلال ، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده وطرحها ، وكانت في الكعبة صور الآلهة فأخرجت وطرحت ، ومنها صورة ابراهيم في يده الأزلام يستقسم بها ، فقال ﷺ :

قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ! ما شأن ابراهيم والأزلام ؟ ﴿ ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ .

خطبة الفتح

ولما طهر الله بيته من الوثنية والشرك ، كبّر ﷺ في نواحي البيت ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد ، فخطبهم وقال :

« لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعي فهم تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج .

ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل اربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم ...

قال : « اذهبوا ، فأنتم الطلقاء » .

ومما خطب به يومئذ : « ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرام الله الى يوم القيامة لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، ولم تحلل لي الا ساعة من الدهر : لا ينفر صيدها ، ولا يعضد شجرها ، ولا يختلي خلاها ، ولا تحل لقطتها الا لمنشد » .

وخاطب خزاعة في الثارات والدماء التي بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة ، وبينهم وبين هُذَيل ، فقال : « يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل ان نفع . لقد قتلتم قتيلاً لأدينه . فمن قُتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين : ان شاءوا قدَم قاتله ، وان شاءوا فعقله » .

وكان أول قتيل وداه ﷺ يوم الفتح جنيدب بن الأثوع ، قتلته بنو كعب ، فوداه ﷺ بمائة ناقة .

وقام ﷺ على الصفا يدعو الله . فأحدقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ وقد فتح الله عليه ارضه وبلده يقيم بها : فلما فرغ من دعائه سألهم عما كانوا يقولون ، فأخبروه ، فقال ﷺ : « المحيا محياكم، والممات مماتكم»

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أن يغتال النبي ﷺ، وهو يطوف بالبيت فلما دنا منه توجه اليه ﷺ وقال له :

أفضالة ؟ قال : نعم ؛ فضالة يا رسول الله .

قال : ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، أذكر الله !

فضحك ﷺ وقال له : استغفر الله ... ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول بعد ذلك : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله أحب إليّ منه .

وكان صفوان بن أمية من أشد المبغضين لرسول الله ﷺ ، فلما استتبّ الأمر للإسلام في مكة ، خرج منها صفوان يريد جدة ليركب منها البحر إلى اليمن . فجاء عمير بن وهب إلى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ، إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر .

فقال ﷺ : هو آمن ...

قال عمير : يا رسول الله ، فأعطني آية يعرف بها أمانك .

فأعطاه ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة ، فخرج عمير حتى أدرك صفوان وهو يريد أن يركب البحر ، فقال له :

— يا صفوان ، فداك أبي وأمي ، الله الله في نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به .

قال صفوان : — ويحك ، أغرب عني فلا تكلمني (لأنه كان يعلم أن ذنوبه لا يغتفرها إنسان من عامة الناس ، فكيف بمن أتم الله له هذا النصر على قريش ، ويوشك أن يتم له السيادة على الدنيا) .

قال عمير : — أي صفوان . فداك أبي وأمي ، أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس ابن عمك ، عزّه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك .

قال صفوان : — إني أخافه على نفسي .

قال : — هو أحلم من ذاك وأكرم .

فرجع صفوان مع عمير حتى وقف بـــه على باب رسول الله ﷺ ، فقال صفوان للنبي ﷺ :

— إن هذا يزعم أنك قد أمنتني !

قال ﷺ : — صدق .

قال صفوان : — فاجعلني فيه بالخيار شهرين .

قال ﷺ : — أنا بالخيار فيه أربعة أشهر .

وهذا الموقف بين المسيء المخذول ، والمنتصر الذي عليه الإساءة ، لم يسبق له نظير من عهد آدم أبي البشر إلى هذا اليوم ، لا في شرق الأرض ولا في غربها .

وعكرمة بن أبي جهل الذى عرفه تاريخ الإسلام بعد الفتـح من أعظم قادة جيوش الإسلام وأصدقها جهاداً وعبادة وتقوى ، هو ايضاً هرب الى اليمن يوم الفتح ، فاستأمنت له زوجته أمّ حكيم رسولَ الله ﷺ فأمنه ، فلحقت بـــه باليمن فجاءت به ، وكان بعد ذلك من عظماء الإسلام وأبطال التاريخ .

وابن الزبعري فرّ بعد الفتح الى نجران ، فرماه حسان ببيت واحد ما زاده عليه فقال :

لا تعدمنْ رجلاً أحلك بغضه ... نجران في عيش أحـــدّ لئيم

فلما سمعه ابن الزعبري عاد الى رسول الله فأسلم وقال :

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور
اذ أباري الشيطان في سنن الغي ... ومَن مالَ مَيلة مثبور
آمن اللحمُ والعظـامُ لربي ... ثم قلبي الشهيد أنت النذير

وقال :

يا خير من حملت على أوصالها ... غيرانة سرح البدين غشوم
اني لمعتذر اليــك من الذي ... أسديت اذ أنا في الضلال أهيم
فاليوم آمن بالنبي محمـــد ... قلبي ، ومخطىء هذه محروم

مضت العداوة وانقضت أسبابها ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والداي كلاهما زللي، فإنك راحم مرحوم

وبعد فإن فتح مكة كان فتحاً لقلوب العرب وأرواحهم للحق الذي بعث الله به رسوله الى الأمم، وان رسالة الخير لا تزال في حاجة الى مثل تلك القلوب لتتم بها نعمة الله على الإنسانية. فهل في أولياء الإسلام من رجاله وفتيانه من يسخو بقلبه فيغسله بالإسلام الفطري الطاهر، ليعرد كقلوب أصحاب رسول الله ﷺ فيصلح الله الأرض بمسلمي هذا العصر؟

ان التاريخ منتظر ليسجل ...

رجلان مؤمنان

أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند حسن عن عمرو بن العاص قال: فزع أهل المدينة فزعاً فتفرّقوا. فنظرتُ الى سالم مولى أبي حذيفة في المسجد عليه سيف، ففعلت مثله، فخطب النبيّ ﷺ فقال: «ألا يكون فزعكم الى الله ورسوله؟ ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان»؟

جوار العروبـة، وذمـة الاسلام

يقرأ الناس وقائع التاريخ العربي، وسنن الرسالة الإسلامية، قراءة سبقتها صورة تقليدية للعروبة والإسلام نقشت في أذهانهم، فهي تمنعهم من الانتبـاه لجواهر ثمينة في السجايا العربية، وكنوز عظيمة في التشريـع الاسلامي. وما لم نتحرر من تلك الصورة البالية التي شوهنا بها أعظم تاريخ وأثمن تشريـع، فلن نجدد بعثهما، ولن ننتفع من تراثهما.

في مقال لصديقي الأستاذ عمر الدسوقي سجّل به صفحة من بطولة ربيعة بن مكدّم بعنوان (حامي الظعينة)، موقفٌ من مواقف العـبرة لا أدري كم من قرائه وقف عنده وفكر فيه واعتبر به. وكم منهم بقي مستنيماً لتلـك الصورة البالية في ذهنه، فحالت بينه وبين التمتع بمعنى نبيل من معاني الانسانية انطوت عليه صفحات ذلك المقال، وقلما نظفر بمثل تلك المعاني الا في تاريخ العرب.

يقف الفارسان النبيلان – ربيعة بن مكدم ودُرَيد بن الصمة – وجهاً لوجه، على ساحة مضرّجة بالدماء من وادي الأخرم، وفي الأرض جثث ثلاثـة من فرسان دريد يتخبطون بدمائهم، وربيعة مجرد من السلاح لأن رمحه انكسر وهو يقاتل آخر الفرسان الثلاثة وعلى مقربة منه زوجته وكانت ظـاعنة معه. ترى ماذا يكون لو أن هذين الفارسين أحدهما بريطاني والآخر جرماني وكلاهما في حالة حرب؟ أقصى ما يفعله شاكي السلاح لعدوه الأعزل أن يمنّ عليه بالأسر، وأن يقوده الى معسكر من معسكرات الاعتقال. أما دُرَيد بن الصمة فإن روحه العالية التي عرفناها في فروسيته، دفعته الى تقديم رمحه لعدوه الشجاع ليبقى به طليقاً يضرب الأمثال العملية لفروسية العرب وشجاعتهم.

ودارت الأيام دورتها، فقتل ربيعة بن مكدم في احدى الوقائـع. وسقط دريد بن الصمة أسير ذات يوم في قبيلة ربيعة. ووقع نظر زوجة ربيعة على دريد وهو في الأسر، فعرفته، وذكرت نبله مع زوجها في وادي الأخرم، فصاحت:

– يا لقومي ، أنا (جارة) لهذا الفارس الأسير ، لأنه صاحبنا الذي حدّثتكم عنه في يوم الوادي ...

وأقرّت بنو كنانة (جوار) أرملة ربيعة بن مكدم، فأطلقت سراح أسيرها الشاعر البطل الشريف دريد بن الصمة .

وتدور الأيام دورة أخرى فيبعث الله رسالة الاسلام في أمة العرب، ليبعثهم هداة برسالة السماء الى أهل الأرض جميعاً . ويفتح الله لعبده ورسوله وطنه الأول مكة . فينقلب الى منزله ليغتسل من وعثاء القتال ومتاعب السفر ، وفيما هو يغتسل وفاطمه ابنته تستره ، تدخل عليهم ابنة عمه ام هانىء بنت ابي طالب وتقول له – بعد ان فرغ من غسله ومن صلاته – :

– يا رسول الله ، زعم ابن عمي (عليّ) انه قاتل رجلاً قد (اجرُته) .

فأجابها رسول الله ﷺ :

– قد اجرنا من اجرت يا ام هانىء .

وكان من اجارته بعض احمائها من بني مخزوم ، وما كانت ام هانىء لتجير الا من تأمن جانبه على الحق الذي يحمل ابن عمها رايته ، وما كان لعربي ولا لعربية ان يمنحا جوارهما الا من هو اهل له .

وتناول الاسلام (نظام الجوار) من انظمة العرب ، فاستثمر ما فيه من خير ونبل ، وزاده تهذيباً وتعميماً ، حتى خرج منه انبل نظام عرفته الحروب في جميع امم الأرض ، اعني به ذمة (الاسلام) . روى الامام ابو عبدالله البخاري في مواضع متعددة من صحيحه عن ابراهيم التيمي عن ابيه يزيد بن شريك التيمي قال : خطبنا عليّ رضي الله عنه على منبر من آجر وعليه سيف فيه صحيفة معلقة فقال : « والله ما عندنا كتاب يُقرأ الا كتاب الله وما في هذه الصحيفة من اقوال رسول الله ﷺ :

« ذمة المسلمين واحدة ، يسعى بها ادناهم . فمن اخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا » .

ومعنى هذا التشريع المحمدي ان اقل انسان في جيش المسلمين – حتى لو كان امرأة او عبداً او فتى في بداية سن الرشد – له من العزة والكرامة والمكانة

في هذه الملة ما يحق له به ان يمنح الأمان والذمة لمن يرى ان في منحهما له ما تقضي به الأخلاق والمروءة والمبادىء السامية .

ومعنى هذا ايضاً ان الاسلام – كما كان يفهمه اهل العصر النبوي – يسمو بنفوس اهله الى المكانة التي تعصمهم عن الحاق الأذى بالجند الذي هم منه ، ويربأ بهم عن الميل مع اهوائهم فيما يتعلق بحياة الجماعة وحقوقها .

ان المسلم الذي يقاتل في جيش يبلغ من ثقته به ان يمنحه هذا الحق ويبلغ من قدره عنده ان يكرمه هذا الاكرام ، ويبلغ من احترامه له ان يمضي امانه ويجيزه ، جدير به ان يشعر في نفسه بالعزة التي قررها له كتاب الله ، وجدير به ان يحافظ على هذه المكانة بما ينبغي لها من اخلاق . وهذا مفتاح من مفاتيح التاريخ الاسلامي تدخل منه الى مستودع اسراره ، فتحل بعض الغاز تلك المعجزات التي تمت على ايدي المسلمين في الصدر الأول .

كنت اسمع عن مزايا الاستعمار البريطاني ان الجندي من جنوده اذا كان في السودان او في الهند يسير على الأرض وهو يشعر انه هو الامبراطورية البريطانية تمشي على قدمين متصلين بجسمه . ولأني اقرأ تاريخ الاسلام مسترشداً بتشريعه واهداف رسالته في فهم وقائعه وتصرفات اهله ، كنت اقول لمن يذكر هذا عن الجندي البريطاني : ان شعوره بأنه هو الامبراطورية البريطانيه ناشىء عن الكبرياء الذميمة اكثر مما هو ناشىء عن العزة الحميدة والفرق بين كبرياء الجندي وعزة المجاهد المسلم ان الجندي الذي يشعر بالكبرياء في مستعمرة اسيوية او افريقية لا يستطيع لا هو ولا الضابط الذي يأتمر بأمره ولا من هو اعلى منهما مقاماً ان يمضي امراً كمنح الأمان والذمة للعدو المحارب او ما هو اقل من ذلك، فكبرياؤه لا ثمرة لها الا الاستعلاء على ابناء المستعمرات ، وزيادة حنقهم على الاستعمار ، وشوقهم الى الحرية . اما العزة التي يشعر بها المجاهد المسلم ، فهي في مقابل ما اعطته من حق وكرامة ارتفعت بنفسه الى درجات العلى ، وزادته حرصاً على تنزيهها من كل ما يشوبها من النقائص ، فكان المسلم من اولئك المسلمين يتخذ من سيرة رسول الله ﷺ اسوة له في حمل رسالة الاسلام وفضائله الى بني الانسان حيثما كانوا ، ويرى انه هو نفسه مرسل بهذه الرسالة ما عاش في هذه الدنيا ، وانها امانة في عنقه الى كل من يحب لهم الخير من البشر .

والمسلم الذي هذا شأنه جدير بأن يسعى في ذمة الاسلام وامانه في كل ما

يؤدي اليه اجتهاده وجهاده ، وجدير بالدولة وجيشها ان يجيزا له هذا الأمان ، لان ذمة المسلمين واحدة وكل واحد من المسلمين اهل لان يسعى بها ، حتى لو كان امرأة او عبداً او غلاماً يافعاً . بل قال امام اهل الشام ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي : اذا غزا الذمي مع المسلمين فأ ّمن احداً من جيش العدو ، كان للإمام ان يمضي امان الذمي للعدو . وان لم يمض له امانه فعليه ان يرد ذلك العدو الى مأمنه .

ومردّ هذا الحكم – فيما اظن – الى ان الذمي اذا كان موضع الثقة في الحاقه بالجيش الاسلامي فقد اصبح موضع امتحان في حسن استعماله ثقة الجيش الاسلامي به ، فإذا ا ّمن احداً من العدو ولم يجد الامام ريبة في هذا التصرف امضاه ، والا فإن استعمال الذمي في جيش المسلمين يترتب عليه – في ادنى المرتبتين – ان لا يُخفر امانه ، وان يرد من ا ّمنه الى مأمنه .

اما المسلم – واعني المسلم الذي له مثل اخلاق الصحابة والتابعين وايمانهم – فإنه اذا منح ذمة المسلمين لعدو ، وحاول احد من المسلمين ان يُخفر ذمته ، فإن الصحيفة التي كتبها علي بن أبي طالب من تشريع محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه تستنزل على من يُخفر تلك الذمة لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا .

وهذه مرتبة للمسلم ، وكرامة للنفس الاسلامية ، لا تستطيع امة ان تدّعي مثلها لنفسها ولرجالها من يوم خلق الله آدم الى يومنا هذا .

لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

نقل ابو الفرج بن الجوزي في صفة الصفوة (١ : ١٢١) عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي – الذي أتى ذكره في صفحة ٦٣ – أن عليّ ابن أبي طالب قال :

« أوحى الله عزّ وجل الى نبيّ من الانبياء أنه ليس من أهل بيت ولا أهل دار ولا أهل قرية يكونون لي على ما أحب فيتحولون عن ذلك الى ما أكره الا تحوّلتُ لهم مما يحبون الى ما يكرهون . وليس من أهل بيت ولا أهل قرية يكونون لي على ما أكره فيتحوّلون من ذلك الى ما أحبّ الا تحوّلتُ لهم مما يكرهون الى ما يحبون » .

احـد مشركي قريش

يحلو لي كثيراً أن أثبت في أذهان قرّائي ذلك المعنى الذي أردّده على أسماعهم المرة بعد المرة ، وهو أن رسول الهدى ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه لم يخرج من الدنيا إلا بعد أن صارت قريش كلها من كرام أصحابه ، وبعد أن أضحى كل واحد منهم من خُلّص أحبابه الذين كان يراهم كالنجوم ويقول لنا : « بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

فالذين يشتمون الآن مشركي قريش ، إذا انسحبت شتائمهم على عدد قليل من الذين كتبت عليهم الشقوة فماتوا قبل أن يسلموا ، فإن مما لا شك فيه أن هؤلاء كانوا قلة قليلة لا تستحق كل هذا الاهتمام بأمرهم ، ومواصلة التحدث عنهم في كل موسم . وأما إذا كان المراد من مشركي قريش كل من تأخر إسلامه من أهل مكة قبل الهجرة أو قبل الفتح ، فإن هذه الشتائم تصيب حينئذ مئات أضعاف ذلك العدد ممن نتشرف كلنا بطلب رضوان الله لهم ونتمنى أن يؤهلنا ربنا لنكون — يوم الحشر الأعظم — من الذين يمشون في ظلالهم .

وأضرب المثل في كلمتي هذه رجل كان من مشركي قريش ، وقد بلغ من مقاومته لدعوة الإسلام أن كان يهجو رسول الله ﷺ فيُضطر حسان بن ثابت إلى أن يجيبه على ذلك الهجو بغرر قصائده وبليغ شعره .

هذا الرجل هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم النبي ﷺ . وأخوه من الرضاعة ، وأحد الخمسة من آل عبد مناف الذين كانوا يشبهون رسول الله ﷺ ، وسنذكرهم في فصل آخر . وفي أبي سفيان هذا يقول حسان بن ثابت أبياته الميمية التي منها :

لعمرُك إن إلّـكَ من قريش كإلّ السقب من رأل النعام

وفيه يقول همزيته المشهورة :

ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفــاء
هجوتَ محمداً، فأجبتُ عنه وعنــد الله في ذاك الجــزاء
أتهجــوه ولست له بكفء فشرّكما لخـــيركما الفـــداء
فإن أبي ووالده وعِـرضي لعرض محمـــد منكم وِقاء

إن الذين يشتمون مشركي قريش في محاضراتهم وقصائدهم إنما تنصرف شتائمهم – أول ما تنصرف – إلى ابن عم نبيهم أبي سفيان بن الحـارث بن عبـد المطلب وأمثاله . ونحن نذكر لهم طرفاً من ترجمته ليكونوا على بينة مما يصنعون .

لما دنا النبي ﷺ بجيشه من مكة عام الفتح ، خرج اليه ابن عمه أبو سفيان ابن الحارث وصهره وابن عمته عبد الله بن أبي أمية المخزومي أخو أم المؤمنين أم سلمة [١] ، فلقيا رسول الله ﷺ بين السقيا والعرج ، فقالت له ام سلمة: «يارسول الله ، لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك » فقال علي بن أبي طالب لابن عمه أبي سفيان بن الحارث : ائت رسول الله ﷺ من قِبَل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿ تالله لقد آثرَك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ فإنه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسن قولاً منه . ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ﷺ ﴿ لا تثريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ وقبل منهما وأسلما ، وفي إسلامه واعتذاره مما سلف منه يقول رسول الله :

لعمرُك إني يوم أحمـــل راية لتغلب خيلُ اللات خيلَ محمد
لكالمدلج الحيران أظـــلم ليله فهذا أواني حين أهدي وأهتدي
هداني َهادٍ غير نفسي ودلني على الله من طرّدته كل مُطرد
أصدّ وأنأى جاهداً عن محمد وأدعى وإن لم أنتسب من محمد

ومن تلك الساعة كان أبو سفيان بن الحارث سيفاً من سيوف الله ، بل كان للإسلام أقوى من كتيبـــة ، وخيراً من جيش : مشى في ركاب رسول الله إلى

(١) امهما عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم .

الطائف ، وكان في أشد الخطر على الإسلام يوم حنين احد السبعة الذين ثبتوا مع النبي ﷺ ولم تفارق يده لجام بغلة رسول الله ﷺ حتى رجع المسلمون اليهم وكانت النصرة لهم ، مما يعلم تفاصيله الواقفون على السيرة النبوية الشريفة .

وهذا الرجل الذي كان احد مشركي قريش هو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ « ابو سفيان بن الحارث سيد فتيان اهل الجنة » ، ويقول له « ارجو ان تكون خلفاً من حمزة بن عبد المطلب » ، وروى ابو حية البدري ان رسول الله ﷺ قال فيه « ابو سفيان خير اهلي » او « من خير اهلي » . اما قول رسول الله ﷺ في ابي سفيان « كل الصيد في جوف الفرا » فالأكثرون يرون انه قال ذلك في ابي سفيان بن حرب ، وقال ابن دريد وغيره من اهل العلم بالخبر إنه قاله في ابي سفيان بن الحارث ابن عمه هذا . وقد بلغ من حيائه انه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ ، فكان بسبب ما اجتمع فيه من هذه الفضائل معروفاً عند جميع الصحابة بأن رسول الله ﷺ يحبه محبة يتمنى بعضها لنفسه كل مسلم إلى يوم القيامة .

وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب هو الذي يقول ، ولا ادري اقال ذلك قبل إسلامه ام بعده :

لقد علمت قريش غيرَ فخر	بأنا نحن اجودهم حصانا
واكثرهم دروعاً سابغات	وامضاهم اذا طعنوا سنانا
وادفعهم لدى الضرّاء عنهم	وابينهم اذا نطقوا لسانا

ومن غرر شعره قوله يبكي رسول الله ﷺ عشية انتقل الى الرفيق الأعلى :

ارقت فبات ليلي لا يزول	وليل اخي المصيبة فيه طول
فأسعدني البكاء ، وذاك فيما	اصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت	عشية قيل قد قبض الرسول
واضحت ارضنا مما عراها	تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحي والتنزيل فينا	يروح به ويغدو جبرئيل
وذاك احق ما سالت عليه	نفوس الناس او كادت تسيل
نبي كان يجلو الشك عنا	مما يوحى اليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً	علينا والرسول لنا دليل

أفاطم ان جزعت فذاك عذر وإن لم تجزعي ذاك السبيل
فقبر ابيك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول

وفي خلافة عمر بن الخطاب (سنة ٢٠) مات ابو سفيان بن الحارث في مدينة الرسول بعد موت اخيه نوفل بن الحارث بأربعة اشهر ، وكان حفر قبره بنفسه قبل ان يموت بثلاثة ايام . وعندما حضرته الوفاة قال لمن حوله «لاتبكوا عليّ فإني لم انتطف بخطيئة منذ اسلمت » . وقد ام الناس في الصلاة على جنازته امير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وعد الصحابةُ موتــه رزءاً على الإسلام جسيما . رضي الله عنه وحشرنا معه في كتيبة فتيان الجنة .

وصيــة

قال عليّ بن أبي طالب :

أسندتُ النبيّ ﷺ إلى صدري فقال لي :

« يا عليّ ، أوصيك بالعرب خيراً » .

رواه أبو بكر البزار في مسنده .

اشباه رسول الله ﷺ من آل عبد مناف

كان في آل عبد مَناف خمسة رجال يرى الناس في وجوههم وجسومهم شبهاً برسول الله ﷺ .

أولهم — ابن عمه جعفر بن أبي طالب ذو الجناحين وأمير المهـــاجرين الى الحبشة ، وقائد جيش المسلمين في غزوة مؤتة ، وفيها ذهب الى الله شهيـداً في سبيله وفي جسمه أربـع وخمسون ضربة سيف ونحو أربعين طعنة ورمية . وقال له رسول الله ﷺ : « أشبهتَ خَلقي وُخلقي » .

الثاني — ابن عمه وأخوه في الرضاعة ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وقد كتبنا في الفصل السابق كلمة في ترجمته وبعض ثناء رسول الله ﷺ عليه ، ومن ذلك قوله : « ابو سفيان بن الحارث سيد فتيان اهل الجنة » .

الثالث — ابن عمه ُقثم بن العباس بن عبد المطلب ، وهو آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ ، وكان اخاً للحسين بن علي من الرضاعة . تولى لعلي إمارة مكة ، وجاهد في خلافة معاوية تحت لواء سعيد بن عثمان بن عفـــان حتى بلغ سمرقند ، وفيها نال شرف الشهادة في سبيل الله .

الرابع — السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد مناف جدّ الإمام محمد بن ادريس الشافعي رحمه الله . وكان صاحب راية بني هاشم مع المشركين يوم بدر ، فأسره أصحاب رسول الله ﷺ ففدى نفسه واسلم من يومئذ . وبلغ من شرفه قول عمر بن الخطاب وقد بلغه مرض السائب «اذهبوا بنا نعودالسائب ابن عبيد فإنه من ُمصاصة قريش » ، وقد قال فيه النبي ﷺ حين أتى بـــه

وبعمه العباس : « هذا اخي » ، وقد اجمع رواة ترجمته على انه احد الخمسة الذين يشبهون رسول الله ﷺ .

والخامس — سبطه ابو محمد الحسن بن علي بن ابي طالب، وهو الذي صحت فيه نبوّة جده صلوات الله عليه وعلى آله وسلم يوم قال : « ان ابني هذا سيد، يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . وقال البراء : رأيت النبي ﷺ والحسن على عاتقه وهو يقول « اللهم إني احبه فأحبه » وقال انس : لم يكن احد اشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي رضي الله عنهما .

لقد دخل قلب الاعرابي الايمان

سمع اعرابيّ النبيّ ﷺ يقرأ قول الله عزّ وجل : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ خيراً يرَه ، ومَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ شرّاً يرَه ﴾ فقال :

— يا رسولَ الله أمِثقالَ ذرّة ؟

فقال النبيْ ﷺ : نعم .

فقال الأعرابي : واسوْأتاه ! (ثم قام وهو يقولها) :

فقال النبيّ ﷺ : « لقد دخلَ قلبَ الأعرابي الإيمان .

حكيم بن حزام

قال لي صديق كنت قد تعرّفت به قبل بضع وعشرين سنة في إحدى الجمعيات الإسلامية : قرأتُ لك مقالاً ذكرتَ فيه بعض حكمة الله في إظهار الإسلام من آفاق العرب ، وأُعجبت بما انطوى عليه من حقائق عظيمة لم يسبق لنا الاطلاع عليها مجتمعة على هذا النسق ، ولكني لا أزال مقتنعاً بالنقائص المجملة التي يلصقها بالعرب وقريش كل من يقف محاضراً في احياء ذكرى الهجرة المحمدية أو ذكرى المولد النبوي ، فلا يمدحون الإسلام الا بذم العرب ، ولا يذكرون منقبه للمسلمين الأولين الا بمثلة لأعيان قريش وأشرافها يوم كانوا مشركين .

فقلت له : وكم في المسلمين الأولين من رجل يبلغ منزلة عمر بن الخطاب ؟ومع ذلك فإنه أجد رجال قريش الذين قاوموا الإسلام ، وان حادثة اسلامه مقرونة بدخوله على أخته وزوجها وهما يتدارسان آيات القرآن ، فدخل ليبطش بهما ، وليؤذيهما على انضمامهما الى الداخلين في الهداية المحمدية . فهل مقاومته السابقة للإسلام تغطي على ما وهبه الله من سجايا لا يستطيع احد ان ينكر انها نادرة الوجود في اكثر مَن خلقَ الله من الإنسان ؟ ثم هذا خالدَ بن الوليد ، وهو الذي كان في صفوف مشركي قريش الى ما بعد وقعة أُحد ، وكان سبب نكبة المسلمين في ذلك الحين ، فهل ترى موقفه هذا من الإسلام قبل دخوله فيه يغطي على مكانتـه في الإسلام ، وعلى مزايا جهاده التي تعجز انت واعجز انا عن ان نجد لهـا نظيراً في نوابغ الأمم الأخرى ؟ وان في المسلمين اليوم ملايين من الناس يعدّ اسلامهم من حسنات خالد، لأن البلاد التي هم منها دخلت في حوزة الاسلام بجهاده وبعبقريته العربية وبأنه وقف سيفه وحياته لخدمة الهداية المحمدية العظمى .

قال لي صاحبي : دعني من هؤلاء العظماء فهم افذاذ لا يقاس عليهم ، واضرب لي مثلاً من اعيان قريش وابناء بيوتاتهم الذين ابطأ اسلامهم ولم يتسنّموا ذرى الإمارة والقيادة في الاسلام ، فإني احسب هذه الطبقة هي التي يقاس عليها فيما تذكرونه من سجايا للعرب ، وان هذه السجايا هي التي اهلت الأمة العربية لإكرام الله لها بإظهار الاسلام من آفاقها .

وكاد صاحبي يحرجني ، لأن الامثلة من هذا النوع قلما تستحضرها الذاكرة عند الحاجة اليها ، وان كانت من الكثرة بحيث تنطبق على اكثر العرب، ولاسيما اشرافهم وابناء البيوت الكريمة منهم . ثم خطر ببالي (حكيم بن حزام) من آل خويلد بن اسد بن عبد العزّى بن قُصيّ ، وكانت خديجة ام المؤمنين عمته ، والزبير بن العوّام ابن عمه ، وام حبيب بنت اسد جدة آمنة بنت وهب اخت جده فحكيم بن حزام هذا ولد قبل النبي ﷺ بثلاث عشرة سنة ، وكان المولود الوحيد الذي ولد في جوف الكعبة ولا يعرف احد ولد فيها غيره ، وكانت دار الندوة التي تأتمر فيها قريش ملكاً له وبقيت في ملكه الى ان اشتراها منه معاوية ابن ابي سفيان زمن خلافته . وكان حكيم هذا من اكرم مشركي قريش، واكثرهم صدقات على الفقراء والمحتاجين . ومع هذا فإنه قاوم الإسلام مع قومه معظم مدة البعثة النبوية قبل الهجرة وبعد الهجرة ، وكان مع فرسان قريش في غزوة بدر ، ولم يدخل في الاسلام الا يوم فتح الله مكة لنبيه ﷺ ، اي بعد الهجرة بثماني سنين وقبل وفاة النبي ﷺ بسنتين ، لكنه لما اسلم اسلم اسلاماً صادقاً مَن لي ولأمثالي بعُشر معشاره ! رووا عنه انه كان اذا اجتهد في يمين يحلفها في الشؤون الجلى يقول « والذي نجاني ان اكون قتيلاً يوم بدر ... » ، وروى عنه البخاري ومسلم في صحيحيهما انه سأل رسول الله ﷺ :

— ارأيتَ اشياء كنتُ اتحنّثُ بها في الجاهلية من صدقة وعتاقة وصلة رحم، فهل لي فيها من اجر ؟

فقال له النبي ﷺ : — اسلمتَ على ما اسلفتَ من خير .

قال حكيم بن حزام . فقلت للنبي ﷺ « فوالله لا ادع خيراً صنعته في الجاهلية الا صنعت في الاسلام مثله » وهكذا اخذ هذا الشريف العربي ينفق

امواله في الاسلام على وجوه الخير ، لئلا يكون في الاسلام اقل خيرات ومبرات مما كان يفعله في الجاهلية .

حج وهو مسلم في احدى السنوات ، فساق امام راحلته مائة ناقة سمينة من اغلى الإبل واجملها ، وجللها بالحبرة ، واقمشة الحرير ونحرت كلها في الحج ليأكل فقراء المسلمين من لحومها صدقة لله عز وجل .

ووقف مرة بمائة وصيف من مماليكه في رقابهم اطواق الفضة منقوشاً عليها هذه الكلمات :

« عتقاء الله ، عن حكيم بن حزام »

واهدى مرة الف شاة ذبحت كلها في منى للفقراء والمساكين .

وان مكارمه هذه حملت النبي ﷺ على ان يعطيه يوم حنين مائة بعير .

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن حكيم بن حزام انه قال : سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : « يا حكيم ، ان هذا المال حلوة خضرة ، فمن اخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن اخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » .

قال حكيم : فقلت : يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا ارزأ احداً بعدك شيئاً حتى افارق الدنيا .

فلما كانت خلافة ابي بكر الصديق – رضوان الله وسلامه عليه – كان يدعو حكيماً مع من يدعوهم من طبقته من اشراف العرب ليعطيه العطاء ، فيأبى حكيم ان يقبل منه شيئاً ، ثم دعاه عمر – رحمه الله ورضي عنه – ليعطيه في خلافته فأبى ان يقبل ، فوقف عمر في وجوه الصحابة واعيان المسلمين وقال : « يا معشر المسلمين ، اشهدكم على حكيم ، اني اعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء ، فيأبى ان يأخذه » .

وسبب زهده هذا بما في ايدي غيره من الأموال ان حكيماً بر بما آلى ان لا يرزأ احداً من الناس بعد النبي ﷺ شيئاً حتى توفي . وكان كلما دفعته نحيزة الكرم لأن يواصل في الاسلام مثل ما كان يجود به في الجاهلية مد يده الى املاكه فيبيعها شيئاً فشيئاً ، فلما كان زمن معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهما – كانت

دار الندوة لا تزال في ملكه ، فاشتراها منه معاوية بمائة الف درهم ، فقال عظماء قريش لحكيم بن حزام « بعت مكرمة قريش » ، فأجابهم « لقد ذهبت المكارم الا بالتقوى ». أي ان مكارمه العربية ذهبت بأمواله ثم بأملاكه ثم بدار الندوة ، ولكنها ابقت له التقوى، وتصدق بالمال الذي اخذه من معاوية ثمناً لدار الندوة.

هذه شخصية من شخصيات قريش وأشراف العرب الذين قاوموا الاسلام ، ثم قام الاسلام على عواتقهم . ومن الثابت عند علماء السنة انه لما حج النبي ﷺ حجة الوداع لم يبق بمكة ولا في الطائف احد من قريش او ثقيف الا شهد الحج مع رسول الله مؤمناً برسالته ، وما منهم الا من يصْدق عليه اسم (الصحابي) في اصطلاح علماء الحديث ، لأن كل من تخلف عن الاسلام قبل ذلك حتى يطمئن قلبه لدعوته صار بعد حجة الوداع من اصحاب النبي الكريم ، والذين ماتوا من قبل على الشرك محدود عددهم ، ويكادون يكونون معروفين بأسمائهم . فليحذر قوم ان يؤذوا رسول الله ﷺ بسبّ اصحابه وذوي رحمه وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً كما يفعل الجاهلون . وقد حفظ لنا تاريخ العصر النبوي ان نسوة – او رجالاً – تعرضوا لدرة بنت ابي لهب وذكروا اباها بما يؤلمها ، فغضب النبي ﷺ وخرج الى مسجد المدينة فوقف بين من حضره من المسلمين والمسلمات وقال « ما بال اقوام يؤذونني في اهلي ! » فندم اولئك النسوة – او الرجال – على ما سلف منهم ، ولم يعودوا الى شيء مما اغضب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ومن لطيف ما كان يتباسط به اصحاب رسول الله ﷺ بعد ان صاروا جميعاً مسلمين كلمة ضرار بن الخطاب الفهري - وهو من بني محارب بن فهر ، وكانوا من قريش الظواهر – فقد قال هذا الفارس الشاعر الصحابي : زوّجت عشرة من اصحاب النبي ﷺ بالحور العين . وقال لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما وهو يداعبه في الاعتذار عما كان من حرب قريش وهم مشركون لبني عمومتهم من قريش المسلمين :

– نحن كنا خيراً منكم لقريش ، فقد ادخلناهم الجنة ، وانتم ادخلتموهم النار.

ولو شاء ابو بكر لقال لضرار بن الخطاب : ان هذا الاسلام ثبتت دعائمه

في جزيرة العرب كلها على اثبت اساس بأقل ما يكون من الضحـــايا منـــكم ومنا يوم كنا وكنتم مفترقين وان امماً غير امتنا وبلاداً غير بــلادنا ليتذابحون على ما هو اقل من ذلـــك واهون خطراً فتسيل بلادهم بدماء ابنائهــا ثم لا يتحدون على الحق والهـــدى كما اتحدنا ، فالحمد لله على جميل صنعـــه ، انه احكم الحاكمين .

●

وبعدُ فإن أحدنا اذا وقف يحاضر في هذه المعاني وهو غافل عن كثير من حقائقها أوشك أن يقع في أخطاء لا تقال عثراتها ، وقد كان السلف الأول من علمائنا اذا تصدوا للكـــلام على شيء من ذكريات العصر النبوي استحضروا حقائق ذلك العصر كأنهم من شهوده . ومن ذا الذي يجهل أن سكان جزيرة العرب على بكرة أبيهم صاروا في معسكرات أبي بكر وعمر منـذ السنوات الأولى بعد وفاة الرسول الأعظم صلوات الله عليه ، فقام الإسلام على عواتقهم ، وغسلوا بـــدمائهم آثار الشرك ، وبسيوفهم وأموالهم ودمائهم – ثم بسيوف الشباب من بنيهم وأحفادهم – دخلت في الاسلام أقطـار المعمورة وببركتهم ينعم المسلمون اليوم بنعمة الاسلام ، ولولاهم لكان خمسمائـــة مليون من مسلمي عصرنا يهوداً أو نصارى أو وثنيين ، فالحمد لله على نعمة الاسلام، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين ، وأعلى مقامهم في عليين .

سخاء المقتصدين

احتاج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى مال ، فخطر بباله من أسخياء قريش حكيم بن حزام (الذي سبق لنا كتابة فصل عنه قبل هذا) وهو أحد آل خويلد وابن عم الزبير بن العوام وابن أخي خديجة أم المؤمنين ، فأرسل اليه ابنَ أخيه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يسأله ما هو في حاجة اليه .

ولقي عبدُ الله بن جعفر حكيمَ بن حزام في الطريق وذكر له حاجة عليّ ، فانطلق معه إلى منزله ليأخذ له ما سأل . وبينما هما في الطريق وجد حكيم بن حزام صوفاً فأخذه ، ثم مر بقطعة كساء فأخذها . فلما صار إلى المنزل دخل حكيم إلى إحدى الغرف ليحضر المال وأعطى عبد الله بن جعفر طرف الصوف وأمره بأن يفتله حتى يصير خيطاً . ثم دعا له بغرارة مخرقة فرقعها بالكساء وخاطها بالخيط وصرّ فيها ثلاثين الف درهم فحملت مع عبد الله بن جعفر إلى عمه عليّ بن أبي طالب .

وأتى قومٌ قيسَ بن سعد بن عبادة الأنصاري يسألونه في حمالة (وهي دية القتيل) ، فصادفوه في حديقة له يتتبع ما يسقط من الثمر فيعزل جيده على حدة ورديئه على حدة . فهموا أن يرجعوا عنه ، وقالوا فيما بينهم :

ــ ما نظن عنده خيراً .

ولما جلس اليهم كلموه في الحاجة التي جاءوا لها ، فأجابهم إلى أكثر مما سألوه . فقال له رجل من القوم :

ــ لقد رأيناك تصنع شيئاً لا يشبه فعالك .

قال : ــ وما ذاك (فأخبروه) .

فقال : إن الذي رأيتم يئول إلى اجتماع ما ينفع وينمو .

فساد اليهود في حكومة النبي ﷺ

روى الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق أن النبي ﷺ كان يبعث عبد الله ابن رَواحة في كل عام إلى خيبر ليخرص نخلها - أي ليقدّر ما تحمله من بلح ، فيجبي منهم حق الدولة - وكانت خيبر يومئذ من مدن الحجاز العامرة ،وكانت تخرج عشرين الف مقاتل لكثرة سكانها وسعة عمرانها .

فكانت عادة عبد الله بن رواحة أن يقدّر في كل سنة ما يحمله نخل خيبر ، ثم يقول لأصحابه : ان مال الدولة يعادل كذا ، فإن اقتنعتم بعدالة تقديري دفعتم ما أقوله ، والا فأنا أدفع هذا المقدار عنكم ، ونحصي ثمن النخيل احصاء دقيقاً وأرضى لنفسي بما ينتج من هذا الإحصاء ، قلّ عما قدرته أم زاد عليه. وبذلك لم يكونوا يستطيعون أن يغالطوه .

وحاولوا مرة أن يفسدوا ذمته ، فجعلوا له حلياً من حليّ نسائهم وقالوا له:
– هذا لك ، وخفف عنا ، وتجاوز عن بعض ما تفرضه علينا ...

فقال لهم عبد الله بن رواحة :

– يا معشر اليهود : انكم لمن ابغض خلق الله اليّ ، وما ذلك بحاملي على ان احيف عليكم . واما ما عرضتم عليّ من الرشوة فإنها السحت ، وانا لانأ كلها ...

فقالوا له :

– بهذا قامت السماوات والأرض ...

كيف كان رسول الله ﷺ يربي أولياءه

حكاية الثلاثة الذين خُلفوا في غزوة تبوك

في صحيحي البخـاري ومسلم قصة كعب بن مالك السُلمي الأنصاري التي يذكر فيها تخلفه عن جيش رسول الله ﷺ حين توجه لغزوة تبوك في السنـة التاسعة للهجرة . وهي مروية بطولها عن حفيده عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب، وعبد الرحمن يرويها عن أبيه عبد الله ، عن جده كعب ، وكان عبد الله قائد كعب حين عمي في شيخوخته : وفي القصة تفصيل حال أصحاب رسول الله ﷺ في سلمهم وحربهم ، وكيف كانت طاعتهم له ﷺ ، من عامة شؤونهم الى خاصة أمورهم ، وانقيادهم لإرادته وهدايته في سرهم وعلانيتهم ، وتحليهم بفضيلة الصدق في سرائهم وضرائهم وفي جميع أحوالهم . قال كعب :

« لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاقب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعـاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ـــ حين تواثقنا على الإسلام ـــ وما أحبُّ أن لي بها بمشهد بدر ، وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة . والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قط حتى جمعتها في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً [1] ومفازاً وعدواً كثيراً ، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد . والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ (أي لا يحصيهم سجل وديوان) ، قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفي له ما لم ينزل فيه وحي الله . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقتُ أعدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئـاً ،

(١) تبوك على مسافة ١٢ مرحلة من المدينة شمالا ، وهي من مشارف الشام ، وتقع الآن جنوب مملكة الأردن .

فأقول في نفسي : أنا قادر عليه . فلم يزل يتمادَى بي حتى اشتدّ بالنـاس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئـاً ، فقلتُ : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم الحقهم . فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً . ثم غدوت ، ثم رجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو (١) ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت ، فلم يقدّر لي ذلك ، فكنت إذا خرجت في الناس - بعـد خروج رسول الله ﷺ - فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء . ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك : فقال - وهو جالس في القوم بتبوك - : ما فعل كعب ؟ فقال رجل من سلمة (٢) : يا رسول الله حبسه بُرداه ونظرُه في عطفيه . فقال معاذ بن جبل : بئسما قلتَ ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ ، قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلاً (أي راجعاً) حضرني همي ، فطفقت أتـذكر الكذب وأقول ؟ بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ واستعنت على ذلـك بكل ذي رأي من أهلي . فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً ، زاح عني الباطل ، وعرفت أني لن أخرج منه بشيء فيه كذب . فأجمعت صدقه . واصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له (وكانوا بضعة وثمانين رجلاً) فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم الى الله . فجئته فلما سلمت عليـه تبسّم تبسُّم المغضب ثم قال : تعال . فجئت حتى جلست بين يديه ، فقال : ما خلّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى . اني والله لو جلست عند غيرك من اهل الدنيا لرأيت اني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطيتُ جدلاً . ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله ان يسخطك عليّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه اني لأرجو فيه عفو الله . لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت اقوى ولا ايسرَ مني حين تخلفتُ عنك ، فقال رسول

(١) اي فات وسبق .

(٢) بنو سلمة عشيرة كعب بن مالك ، وفي مقالة السلمي جنوح الى البعد عن عصبية القبائل، وفيها معنى الاستنكار لما فعله مالك لينحصر ذنبه في شخصه وتبرأ قبيلتة من معرته .

الله ﷺ : اما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك . وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا له : والله ما علمناك كنت اذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت َالا تكون اعتذرت الى رسول الله ﷺ بما اعتذر اليه المتخلفون ، وقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك . فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى اردت ان ارجع فأكذّب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي احد؟ قالوا: نعم رجلان قالوا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العَمْري ، وهلال بن أُمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما اسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي . ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتَنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرتْ في نفسي الأرض فما هي التي اعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، واما انا فكنت اشبّ القوم واجلدهم ، فكنت اخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين واطوف في الأسواق ولا يكلمني احد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ ام لا ؟ ثم اصلي قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا اقبلت على صلاتي اقبل اليّ واذا التفتُ نحوه اعرض عني . حتى اذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة (وهو ابن عمي واحبُّ الناس اليّ) فسلمت عليه فوالله ما ردّ علي السلام . فقلت : يا ابا قتادة ، انشدك بالله هل تعلمني احب الله ورسوله ؟ فسكت . فعدت له فنشدته فسكت . فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله اعلم . ففاضت عيناي . وتوليت حتى تسورت الجدار . قال فبينا انا امشي بسوق المدينة اذا َنبطي من انباط اهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلّ على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى اذا جاءني دفع اليّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه : « اما بعد فإنه قد بلغني ان صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك» فقلت لما قرأتها : وهذا ايضاً من البلاء [1] ، فتيممت بها التنور فسجرته بها . حتى اذا مضت اربعون ليلة من الخمسين اذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال:

---

(١) البلاء : الامتحان والاختبار .

ان رسول الله ﷺ يأمرك ان تعتزل امرأتك فقلت : اطلقها ام ماذا افعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها . وارسل الى صاحبيّ مثل ذلك ، فقلت لامرأتي : إلحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر . قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أُمية رسولَ الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ان هلال بن أُمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره ان اخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك . قالت انه والله ما به حركة الى شيء ، والله ما زال يبكي منذ كان من امره ما كان الى يومه هذا . فقال لي بعض اهلي : لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما اذن لامرأة هلال بن أُمية ان تخدمه . فقلت : والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ . وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ اذا استأذنته فيها وانا رجل شاب . فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر ليلة وانا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا انا جالس على الحال الذي ذكر الله : قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سَلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ابشر . قال فخررت ساجداً ، وعرفت ان قد جاء فرج ، وآذن رسول الله ﷺ توبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قِبل صَاحبيّ مبشرون ، وركض اليّ رجل فرساً ، وسعى ساع من اسلم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت اسرع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته اياهما ببشراه . والله ما املك غيرهما يومئذ . واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت الى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك ، قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام اليّ طلحة بن عبيدالله يهرول حتى صافحني وهنأني . والله ما قام اليّ رجل من المهاجرين غيره ، ولا انساها لطلحة . قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك امك » قال قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله : قال : لا ، بل من عند الله . وكان رسول الله ﷺ اذ سرّ استنار وجهه كانه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ان من توبتي ان انخلع من مالي صدقة الى الله والى رسول الله ﷺ . قال رسول الله ﷺ : « امسك عليك بعض مالك

فهو خير لك » . قلت فإني امسك سهمي الذي بخيبر وقلت : يا رسول الله ان الله نجاني بالصدق ، وان من توبتي ان لا احدّث الا صدقاً ما بقيت فوالله ما أعلم احداً من المسلمين ابلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ احسن مما ابلاني ، ما تعمدت – منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ – الى يومي هذا كذباً ، واني لأرجو ان يحفظني الله فيما بقيت . وانزل الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم . انه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رُحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد فقال تبارك وتعالى : ﴿ سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن امر اولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وارجأ ﷺ امرنا حتى الله فيه ، فبذلك قال الله ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلفوا ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه ايانا وارجاؤه امرنا عمن حلف له واعتذر اليه فقبل منه » .

كواذب الاخلاق

كما يراها فاتح مصر وداعيتها الى الإسلام

ركب عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة قد شمط وجهها هرماً واجتاز بها منازل أمراء الصحابة وكبار القواد في الفسطاط . فقال له أحدهم :

– اتركب هذه البغلة ايها الأمير وانت من اقدر الناس على امتطاء اكرم ناخرة بمصر ؟

فقال : – لا ملل عندي لدابتي ما حملت رجلي ، ولا لامرأتي ما احسنت عشرتي ، ولا لصديقي ما حفظ سري : فإن الملل من كواذب الأخلاق .

سهم من سهام الاسلام

لما اختار الله لي أن أقيم بيتي في جزيرة الروضة وبجوار الفسطاط ، وقفت أسائل نفسي : ما الذي أبطأ بي عن تزيين صدر مجلتي (الفتح) بشعاع من حياة فاتح مصر أبي عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمي ، وأي صحيفة في الدنيا أولى من صحيفة تنشر على ضفاف النيل بترديد ذكريات جهاد هذا المجاهد العظيم ، وتذكير المؤمنين بهداية الإسلام في هذا الوادي بأن إيمانهم المحمدي ، وبيانهم العربي ، وحضارتهم الإسلامية ، وجميع ما كان من ذلك لألوف الملايين من أسلافهم ، وما سيكون منه لأضعاف أضعافهم من الأجيال المصرية التي سيخلقها الله إلى يوم الدين ، كل اولئك حسنات من الحسنات التي كتبها الله وسيكتبها في صحائف عمرو بن العاص ومن كان معه من المجاهدين المحسنين . ولولا العزائم الصادقة التي اتصف بها عمرو وصحبه ، وما بذلوا من جهود منقطعة النظير في التاريخ لتحويل مصر مما كانت عليه إلى ما صارت اليه لكانت مصر – بمثقفيها يومئذ وقادة شعبها – كالحبشة سواء بسواء .

ولد عمرو في منازل قومه بني سهم بمكة . وقد دخل أكثرُها في الحرم المكي بعد توسيعه . وكانت هذه المنازل في القسم الشمالي منه بين الحرم وجبل قعيقعان. وكان لبني سهم باب خاص بهم إلى الحرم يَغشونه من منازلهم إذا أرادوا الطواف بالكعبة ، فلما اتسع الحرم وانضمت البيوت وبابها إلى ساحاته ، سمى أحد أبوابه الجديدة إلى اليوم باسم (باب عمرو بن العاص) وهو إلى يمين المنارة التي يكون على يسارها باب العمرة .

وبنو سهم بطن من بطون قريش البطاح أبناء كعب بن لؤيّ ، كانت لهم في الجاهلية الحكومة وحسم المنازعات ، وكانت تحت أيديهم الأموال المحجرة ، أي أوقاف المعبودات التي كانت لقريش حول الكعبة . وسهمٌ إخوة جُمح ، وسهم وجمح أقرب بطون قريش إلى بني عدي الذين منهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وعمرو أسن من عمر ، وكان يقول « أذكر الليلة التي ولد فيها عمر بن الخطاب».

ثم طال به العمر نحو عشرين سنة بعد عمر ، فكانت وفاته ليلة عيد الفطر سنة ٤٣ هـ . ومع أنه توفي في مصر وهو الأمير عليها ، وابنه الصحابي الجليل عبدالله ابن عمر وهو الذي تولى الصلاة عليه وقام بدفنه ، فإنهم لم يعنوا بتشييد قبره وتعظيمه كما هي عادة مصر من زمن الفراعنة ، لأن من سُنة الإسلام أن يكون التعظيم لأعمال الرجال لا لقبورهم ، فبالأعمال يكون تخليد الرجال ، وبها يتبوأون منازلهم عند الله يوم لا ينفع أحداً قبرُه ، ولا ما شيد عليه من صخور، وما أضيء فيه سرج [١] .

عاش عمر تسعين سنة صرف الشطر الناضج المبارك منها تحت رايات الإسلام ، وقد نقل الحافظ ابن حجر في الإصابة عن الزبير بن بكار أن رجلاً قال لعمرو :

— ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك ؟

فأجابه : — إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدُّم ، وكانوا ممن توازن حلومهم الجبال ، فلما بُعث النبي ﷺ فأنكروا عليه قلدناهم ، فلما ذهبوا [٢] وصار الأمر الينا نظرنا وتدبرنا فإذا حقٌ بين ، فوقع في قلبي الإسلام ، فعرضتْ قريش ذلك من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه ، فبعثوا إليّ فتى منهم فناظرني في ذلك ، فقلت :

— أنشدك الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك : أنحن أهدى ، أم فارس والروم؟

قال : — بل نحن أهدى [٣] .

قلت : فنحن أوسع عيشاً أم هم؟

قال : — هم .

قلت : - فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أعظم منا فيها وقد وقع في نفسي أن الذي يقوله محمد — من أن البعث بعد الموت ليجزي

---

(١) تشييد المباني والقباب على القبور من أعمال الأعاجم ، ولم يكن يعرف ذلك أحد من عرب الاسلام لا في زمن الصحابة ولا أيام التابعين لهم باحسان . ويدلك على ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هياج الاسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب اني لابعثك على ما بعثني رسول الله (ص) ألا تدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً الا سويته ، واليت شعري ماذا يقول علي كرم الله وجهه لو رأت عيناه ما صنعه الناس بالقبر المنسرب اليه مخالفين ما امره به سيد المرسلين (ص)؟!

(٢) يعني اباه ومن هم في طبقته .

(٣) اهدى اي اعقل وانفذ بصيرة وادراكاً لحقائق الامور . والعرب — حتى في بداوتها وقبل اسلامها — كانت تعرف قدر نفسها ، وتعلم ان عقولها ومداركها لا تعدل بها عقول اية امة اخرى ومداركها .

المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته – حق ، ولا خير في التمادي في الباطل .

كان هذا الحديث في أوائل السنة الثامنة للهجرة . وخرج عمرو بعد ذلك إلى النبي ﷺ ليسلم ، فلقي في طريقه خالد بن الوليد من بني مخزوم ، وعثمان بن طلحة من بني عبد الدار سدنة الكعبة . قال عمرو : فقلت لخالد :

– إلى أين يا أبا سفيان ؟

قال : – والله لقد استقام المنسم ، وإن الرجل لنبيّ . أذهبُ والله لأسلم ، فحتى متى ؟

قال عمرو : – وأنا والله ما جئت إلا لأسلم .

فلما دخلوا على رسول الله ﷺ ونظر اليهم قال لأصحابه « لقد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » . قال عمرو : فتقدم خالد فأسلم وبايع ، ثم دنوت فقلت :

– يا رسول الله ، إني أُبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي .

فقال ﷺ : يا عمر بايع ، فإن الإسلام يُجبّ ماقبله ، وإن الهجرة تجبّ ماقبلها .

قال الحافظ ابن حجر : ولما أسلم عمرو كان النبي ﷺ يقرّبه ويدنيه لمعرفته وشجاعته .

وأخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عمرو بن العاص قال : بعث إليّ النبي ﷺ فقال :

– خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني .

فأتيته ، فقال : اني اريد ان ابعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك ، وارغب لك من المال رغبة صالحة .

فقلت : يا رسول الله ما اسلمت من اجل المال ، بل اسلمت رغبة في الإسلام .

فقال ﷺ : يا عمرو ، نعمَ المال الصالح للرجل الصالح .

وكان هذا اول عمل تولاه عمرو في الإسلام ، وهو قيادة جيش المسلمين في غزوة ذات السلاسل ، وكان ذلك بعد اسلامه بأربعة اشهر ، وجعل النبي ﷺ تحت قيادته اهل الشرف من المهاجرين والأنصار . ثم امده ﷺ بمدد على رأسه ابو عبيدة وابو بكر وعمر والمهاجرون الأولون ، فكان عمرو بن العاص يرأسهم جميعاً ويصلي بهم . وكان منه في هذه الغزوة من حسن التدبير وسديد القيادة ما ادى الى النصر وجميل الظفر .

وفي السنة نفسها (اي الثامنة) قام عمرو بهدم (سُواع) وهو وثن كان برهاط

لهذيل ، واراد سادن سواع ان يثني من عزم عمرو وخوّفه عاقبة عمله ، فقال عمرو :

- انت في الباطل بعد !

وهدمه . ثم قال للسادن : كيف رأيت ؟

فأجابه السادن : اسلمت لله رب العالمين .

وفي اواخر هذه السنة ولاه النبي ﷺ صدقات بني عذرة وسعد هذيم على ان يذهب قبلى ذلك الى جيفر وعمرو ابني الجلندَي وهما من الأزد وكانا اميرين على مقاطعة عمان بساحل الخليج العربي . فما زال عمرو بدهائه وحسن سياسته حتى استمال الى الإسلام عمراً ثم اخاه الأكبر جيفر ، فأخليا بينه وبين الصدقة يأخذها من الأغنياء ويردها على الفقراء ، ويجبي الجزية من المجوس ، ويدعو ما استطاع الى دين الله ، ولم يزل قائماً بهذه المهمة حتى وصل الخبر بوفاة الرسول ﷺ.

وفي أوائل خلافة أبي بكر احتاج الإسلام الى الخيرة من رجاله والممتازين من أبطاله ليكبح جماح الردة ، فكان عمرو بن العاص وزميله خالد بن الوليد واضرابهما على رأس الجيوش الإسلامية التي قضت على تلك الفتنة في أوجز وقت. فلما انتهى عمرو من حروب الردة اعاده ابو بكر الى عمله الذي كان ولاه رسول الله ﷺ وهو صدقات بني عذره وسعد هذيم ، الى ان صحت عزيمة المسلمين على فتح الشام فكتب ابو بكر الى عمرو بن العاص « اني قد رددتك الى العمل الذي كان رسول الله ﷺ قد ولاكه وسماه لك اخرى مبعثك الى عمان ، انجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ ، فقد وليته ثم وليته. وقد احببت ابا عبد الله ان افرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ، الا ان يكون الذي انت فيه احبّ اليك » . فأجابه عمرو « اما بعد فإني سهم من سهام الإسلام ، وانت بعد الله الرامي بها والجامع لها ، فانظر اشدها واخشاها وافضلها فارم به شيئاً ان جاءك من ناحية من النواحي » فلما وصل كتابه الى أبي بكر ولاه قيادة جيش من الجيوش الأربعة ، وهو الجيش الذى وجهته فلسطين ، فكانت له المواقف العظمى في اليرموك ، ثم في فتح دمشق، وتوفي ابو بكر وتولى عمر بن الخطاب ، ولا يزال عمرو بن العاص في جهاده مع إخوانه قواد الأجناد فكان في قيادة الجيش الذي استولى على فحل وبيسان وأجنادين ، وكان قائد الروم في أجنادين يسمى (ارطبون) وكان من دهاة قوادهم ، فقال عمر بن الخطاب « رمينا ارطبون

الروم بأرطيون العرب (يعني عمرو بن العاص) فانظروا عم تنفرج » ثم جاءه خبر انتصار عمرو وكان ذلك سنة ١٥ للهجرة فقال عمر بن الخطاب « غلبه عمرو ، لله عمرو » . وينقلون عن ارطيون انه قال في عمرو « خدعني هذا الرجل ، انه ادهى الخلق » . وبعد فتح أجنادين زحفت الجيوش التي فيها عمرو على غزة واللد ونابلس وغيرها الى ان بلغوا بيت المقدس فلم تفتح الا بحضور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

هذه صحيفة عمرو بن العاص من ساعة اسلامه الى ان تفرّغ من حرب الشام وفلسطين لفتح مصر ، فجاءها على رأس كتيبة من قبائل عكّ لا يزيد عددها على أربعة آلاف مقاتل وليس على وجه الأرض قائد لا في ذلك الوقت ولا في اي وقت – يبلغ به الاعتداد بالنفس والاعتماد على خالقها ان يقتحم قطراً عظيماً كمصر بمثل هذا الجند مهما كانت ثقته بشجاعة رجاله وبمن يوافيهم بعد ذلك من الأمداد .

وليست معجزة الإسلام في فتح مصر تنحصر في عدد الجيش الفاتح وما يحمله من عدّة ولا بما كان لهذا الجيش من نصر عجيب وتوفيق لا مثيل له ، ولكن معجزة الإسلام الخالدة في هذا الفتح هي فيما أحدث من انقلاب اجتماعي حوّل لغة مصر في أسواقها وبيوتها وفي بيانها ومعاهد ثقافتها ، الى هذه اللغة السماوية التي نتكلم بها اليوم ، وحوّل نفوسهم وعقولهم وقلوبهم وايمانهم الى حالة عجزت عقول ادهى الأمم عن ان توفق الى مثلها او الى جزء منها ولم تفلح : وهذا النجاح في الانقلاب الاجتماعي لم يقتصر به العرب على مصر حتى يبحث له المتنطعون عن علل خيالية واسباب وهمية ، بل سبق مثله في الشام والعراق ، وتلاه مثله في شمال افريقية والسودان ، ولو بقيت قيادة الإسلام في ايدي اهله الأولين ، واستمرت طريقتهم على ما كانت عليه ، لوصل هذا الانقلاب بلغته وآدابه وعقائده الى اليابان والى امريكا والى كل مكان يسكنه البشر .

هذا الانقلاب عجيب حقاً ، وكان من حق الذين قاموا به وعلى رأسهم عمرو بن العاص أن تعرف لهم مصر جميل عملهم ، فتحتفل كلّ عام بذكراه . فهل ترى ان عبد الله بن عمرو بن العاص أخطأ في انه لم يقم لأبيه قبراً وقبة ومولداً سنوياً فكان سبب نسيان الناس لأعظم جميل أسداه مخلوق من مخلوقات الله لوادي النيل ؟

انِ الاحتفالات التي تعمل حول القبور ليست من سنة الاسلام ، ولكن

الابتهاج بذكرى دخول مصر في الاسلام ، والتنويه بالذين دخل هذا الخير الى مصر على ايديهم ، اجدر بنا واوجب علينا من هذه الموالد السخية التي نقيمها في كل شهر وفي كل بلد لمن نعرف ماضيه أو لا نعرفه ، ويرتكب الرعاع فيها من المعاصي ما يحسن بنا أن ننزه مصر عنه ونترفع عن الاستمرار فيه ، بعدما افتضحت آثامه ومخازيه .

وبعد فقد كان المعروف في ذلك العصر المبارك أن دهاة العرب في الاسلام أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري . والذي يستعرض سيرة معاوية وسيرة عمرو تتبين له دقة معاوية وصدق نظره يوم قال لعمرو « إنك يا ابن العاص بورك لك في العجلة وأنا امرؤ بورك لي في التؤدة» فالنجاح الذي كان يصيبه عمرو في فتوحه وسياسته إنما كان يصيبه من حدة ذكائه وسرعة حكمه على الخطة التي يكون الخير في سلوكها ، ثم في سرعة إقدامه على تنفيذها . ولهذا استطاع أن يملأ حياته عملاً مجدياً ، ولا تزال آثار جهاده الحربي والاجتماعي باقية على الدهر في كل أفق من آفاق تفكيره وعمله . وما أصدق ما قاله عمر بن الخطاب فيما أخرجه ابن أبي خيثمة من طريق الليث بن سعد إمام أهل مصر قال : نظر عمر إلى عمرو يمشي فقال « ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميراً » « وروى ابراهيم ابن مهاجر عن الشعبي عن قبيصة بن جابر قال « صحبت عمرو بن العاص ، فما رأيت رجلاً أبين بياناً ، ولا أكرم خلقاً ، ولا أشبه سريرة بعلانية منه » .

ونختتم هذه الكلمة بما رواه الإمام أحمد في مسنده عن طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله » يعني عبد الله بن عمرو بن العاص وأباه وأمه. وروي عن طلحة أيضاً أنه قال : لا أحدّث عن رسول الله ﷺ شيئاً إلا أني سمعته يقول « عمرو بن العاص من صالح قريش » .

ومن شعر عمرو بن العاص قوله يخاطب عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي عند النجاشي :

إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه — ولم ينه قلباً غاوياً حيث يمما

قضى وطراً منه وغادر سُبّة إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

ولما حضرتـــه الوفاة قال : « اللهم إنك أمرتني فلم أئتمر ، وزجرتني فلم انزجر » ووضع يده في موضع الغل وقال : « اللهم لا قوي فأنتصر ، ولا بريء فأعتـــذر ، ولا مستكـــبر بل مستغفـــر . لا إله إلا أنت» ولم يزل يرددها حتى مات .

طريقة عمرو بن العاص
في حكم وادي النيل

للأستاذ عبد اللطيف النشار

حَـــدّثونا أن عَمـــراً ... حِيـــنما أخضعَ مِصرا
عاهدَ الأقبــاط عَهـداً ... حَفظـــوه فاستمـــرّا
وكـــذا المصري إن قا ... ل وإن عاهـــد برّا
غَـــيرَ مَنْ شـــذّ ... فـــلا يَنقضُ أمْـــرا
شَذّ عن أقبــاطِ مِصرَ ... رجلٌ ناوأ عَمرا
ألبَ الرّوم عليــه ... وأثارَ الحـــربَ غَدرا
وقَضى الله لعمـرو ... فأبادَ الجيشَ طـــرّا
وأتى الخائن في الأسْـ ... ـرِ ضحى يَرقب شَرّا
ورأى عمرٌو حَليفاً ... خانهُ بَغيــاً وكفرا
فاستشارَ الصحبَ فيــه ... فقضوْا بالقتل صبرا
قال أدْهى الناسِ عمرٌو ... قَوْلةً تَرْفــع عمـرا :
بَل سَتحيا فابغ ما شِئْـ ... ـتَ بِنــا سِرّاً وَجهرا

مؤسس مصر الاسلامية ومكون كيانها العربي
واعظم رجال التاريخ اثراً في المجتمع المصري

لقد انطبعت على صفحات النيل — في عشرات القرون الخالية — ظلال رجال وابطال وفاتحين ، وانبياء وحكماء وصالحين ، دوّن التاريخ لكل منهم آثارا ومآثر يذكر بهــا . ومن هذه الآثار والمآثر ما بولغ في وصفه حتى تحول الى اساطير ، ومنها ما صرف عن حقيقته فحامت حول حقيقتــه الشكوك . واذا قورنت مآثر هؤلاء جميعاً باعتبار ما نشاهد من آثارها في المجتمع المصري الى يومنا هذا ، نستطيع ان نحكم بنفس مطمئنة ان عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيــد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤيّ القرشي لم ينطبع على صفحـــات النيل ظلُّ رجل من بني الإنسان اعظم اثراً منـــه في هذا الوادي وفي سكان هذا الوادي من اقدم العصور الى الآن .

بطولته الحربية

ان الذين يقيسون بطولة القادة والفاتحين بمقياس النتائج العسكرية لحركاتهم الحربية ، مع مقارنتها بالوسائــل التي كانت بين ايديهم ، واكالهم نقــائص هذه الوسائل بدهائهم وحسن تدبيرهم وقوة عزائمهم ، يقضون العجب من اقدام عمرو ابن العاص على اقتحام الحدود المصرية على رأس حملة متواضعة في عددها واستعدادها الحربي . ولو ان عمراً لم يسبق له ارتياد مصر والتغلغل في عاصمتها يومئذ وهي مدينة الاسكندرية ، لكان هنالك مجال الظن بأنه غامر في هذه الحمـلة جزافاً وبلا حساب . اما وانه يعرف مصر في عمرانها وتعداد سكانها ، وقد حارب في سوريا وفلسطين جيوش الدولة الأجنبية التي كانت تحتل مصر ايضاً بجيوشها ، فمن غير المعقول ان يكون مدفوعاً الى هذه المغامرة العجيبــة عن قـلة تقـدير للمسؤوليات الحربية ، وعن استخفاف بفنون القتال واعبائــه ، فهو جِدُّ خبير باستعداد اعدائه الحربي ، وبأساليبهم العسكرية ، وانظمتهم في التعبئة هجوماً ودفاعاً ، ويعلم ان لديهم من قادة الحرب كل صعب المراس ، متمرن على الكر والفر ، معتمد على المعاقل والقلاع في الحصار والمطــاولة . بل ان ادهى الروم وهو الأرطبون كان قريع عمرو ونِدّه في اخطر الجولات الحربية في فلسطين: وهذا الأرطبون نفسه تحوّل الى مصر قبيل وصول عمرو الى تخومهــا . فهــذه

الحقائق من اوليات ما يعرفه عمرو عن مهمته في وادي النيل وما كان ينتظره في آفاقها . ولو ان عمراً مأمور من خليفته بهذه المغامرة لقيل انه مرغم جازف فيما ارغم عليه ، فواتته الفرصة وهو على غير علم بها او تقدير لعواقبها . ولكنه صاحب الرأي الاول في هذه الحملة العجيبة في عددها واستعدادها. وقد استعمل الحيلة والدهاء في امضائها واتقاء الصوارف عنها ، فكانت هذه الحملة بمقدماتها ونتائجها اشبه بالحلم ولولا انها من حوادث التاريخ التي لا ينفذ اليها الشك ، لجاز لمن شاء ان يرتاب في صحتها . اما وان هذا الحادث العسكري العجيب بمقدماته ، المدهش في حلقاته ، قد تم بتدبير هذا القائد وعزائم اربعة آلاف من رجاله بلغ عدد النجدات التي لحقت بهم اثني عشر الفاً فقط ، فلا جناح على من شاء ان يقول : ان هذه الحملة كانت من معجزات تاريخ الحرب .

التحرير الاجتماعي

ومن اول ما وقعت عليه انظار البطل الفاتح في حقول وادي النيل الخصبة ومزارعه الجميلة ، ان العاملين في حرثها وجنيها وحصادها كان منظوراً اليهم منذ ايام الفراعنة كأنهم من مملوكات الحقل يعملون بلقمتهم الجافة ، ولم يكن معترفاً لهم بالحرية الانسانية. وهذه الحالة كانت موجودة في بعض البلاد الأخرى ايضاً كالهند ، ولعل طائفة المنبوذين في الهند من بقايا ذلك النظام القديم. فكان من النتائج الأولى للفتح الاسلامي في مصر ان اصبح هؤلاء العمال الزراعيون احراراً لا جناح على احدهم ان ينتقل من حقل الى غيره ، او ان يتحول عن عمله الزراعي الى اي عمل يختاره لعيشه ، او ان يتملك بقعة من الأرض - صغيرة او كبيرة - اذا استطاع بجده ان يحصل على ما يشتريها به، ومن عجائب التاريخ ان الاسكندر المقدوني - تلميذ ارسطو اعظم حكماء الدنيا في زمانه - لم يحاول عند استيلائه على مصر ، وبعد تشييده مدينة الاسكندرية، ان يعلن بطلان ذلك النظام القديم ، فبقي كما كان في ايامه وايام خلفائه البطالسة ومن بعدهم الى ان ألغي (عملياً) وبلا تبجح ولا امتنان ، عقب فتح عمرو لهذه الأرض المباركة . ولو لم يكن لعمرو وللفتح الاسلامي من المآثر غير هذه المأثرة الاجتماعية لكان امرها عظيماً .

حرية العقيدة

كان المصريون وهم يشهدون هذه المعارك الخاطفة التي يقودها بطل العروبة وداهية الأرض ، يعلمون ان صاحبها وجنوده يحملون في قلوبهم دعوة دينية

جديدة ، فتوقعوا ان يكون اول اعماله – اذا تم له النصر العسكري – ان يشن عليهم حملة دينية يبسط بها عقيدته في جميع مدائن الوادي وقراه . وقد تعود المصريون قبل الفتح الاسلامي اضطهاد الحكام الديني وألفوه ، وكان بطريرك الكرازة المرقسية نفسه مشرداً في تلك الأيام ، ومطارداً من بني دينه الأجانب لاختلاف مذهبي فرعي ، فكانوا يقدّرون ان يكون الاختلاف الكلي بين دين الحاكمين الجدد ودين البلاد المفتوحة افدح واسوأ عاقبة من ذلك الاختلاف المذهبي الجزئي ، ولو ان عمراً ترك الأمور على حالها، وبقي البطريرك في الدولة الجديدة بمثل الحال التي كان عليها في زمن الدولة الروم الملكيين، لما كان في الدنيا اي مانع يمنع من ذلك ، او قوة تحول بين القائمين الجدد وبسط نظام دولتهم في كل الأمور . وكان العرب احراراً في ان لا يعترفوا لأي كان بأي سلطان مادي او روحي او قضائي . لكن الأيام ما لبثت ان تكشفت عن رفق عجيب ، وتسامح كريم ، في إزالة كل ما كان يشكوه البطريرك من اضطهاد الحكام السابقين ، وأبيح له ان يتولى من طائفته كل ما له صلة بالعقيدة والدين ، وحتى الفصل في الأحوال الشخصية ترك له ولأتباعه من الأساقفة والقسس ، عملاً بالهداية القرآنية ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم ، او اعرض عنهم ،وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين ﴾ . وطرق مسامع المصريين أن الخليفة الأعظم – إذا ودّع القائد من قواده عندما يعقد له اللواء على جيش من هذه الجيوش التي لا تُغلب – يوصيه بالرفق بالشيوخ والأطفال والنساء والعجزة ، وبالقسس والرهبان إذا لم يشتركوا في الحرب ، ولم يكيدوا للمسلمين وجيوشهم ، ولم يحرّضوا عليهم أو يتدخلوا فيما لا يعنيهم . وكان المصريون قبل أن يعرفوا دين الفاتحين يحسبونهم أعداء لأنبياء الله ، أو على الأقل قليلي التقدير لهم والحرمة لدعوتهم . فلما اتصلوا بهم ووقفوا على الخطوط الأساسية في عقيدتهم وشريعتهم،وجدوهم أكثر تنزيهاً لأنبياء التوراة مما ورد عليهم في التوراة ، ويبطنون المحبة والحرمة والايمان والتعظيم للمسيح ﷺ وأمه الطاهرة البتول. ولا يكتفي هؤلاء الفاتحون بإجلال أنبياء التوراة وحواريي السيد المسيح ، بل يتلون فوق ذلك في كتابهم السماوي قول الله عز وجل ﴿ ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾،فكانت هذه الحقائق الماثلة أمام أنظار المصريين تستلّ من قلوبهم السخائم ، فتمتلىء تلك القلوب محبة واحتراماً لهذه الأمة

الفاتحة المفطورة على الرفق والاعتدال ، والشهامة والانصاف ، وإيثار الخير ، والتقلب مع الحق حيثما اتجه .

إن هذا الموقف الأدبي لعمرو بن العاص وصحبه ، عقب انتصارهم الحربي العجيب ، يُعد الحادث الأول من نوعه في التاريخ ، ومصر على الخصوص لاتعرف له نظيراً في كل ما تقدم لها من احتكاك واصطدام واتصال بالملل الأخرى فقد جربت الروم والوثنيين فلقيت منهم الأمرين وهي تؤرخ بأيام الشؤم التي لقيتها منهم ، وجربت الفرس الذين يدينون بالمجوسية فلم تحمد هذه التجربة ، ثم جربت الروم المسيحيين فرأتهم لا يتسامحون معها ولا بيسير الاختلاف مع الاتفاق في أصل العقيدة . أما هؤلاء المنقضُّون على وادي النيل من جزيرة العرب كما تنقض الصواعق ، فإنهم أرفق وأرحم ، وأحجى وأنبل من الذين تقلبوا في أحضان الحضارة من روم وفرس ، فلم ترقق الحضارة من أفئدتهم ، وتركتها كالحجارة أو أشد قسوة .

سحر العروبة

إن فتح عمرو لمصر فتحاً عسكرياً ، وقع مرة وأصبح أمره إلى التاريخ . وتحرير عمرو طبقة العمال الزراعيين، عمل إنساني كان يمكن أن يكون من نصيب غيره لو أن لغيره إنسانية كإنسانية عمرو ، وإيماناً بالمبادىء التي كان يؤمن بها عمرو . وتحقيق عمرو – لأول مرة في تاريخ البشر – حرية العقيدة والعبادة في هذه الديار يرجع الفضل فيه إلى الاسلام ، لا إلى عمرو وإخوانه الأبطال الأولياء المصلحين . أما المعجزة التي هي أبقى من فتح مصر العسكري ، وأظهر من تحرير العمال الزراعيين الاجتماعي ، وأدل على براعة الفاتحين الأولين من إعلانهم حرية العقيدة والعبادة لأول مرة في التاريخ ، فهي ذلك السحر العجيب الذي تسلطوا به على عقول المصريين وألسنتهم وقلوبهم ، حتى حببوا اليهم العربية ، فغدت – كما نراها الآن بأعيننا – لغة الزوجين في كوخهما بآخرقرى كرم أمبو ، ولغة التجارة والسوق في كبريات المدن وصغريات الكفور . ولغة الثقافة والعلم من الكتاتيب التي يتعلم فيها الأطفال الى الجامعة ، ولغة التأليف والشعر ، ولغة المنابر والمعابد ، ولغة الموسيقى والأغاني .

إن معجزة (تعريب) الأمم يعرف قدرها جميع رجال الاستعمار . وقد حاولوا مثلها في كل مكان ففشلوا وعجزوا . وقد مضى على فرنسا ١٢٥ سنة في الجزائر ، وهي تحاول مثل ذلك متوسلة بالمدارس والطباعة والصحافة

والاستعمار الزراعي والتجاري وبسائر الوسائل العصرية والمغريات الاباحية فلم تفلح ، وجربت وسائل العنف والضغط ، الى ان اقتنعت بأن هذه المعجزة لم تكن قط ولا تكون ابداً بالعنف والضغط .

ولعل المصريين – ومثلهم السوريون والعراقيون وسكان شمال إفريقية وشرقها – لم يعرفوا كيف استُدرجوا بسحر العربية والعرب حتى صارا عرباً مثلهم ، بل في طليعتهم فكانوا جميعاً أشبه من الماء بالماء ، وكان ذلك كالمنام ، لأننا رأينا العلماء والأئمة من صميم المصريين في العشرات الأولى من القرن الأول للإسلام ، ثم رأينا من حلاوة بلاغتهم وطلاوتها – في شعر شوقي ونثر المنفلوطي والمويلحي – ما نتمنى أن تدور الآن بمثله ألسنة أهل نجد واليمن والحجاز . وهذا السحر الذي للعربية ، والذي توحدت به ممالك عظيمة ، لا يزال موضع دراسة فلاسفة المستشرقين ومحل عجبهم . وحقاً انه سحر . وقد وقف عدو العربية والاسلام العلامة الفرنسي أرنست رينان أمام عظمة اللغة العربية وهتف في كتابه تاريخ اللغات السامية معترفاً بأنها – من أقدم عصورها الفطرية في البادية والجبال – لم تعرف الا كاملة المحاسن ، وان الناس لا يعرفون لها طفولة ولا شيخوخة .

ان ترنم اللسان المصري باللغة العربية ، وحمل مصر الآن لأعباء العروبة ، شرف عظيم لها ، وهو أثر خالد لعمرو بن العاص وصحبه من اولياء الحق ورجال الخير ، ولولاهم لكانت مصر بلغتها وتفكيرها قريباً من حال الحبشة في لغتها وتفكيرها ، وكنا نكون – عند مداهمة الحضارة الأوروبية لمصر – في مثل موقف الحبشة ، لأن مردّ الثقافتين الى مستوى واحد يوم أطلّ عمرو بطلعته السعيدة وألويته الظافرة على بلبيس والفرما وصحارى مديرية الشرقية ، ولولا تلك الطلعة السعيدة والالوية الظافرة لاستمرت الحال في البلادين على وتيرة متماثلة او متقاربة ، ان لم يطرأ طارىء آخر لم يكن في الحسبان .

عمرو العمراني

وكان عمرو فاتحاً ظافراً في ميادين الادارة والعمران كفتحه الظافر في الميادين الاخرى . وحسبك ان تعلم انه اراد ان يسلط عزائم نفسه على برزخ السويس فيخترقه ليجمع بين البحرين الأبيض والأحمر ، ولكن موانع عسكرية وقفت في طريقه فحالت بينه وبين سبق فرديناند دولسبس الى هذا المشروع العمراني الذي لو تم يومئذ لكان لخير مصر والشرق العربي ، ولم يكن شراً على

مصر كما حصل في مشروع دولسبس . وانما كفّ عمرو عن فتح قنـاة السويس لأن أهل الشورى من اركان الخلافة في مدينة الرسول لاحظوا ان اساطيل الروم قد تستفيد من هذه القناة فتزعج مصر من شرقها كما كانت تزعجها من شمـالها : فتحولت فكرة فتح (قناة السويس) الى فكرة فتح (خليـج امير المؤمنين) من بقعة (فم الخليج) في شمال الفسطاط الى قرية القُلزم التي نمت في مكانها مدينة السويس ، واخذت السفن تمخر في هذا الخليج من الفسطـاط الى البحر الأحمر فثغور رابغ وينقع وجدّة والحديدة وَمخا وعدن فسواحل فارس والهند. وهكذا كانت الملاحة نشيطة بين عاصمة مصر وسواحل العالم الشرقي . وقد تم إنشاء هذا الخليج الأعظم في عام واحد ، وهي حرب عمرانية خاطفـة كتلك الحرب العسكرية الخاطفة . وقد ظل خليج امير المؤمنين عامراً بالسفن غـدواً ورواحاً الى نهاية دولة بني أُمية ، ثم اهملوا تطهير مجراه فتعطلت فيـه الملاحة واندثر لتعذر الانتفاع به ، وبقيت بقيته في شوارع القاهرة وبين فم الخليـج وحي الظاهر الى عشرات قريبة من السنين .

وكانت ميزانية الدولة المصرية في آخر سنة حكم فيها الروم مصر قبل العرب عشرين مليون دينـار ، فخفضهـا عمرو بن العاص الى اثني عشر مليوناً رأفـة بالمصريين وتخفيفاً عليهم ، وكان ينفق من هذه الميزانيـة نحو ثلثهـا على الجيش والادارة والقضاء والأمن ... الخ ، وقريباً من نصفها على الأعمال العمرانية من فتح الطرق وتشييد القناطر وتدعيم الجسور والعناية بمقاييس النيل الى غير ذلك من وسائل العمران . وما بقي من الميزانية ولعله اقل من الربع كانت مصر تساهم به في اعمال الخلافة من فتوح واسعة في شرق الأرض وغربهـا . وتعميم للنظام الانساني الذي لو استمر عليه المسلمون كما كان الى اواسط المائة الثانيـة لبقي المسلمون خلفاء الله في الأرض .

حياة عمرو واخلاقه

وكنت اريد ان اصف للقارىء نفس عمرو بن العاص التي كانت من آثارها هذه الفضائل التي اتيتُ على ذكرها ، ولكن عمرو بن العاص اعظم من ذلك واجل ، وان عمراً لا يعد نابليون قطرة في بحره ، ومع ذلك ألف قومه الف كتاب في سيرته ، اما عمرو فلا يحفظ الناس عنه الا ما كذبه عليه الشانئون . فهـل تنتبـه ثقافتنـا الى التقصير المعيب في تعريف النشء المصري بأبي مصر الاسلامية وسبب اسلامها وينبوع عروبتها ؟ عسى .. ولعل ..

إسلام مصر وعروبتها من حسنات عمرو بن العاص

كيف عامل عمر بطريرك الكرازة المرقسية ؟

قرأت من مدة خبراً عن الباكستان بأنهم يبحثون عن آثار الإسلام الأولى في بقعة مباركة من وطنهم كانت ميدان جهاد القائد الشاب الخالد محمد بن القاسم الثقفي حامل (دعوة الإسلام) إلى السند وما وراءها من آفاق الشرق ، وأنهم في سرور عظيم من عثورهم على نقود وآثار من بقايا ذلك العهد الذي يعدونه أسعد أدوار تاريخهم ، لأنه حمل اليهم نعمة الاسلام ونظام إنسانيته العليا ، فكان ذلك آخر عهدهم بنظام الطبقات الذي من بقاياه هناك إلى الآن هؤلاء المنبوذون الذين يعدون بعشرات الملايين ، كما كان أول عهدهم بنظام الاسلام الذي بلغ تعداد أهله الآن في الباكستان وهندستان نحو مائة مليون مسلم .

وإخواننا مسلمو الهند وباكستان كثيرو البحث والتنقيب عن تاريخ دخول الاسلام في الهند ، وعظيمو الوفاء والمحبة والتقدير للذين حملوا اليهم هذه النعمة ، وما أكثر المؤلفات والبحوث التي تناولتها أقلام علمائهم وعظمائهم — فضلاً عن شعرائهم — في هذا الموضوع .

وعقب قراءتي هذا الخبر عن حامل (دعوة الاسلام) إلى الهند طلبت إليّ إحدى الصحف الاسلامية في مصر أن أختار لها شخصية اسلامية اتحدث عنها الى قراء تلك الصحيفة ، فقلت في نفسي : ومن اجدر من حامل (دعوة الاسلام) الى مصر ، بأن اتحدث عنه ؟

أليس هو السبب الأول في اسلام كل مسلم في مصر ؟

أليس هو السبب الأول في تحلية لسان كل متكلم في مصر ببيان لسان القرآن ، وبمنطق أكمل ألسنة بني الانسان ؟

بل أليس هو مكون الكيان العربي الاجتماعي الخالد لمصر من بضعة عشر قرناً إلى ما شاء الله من أعصار وأدهار سينحسر عنها سجف الغيب في المستقبل القريب والبعيد ؟

ان المسلمين قصروا كثيراً في دراسة حياة عظماء الاسلام الأولين ، وتحليل نفسياتهم التي حملت امانته الى اقطار الأرض . وحتى الآن لم يخلق المؤرخ النافذ

النظر ، المنصف للحق ، النيّر البصيرة ، الذي عرف قدر الانقلاب الاجتماعي المحمول معهم من جزيرتهم الى الأمم ، لأنه الى هذا اليوم لم يوجد — لا في المسلمين ولا في غير المسلمين — من اتسع أُفقه في ادراك مرامي رسالة الاسلام كنظام عملي لم يعرف البشر نظاماً أسعد لهم منه وأنفع لهم في مجتمعهم وحياتهم وكيانهم . ان التقصير في تقدير حياة عظماء الاسلام هو احدى نتائج التقصير في تقدير رسالة الاسلام نفسه ، وحاجة البشر الى احياء انظمته وتعميم العمل بها . وحتى هذا الانقلاب الاجتماعي الذي تم على يد عمرو بن العاص في مصر ، وأبي عبيدة وخالد ومعاوية في سوريا وسعد بن أبي وقاص في العراق ، وإخوانهم في سائر الأقطار التي اعتنقت على ايديهم الاسلام ، وتحولت الى العروبة ، فإن الجماهير ذهبت الى ان ذلك كان من معجزات الاسلام وخوارقه ، ولذلك لم تطل التفكير في المزايا العليا للشخصيات الذين تم الانقلاب على ايديهم .

والذين تولوا تدريس التاريخ والكتابة فيه تأثروا بالمؤلفات التي دُونت تحت تأثير نزعات بعيدة عن الانصاف كان يتأثر بها مؤلفو العصر العباسي ، أو الحكام الذين ألفوا الكتب للتقرب اليهم ، فذهب كثير من الحق الباهر ضحية الأغراض المذهبية ، والنزعات السياسية .

ان الانقلاب الذي تم في مصر على يد عمرو بن العاص وأصحابه يستحق من مؤرخي هذا العصر — ولا سيما في مصر — ان يعيدوا النظر اليه ، وان يبدأوا دراسته من جديد غير متأثرين بما كان يتأثر به كثير من المؤرخين غير المنصفين ، حتى نجحوا في صرف انظار الناس عن ابرع عمل احسن به في مصر رجل من ابرع رجال الانسانية في تاريخها .

واكثر الذين يقدرون براعة عمرو بن العاص فيما قام به من مجهود على ضفاف النيل يحصرون تفكيرهم في عمله العسكري ، والاعجاب بتفاصيله التي تمت على اكمل الوجوه واجملها ، بأقل عدد من الجيش يمكن تصوُّره في هذا الحادث . وكان ينبغي لنا أن نعرف لعمرو بن العاص براعته الأخرى التي لا يعرف التاريخ نظيراً لها في عمله الاجتماعي الذي ترتب عليه اقناع المصريين بأن من الخير لهم — كما ان من الحق عليهم — ان يأخذوا بنظام الاسلام الذي حمله اليهم عمرو بن العاص ، وان يكونوا من اهله حقاً ، وان يتلقوه بلغته من ينابيعه بأنفسهم حتى يكونوا امة حق وخير ، كهؤلاء الذين حملوا اليهم الحق محضاً والخير صرفاً ،

دون ان تشوبها اية شائبة من مطـــامع بعض الطوائف دون بعض ، ومصالح بعض الطبقات دون بعض .

هنالك ادمغة عفنة ، وعقول مظلمة ، اخترعت خرافة قيام الاسلام بالسيف لتقنع الدهماء من متعصبي الطوائف غير الاسلامية بأن الكثرة من اسلافهم دخلت في الاسلام بالقوة ، وقد فاتهم ان القوة لو كانت هي التي ادخلت الكـــثرة من اسلاف الاقليات في الاسلام لكان المنطق السليم يقضي بأنها كان ينبغي ان تدخل الاقليات ايضاً في هذا الدين كما ادخلت الكـثرة . ونسوا ايضاً ان السيوف التي كانت في ايدي المسلمين في كل بقعة دخلها الاسلام – كانت اقـل عدداً من السيوف التي كانت تؤيد الباطل وتحاول ان تحميه وتبقيه . وانما فشلت السيوف الكثيرة التي تحمي الباطل ، ولم تتمكن من التغلب على السيوف القليلة التي تمثل الحق ، لأن هناك قوة ادبية تصاحب تلك السيوف القليلة ، واعني بها جمال الحق ونزعة الخير اللذين تتألف منهما (دعوة الاسلام) يومئذ .

جاء عمرو بن العاص وصحبُه الى وادي النيل وبطريرك الكرازة المرقسية مشرّد في فيافي الصعيد ، لأن السلطات الرومية كانت تطارده وتضطهده . ولو كان عمرو بن العاص آتياً الى مصر لينشر دعوة الاسلام بالقوة والسيف لترك البطريرك ، لا مشرداً ، بل كان المعقول ان يعلن عمرو بن العاص إبطال النظام البطريركي وانتزاعه من جذوره ، والغاء الرهبنات وحياة الأديار الى الأبد. ولو جنح فاتح مصر الى شيء من ذلك لما كان في الدنيا اي مانع يمنعـــه ، الا مانع واحد هو كتاب الله الأعظم الذي يقول في سورة النحل ١٢٥ ﴿ ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي احسن ، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو اعلم بالمهتدين ﴾ .

و (سبيل الله) الذي وجه القرآنُ المسلمين للدعوة اليه هو الصدق، والعدل، وحسن التعامل ، والوفاء بالوعد ، واحترام كل حق ، والأخذ على ايـدي اهل البغي ، وكف اذى الظالمين عن المظلومين ، والاعتدال في كل شيء ، واعتبـار المال (واسطة) للعيش الحلال ، و (وسيلة) للعمل الطيب، واحتقار من يتخذه (غاية) ويلتمسه من الوجوه غير النبيلة. ثم القناعة بالميسور، وان يكون الانسان سهلاً اذا باع واذا اشترى ، وان يراعي الضيف ويقوم له بحقوق تناولها نظـام الاسلام ... الى امثال ذلك من الفضائل التي هي في الواقع انسانيـــة ، وانما

اصبحت اسلامية لأن الاسلام نفسه نظام انساني. وكان المشروط في اهله والداعين اليه ان يكونوا اهله حقاً في انفسهم . وان يدعوا الناس اليه بأعمالهم وتصرفاتهم قبل ان يدعوهم اليه بألسنتهم واوامرهم الرسمية . فلما رأى القبــط في مصر – وامثالهم في الشام والعراق وغيرهما – ان النظام الجديد نظام انساني ، وان الداعين اليه انسانيون في جميع تصرفاتهم ، ايقنوا ان هذا هو (سبيــل الله) الذي دعا اليه ابراهيم وموسى والمسيح ، وان هذا هو النظام الذي كان ينشده البشر ويتمنونه ويحلمون به ، ولكن يحول بينهم وبينه الطغاة من رجال الدنيا والدين الذين تآمروا باسمها على ان يمتص قويهم وسائلَ القوة والحياة في كيان ضعيفهم حتى يكون الضعفاء كالمواشي واهون من المواشي ...

ان عمرو بن العاص استعمل القوة السلبية وهي البطش بالطغيــان ، والأخذ على ايدي الطغاة . وترك العمل الإيجابي وهو حكم القلوب لهذا النظــام او عليه للقلوب نفسها . وقلوب الناس لها عيون أنفذُ نظراً من اشعــة الإبصار التي في عيونهم . فلما رأوا هذه الانسانية في النظام الاسلامي دخلوا فيه عن اغتبــاط وطيب خاطر ، وعلموا انه في الواقع نظام الحق والخير .

وعمرو بن العاص عاش ما عاش للحق والخير ، لأنه صاحب قلب ناضج من اول نشأته ، وان عقله هو الذي مشى به من مكة الى المدينة لينضوي تحت راية الحق والخير ، وقد اثنى عليه المعصوم من الله – صلوات الله عليه – اذ جاء في مسند الإمام احمد بن حنبل عن طلحة بن عبيد الله احد العشرة المبشرين بالجنة – انه سمع رسول الله ﷺ يقول عن عبد الله بن عمرو بن العاص « نعم اهل البيت عبد الله ، وابو عبد الله ، وام عبد الله » وقال طلحة بن عبيد الله ايضاً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان عمرو بن العاص من صالح قريش » وشهد له ﷺ ولأخيه هشام فقال « ابنا العاصي مؤمنان : هشام وعمرو » .

وبلغ من إعجاب امير المؤمنين عمر بن الخطاب وعظيم احترامه لفاتح مصر ما رواه ابن أبي خيثمة من طريق الليث بن سعد إمام مصر ان عمر نظر إلى عمرو يمشي فقــال : « ما ينبغي لابي عبد الله أن يمشي على الارض الا اميراً » . وروى الامام الشعبي عن قبيصة بن جابر انه قال : « صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين قرآناً ولا اكرم خلقاً ولا أشبه سريرة بعلانية منه » .

وقد استغلت إحدى الطوائف – التي جعل الشيطان في قلوبها غِلاً لأصحاب

رسول الله ﷺ — ما اشتهر عن عمرو بن العـــاص من الدهاء والذكاء ونضوج العقل فاختلقت عنه اكاذيب لا تتفق مع سيرته وجهاده ووقاره وعظيم مكانته من رسول الله ﷺ وكبير تضحيته في سبيل الاسلام واهله. الا ان الامام القاضي الاندلسي ابن العربي صاحب كتاب احكام القرآن عدّ هذا الافتراء من تلـــك الطائفة على الصحابي الفاتح الكريم قاصمة من القواصم في الاسلام، وتكلم على ذلك في كتابه « العواصم من القواصم »، وروى عن رجال الحديث من شيوخ البخاري وامثالهم ما يدل على أن موقف عمرو بن العاص وأبي موسى الاشعري في مسألة التحكيم كان سليماً، وان الرجلين كانا عند حسن الظن بهما من النصح والاستقامة، وان ما افتراه المتزلفون لاهل الباطل من مدوّني التاريخ لا يصح، وان اشتهر بعد ذلك وتناقله بسطاء الناس وصدقوه.

لهذا ولأسباب أخرى كثيرة نرى من واجب مؤرخي العصر والمحققين من علمائه وأساتذته أن يعيدوا النظر في دراسة الأمور التي تتصل بالاختـــلافات المذهبية من تاريخ الاسلام وحيـــاة رجاله، وأن يمحصوا كل خبر بالرجوع إلى أقدار رواته وأهوائهم على طريقة علماء الحديث، فلا يقبلوا إلا الخبر الذي تناقله العدول المنصفون من أهل الصدق والبصيرة.

هذه واحدة. والفاجعة الأخرى أن تبقى إلى الآن البقعة التي ظهر منها نور الاسلام في مصر محاطة بالمزابل، ومشوهة بالجيارات والخرائب، حتى يـــكاد الجامع الأعظم بمنبره ومآذنه يجهش بالبكاء، حزناً وقهراً لما أُصيب به من إهمال، حتى كأن الامام الشافعي لم تكن له في هذه البقعة ذكريات تاريخية ثمينة، وكأن الليث بن سعد لم يكن يأوي اليها بجلاله وواسع علمه، وكأن مدوّنـــة الامام مالك لم يتلقها أئمة البلاد عن راويها الأول في هذا المكان المشرف، بل كأن أصحاب رسول الله لم يتخذوا هذا الموضع منزلاً لهم ووطناً، ولم يخلفوا فيـــه وراءهم أمجد ذكرى تتشرف بها مصر وتعتز بها في تاريخها.

وكما غيرت مصر اسم شارع مصر القديمة باسمه الحلو الجميل (شارع عمرو بن العاص) يجب علينا حتماً — في هذا اليوم قبل غد — أن نغير اسم الحي كله من مصر القديمة إلى اسمه (الفسطاط)، ويجب على سراة مصر وعلمائها وعظمائها أن يتنافسوا في اقتناء أراضي البناء حول جامع عمرو وأن يقيموا عليها أنفس المباني، بل يجب على الازهر كما اتخذ إحدى كلياته في الخازندارة من حي شبرا أن ينتهز

أول فرصة لاقامة بعض كلياته في الفسطاط إلى جانب الجامع الاكبر ، لتعود علوم الشريعة إلى مكانها الاول في تاريخ مصر .

وخير للأزهر من الاحتفال بذكراه أن يحتفل علماؤه – وهم علماء الاسلام قبل أن يكونوا علماء الازهر – بذكرى قيام الاسلام نفسه على ضفاف النيل ، وأن يجددوا ذكرى الابطال الاخيار من حملة الهداية الاسلامية إلى هذا الوطن . ولعلهم فاعلون إن شاء الله .

كلمات قديمة عن الحكم العربي لمصر

ترك أساقفة القبط ومؤرخوهم في صدر الاسلام كلمات ذات قيمة تاريخية في وصف الحكم العربي في القرنين الاولين بعد الفتح .

من ذلك قول أحد هؤلاء الاساقفة لبنيامين بطريق القبط وقد عاد إلى مصر آمناً في ظل الحكم الاسلامي بعد أن هرب ثلاثة عشر عاماً من اضطهاد الروم :

« الحمد لله الذي نجاك من الكفرة (الروم) ، وحفظك من الطاغية الاكبر الذي شرّدك ، فعدت إلى أبنائك تراهم ملتفين حولك مرة أخرى » .

ونقل عن بنيامين البطريق الاعظم للقبط أنه قال يصف عودته عند فتح العرب :

« كنت في بلدي (الاسكندرية) فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة (الروم) وبأسهم . وفرح القبط كما تفرح الاسخال إذا حلت لها قيودها وأطلقت لترتشف من لبان أمهاتها » .

وقال الاسقف حنا النيقوسي : « لقد تشدد عمرو في جباية الضرائب التي وقع الاتفاق عليها ، ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ، ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغصب ، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة حياته » .

وورد في كتاب ألفرد بتلر (فتح العرب لمصر) في وصف دخول المصريين في دولة العرب : « فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول ، وآل أ رهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والاطمئنان ، وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين ، فأصبحوا وقد فك من قيدهم في أ.ور الدنيا ، وأرخى عنانهم ، وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حر وأمر طليق » .

النعمان بن مُقرن المزني

فاتح نهاوند ، وشهيدها الأعظم

دخول النعمان في الاسلام

كان من بركات (الهجرة المحمدية) اتساع الآفاق العربيـة لدعوة الإسلام . وقبائل (مزَيْنة) التي نشأ فيها (النُّعمان بن مقرّن) كانت على طريق النبي ﷺ في هجرته ، فديارها واقعة في جنوب يثرب على جانبي الطريق إلى مكة ، وكانوا قد تعودوا الحرْث والزرع ، فمنه معايشهم ما أسعفهم الماء والسماء .

ولما أراد الله لهم الخير عقب الهجرة فوعوا مرامي الاسلام ، كان أول ما يترتب على دخولهم فيه ن يساهموا في حمل أعبائـه بأموالهم وأنفسهم ، إلا أن السماء كانت في ذلك العام ضنينة على منازل مزينة بالغيث والخصب ، فقدم رجال منهم على رسول الله يبذلون له أنفسهم ، ويعتذرون عن البذل من أموالهم ، لأنهم لا أموال لهم يومئذ يتصدقون من فضلها . أما (النعـمان بن مقرّن) فهو وحده الذي كان يرى أن الجود لا يكفي أن يكون من الموجود ، بل يجب أن يكون بكل الموجود ، فلما أراد هو وستة من إخوته أن يقدموا أنفسهم لله ورسوله خجلوا من الله ورسوله أن يأتوا المدينة بأيد فارغة ، فجمع النعمان ما كان حول خبائه وأخبية إخوته من غنيمات ، وساقها بين رهط من قومه جاءوا المدينـة ، ولقي بها رسولَ الله صلوات الله عليه ، فنزل فيـه قول الله عز وجل من سورة التوبة ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

نسب النعمان ومكانة قومه

و (مزينة) من القبائل المباركة في الجاهلية والاسلام ، نبغ منها أمثـال

زهير بن أبي سُلمى ، وابنيه بجير وكعب ابني زهير ، وحفيديه عقبة والعوّام ابني كعب بن زهير . ونبغ من شعرائها معن بن أوس الذي يقول :

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه ... بحلمىَ عنه وهو ليس له حلم
لأستلّ منه الضغن حتى استللته ... وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يرى أن هذا أحسن شعر قالته العرب. ونبغ منها أذكى أذكياء الدنيا القاضي إياس بن معاوية الذي لا يعرف القضاء أحكم منه إصابة للمحزّ في رأيه وحكمه .

و (مزينة) إخوة (الرباب) و (ضبة) ، وهم أعمام (بني تميم) ، وإذا لم تبلغ مزينة بني إخوتهم من تميم فإنهم لا ينحطّون عن مستواهم في الانسانية الرفيعة الراجحة ، وفي غنى نفوسهم بكريم المعادن وسريّ الفضائل ، وفي اقترابهم من طريق الله إلى الحق والخير . وقد صدق شاعرهم معن بن أوس يوم وصف سلفه في الجاهلية والاسلام فقال :

وأجداد صدق لا يعاب فعالهم ... هم النضدَ السر الغطارفة الشمُ
مطاعيم في البؤسي لمن يعتريهم ... إذا يشتكي في العام ذي السنة الأزم
مصاليت أبطال إذا الحرب شمرت ... بأمثالهم يوم الوغى يكشف الهم
إذا انتسبت مدت يديها إلى العلى ... وصدقها الاسلام والحسب الضخم

والصحابي الجليل الذي عقدنا هذا الفصل لتعريف شبابنا بجهاده وهو النعمان ابن مقرّن بن ميجا بن هجير بن نصر بن حبشية بن كعب بن عبد بن ثور بن هُذمة بن لاطم بن عثمان بن عمرو (زوج مزينه ، وهي أمهم) بن أدّ بن طابخة ابن الياس بن مضر .

ولما تقدّم (بيت مقرّن) لنجدة الاسلام بالنعمان وأخلاقه وغنمياته ، قدم له ستة آخرين من إخوة النعمان كلهم سادة قادة أبطال ، وسيعرف القارىء أخبار أربعة منهم : وهم سويد ، ومعقل ، وعبد الله ، ونعيم . قال سويد : لقد رأيتني سابع سبعة من إخوتي بني مقرّن مع رسول الله ﷺ ما لنا خادم إلا واحدة ، فلطمها أصغرنا ، فأمر رسول الله فأعتقناها » .

وقال عبد الله بن مسعود : « إن للإيمان بيوتاً ، وللنفاق بيوتاً . وإن بيت بني المقرّن من بيوت الإيمان » .

جهادالنعمان مع رسول الله

في (يوم الخنــدق) وهو من أيام الشدة في الاسلام ، ناط رسول الله بكل عشرة من أصحابه حفر أربعين ذراعاً من الخندق ، وخططـه لهم ، وسمى كل عشرة للأربعين ذراعاً التي من نصيبهم . وكان النعمان بن مقرن وعشيرة عمرو بن عوف المزني ، وزميله في القيادة والجهاد حذيفة بن اليان، وصاحب فكرة الخندق سلمان الفارسي وستة من الأنصار شركاء في حفر أربعين ذراعاً ، فمضوا يعملون بهمة ونشاط حتى علقت فؤوسهم بصخرة بيضاء كبيرة استعصت عليهم وتكسر فيها حديدهم، فاستنجدوا بالهادي الأعظم يسألونه هل يتركونها ويكملون أربعينهم من ورائها ؟ فأخذ بيده الشريفة فأساً وأهوى بها على الصخرة فتفتتت بضربات قليلة أضاء شرر ُها ما حولهم . فكان للنعمان وأصحابـه شرف مشاركة الرسول لهم في أربعينهم . وبعد بلاء النعمان في حفر الخندق كان بلاؤه الشريف في الدفاع عن الخندق ، وكان في هذا وغيره من النبلاء الأخيار .

وفي (فتح مكة) كان النعمان صاحب راية مزينة ،قال ابن اسحاق في حديث رواه الطبري (٣ : ١٢٢) إن المجاهدين من مزينة كانوا يومئذ الفاً وثلاثة نفر وهم ُعشر الجيش كله ،فلما بلغوا الليط أسفل مكة انضوت مزينة برايتها إلى المجنبة اليمنى من جيش الفتح التي كان لواؤها معقود لسيف الله خالد بن الوليد المخزومي.

جهاده مع أبي بكر الصديق

ولما ذرّ قرن (فتنة الردّة) عقب البيعة لخليفة رسول الله أبي بكر الصديق كان بنو مقرّن يد أبي بكر اليمنى ، ولا سيما عندما خرج بنفسه ليصد الفتنــة بصدره الشريف ، فجعل النعمانَ بن مقرّن على ميمنة الجيش الذي أعده أبو بكر لحرب المرتدين ، وعبد الله بن مقرن على ميسرته ، وسويد بن مقرن على الساقــة ومعه الركاب ، فاقتتلوا مع المرتدين أعجــاز ليلتهم حتى بـدا قرص الشمس ، فجعل الله الهزيمة على البغاة ، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة ، وكان ذلك أول الفتح . ثم خلـّف أبو بكر النعمان بن مقرن في ذي القصة قائداً على حاميتها ، ورجع إلى المدينة قرير العين بالنصر الذي كتبه الله لسيوف هذه القلة من المجاهدين الصابرين الصادقين .

واستأنف أبو بكر الصدّيق القتال بنفسه مرة أخرى ، فخرج في تعبئته إلى

ذي حسي وذي القصة ، وآل مقرن - النعمان ، وعبد الله ، وسويد - على ما كانوا عليه من مكانتهم في الجيش . حتى نزل أبو بكر على أهل الربذة بالأبرق ، فنفى عنها بني ذبيان وحرّم الأبرق عليهم ، وجعله حمى لصدقات المسلمين. وفي يوم الأبرق يقول زياد بن حنظلة :

ويوم بالأبارق قد شهدنا   على ذبيان يلتهب التهابا
أتيناهم بداهيـــة نسوف   مع الصدّيق إذ ترك العتابا

جبهة الجهاد في ايران

هكذا كانت - زمن النبي ﷺ وخليفته الأول - مكانةُ هذا الأعرابي الذي آمن بالله واليوم الآخر واتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، فقال الله عز وجل فيه وفي اخوته الستة ﴿ ألا انها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

وتحولت خطوط الجهاد من أُحد ، وفتح مكـة ، وقمع الردّة ، الى جبهـة ايران . فلم يكن الجهاد حرباً بين عرب مؤمنين وعرب مشركـين ، بل كان حرباً بين الايمان والشرك وبين لسان الايمان ولسان الشرك . والايمان لا يصلح له لسان الشرك . فكانت المهمة الآن فوق انها مهمة عسكرية فإنها دعوة الى تغيير نظام ديني واجتماعي ، ثم الى تغيير لغة النظام المقضيّ عليه ، بلغة النظام الجديد الذي سيقضى عليه .

والديانات الأخرى كان دعاتها ينقلونها الى الناس ، ويتركون الناس وما هم عليه من تقاليد وعادات واقتناعات واوهام ولو خالفت الدعوة التي نقلوها اليهم . أما الاسلام فكان دعاته الأولون لا يثقون بالامم الا اذا انتقلت هي الى دعوتهم وتجرّدت لها من كل ما سواها . ولا سبيل الى ذلك الا بأن يأخذوها بأنفسهم من لغتها وينابيعها بلا واسطة ، ولا يكون هذا الا بأن تتعرّب الامم .

ولاجل هذه المهمة الجديدة انتقلت قبائل العرب من منازلها في جزيرة العرب ، وتوطنت - بقضّها وقضيضها - على مقربة من خطوط الدعوة وميادين الجهاد. ولاجل ذلك بنى أصحاب رسول الله ﷺ المصريين الاولين في العراق - البصرة والكوفة - على مقربة من الاهواز جنوباً وقلب البلاد الفارسيـــة في الشمال . وقلتُ في فصل سيأتي عن كتيبة الاحنف بن قيس : ان الاحنف وقومه من تميم

انتقلوا بمنازلهم من الاحساء في سواحل نجد الى البصرة ، واقول الآن : ان النعمان بن مقرن انتقل وقومه من مزينة متحولين عن جنوب المدينة الى شرق الكوفة ، ليقوموا بالمهمات الثلاث : الدفاع الحربي عن البلاد التي دخلت في الاسلام ، ونشر الدعوة الاسلامية على طريقتهم التي سنبينهابفصل خاص نعقده لها ، وتعريب البلاد التي توطنوها أو التي سيصلون اليها .

فأصبحت الكوفة وطناً لمزينة ، ومركزاً حربياً لها . وثكنة تستمد منها جيوشُ الفتح المدد عند الحاجة .

النعمان بن مقرن في جهاد ايران

ومنذ عرفت مزينة منازلها في شرق الكوفة كانت هي ومجاهدها الكريم النعمان بن مقرّن على أهبة الاستعداد للقيام بأعباء الدعوة والجهاد . وكانت قد انتهت الوقائع الاولى التي سجل فيها المثنى بن حارثة الشيباني بطولته ، وجاءت بعدها وقعة الجسر التي أبلى فيها أبو عبيد بن مسعود الثقفي عظيم البلاء ، ثم اتسع الميدان للقائد الأعظم سعد بن أبي وقاص فأخذ يستعد للاصطدام بجيوش رستم قائد قواد الدولة الفارسية وصاحب الرأي فيها ، فصدر الأمر من عمر إلى قائده سعد بأن يتقدم بدعوة الإسلام إلى يزدجرد نفسه قبل أن تدور رحى أعظم حرب عرفها الناس في ذلك العصر . فجمع سعد نفراً من قادة جيوشه وأعيانهم اختار بعضهم لأنهم ذووا رأي وعليهم نجار ، ونفراً لان عليهم مهابة ولهم منظر وهم مع ذلك من أهل الرأي . وكان على رأس الفريقين وفي مقدمتها النعمان بن مقرّن ، ومنهم بسر بن أبي رهم وحملة بن جؤية وحنظلة بن الربيع وفرات بن حيان وعدي بن سهيل والمغيرة بن زرارة وعطارد بن حاجب والاشعث بن قيس والحارث بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معدي كرب والمغيرة بن شعبة والمعني بن حارثة . وإن وفداً ينتدبون لهذه المهمة وفيهم هؤلاء العظماء ، ويكون النعمان بن مقرن في طليعتهم ، دليل على ما بلغه النعمان في صدرخلافة عمر من مكانة في كيان الدولة الراشدة والمجتمع الاسلامي .

النعمان يصف الاسلام ليزدجرد

ودخل وفد الخلافة الاسلامية على كسرى يزدجرد في مجلس ملكه ، فقال لهم يزدجرد : ما جاء بكم ، وما دعاكم الى غزونا ، والولع ببلادنا ؟ أمن أجل أنا

أجمناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فقال النعمان بن مقرن لإخوانه : ان شئتم أجبت عنكم ، ومن شاء منكم أن يتكلم آثرته ...

فقالوا : بل تكلم .

وقالوا ليزدجرد : كلام هذا الرجل كلامنا .

فتكلم النعمان فقال : « ان الله رحمنا فأرسل الينا رسولاً يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر ، وينهانا عنه . ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة . فما دعا الى ذلك قبيلة الا وصاروا فرقتين : فرقة تقاربه ، وفرقة تباعده . ولا يدخل دينه الا الخواص . فمكث بذلك ما شاء الله ان يمكث . ثم أمر أن ينبذ الى من خالفه من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعاً على وجهين : مكره عليه ثم اغتبط ، وطائع أتاه فازداد . فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف . فنحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين يحسّن الحسن كله ويقبّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه : الجزية . فإذا أبيتم فالمناجزة (أي الحرب) . فإذا أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم . وان اتقيتمونا بالجزية قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم » .

فأجاب يزدجرد على خطبة النعمان بن مقرن بكلام أطال به لسانه على العرب – قال الطبري عن شيوخه : وكان يزدجرد سيء الأدب – فانبرى له المغيرة بن زرارة الاسيدي وأعلمه بأن ما ذكره عن العرب خطأ ، وأن ما هو واقع من ذلك قد جاء الاسلام بتهذيبه ، فجعل من العرب خير أمة أخرجت للناس ، ثم خيره بين الاسلام والجزية والحرب .

فغضب يزدجرد واستدعى بوقر (زكيبة) من تراب ، وقال لجنده : احملوا هذا التراب على اشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . ثم قال للوفد العربي : ارجعوا الى صاحبكم وأعلموه أني مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية .

فتقدم عاصم بن عمرو (وفي رواية : عمرو بن معدي كرب) فقال : أنا سيد

هؤلاء . وحمل وقر التراب على عاتقه . فلما عاد الى سعد بن أبي وقاص وقال له:
– أبشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليـــد ملكهم . وهذه تربـــة بلادهم قد أسلموها الينا . . .

غنائم القادسية

وكانت حرب القادسية رحى طحوناً ، وكانت فيها الفرس أضعـاف العرب عدداً واستعداداً . الا أن كل عربي كان فيها بمقام كتيبة ، ولا سيا بعد الذي فشا في الجيش من مقالة يزدجرد وسوء أدبه ، الى أن انتهت بالظفر الأكبر ، والنصر المؤزّر : فجمعت الغنائم وقسم الفيء وتسلم سعد الأخماس ، فلما رأى ما اجتمع أمامه من ذلك هتف قائلاً :

– والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا ما سبق لأهل بـــدر لقلت: إنهم على فضل أهل بدر .

وقال جابر بن عبد الله : والله الذي لا إله إلا هو ، ما اطلعنـا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخره : لقد اتهمنا ثلاثة ، فما رأينا كأمانتهم وزهدهم ، وهم طليحة ، وعمرو بن معدي كرب ، وقيس بن مكشوح .

وأقبل رجل من الجيش الى صاحب الأقباض ودفع اليــه أمانات من حقوق بيت المال كان يحملها : فسأله سائل هل أخذت منها شيئاً ؟ .

فأجابه : والله لولا الله ما أتيتكم بها !

فقالوا له : من أنت ؟

قال : والله لا أخبركم فتحمدوني ، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه .

فسألوا عنه فإذا هو عامر بن عبد القيس .

وبعث سعد بالأخماس الى أمير المؤمنين عمر – وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده – فلما رآها عمر قال : « إن قوماً أدوا هذا لذوو أمانة » .

فقال له عليّ : « إنك عففت ، فعفّت الرعية » .

إعفنا من عمل يتزين كالمومسة

وبعد نصر القادسية ولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قائده العظيم سعد بن أبي وقاص على كل ما فتحه وغلب عليه . ثم اختار من أمناء القادسية الأخوين المؤمنين النعمان بن مقرّن وسويد بن مقرن ، فولى أولهـا خراج ما سقت دجلة ، وولى

أخاه على خراج ما سقت الفرات وفي أسابيع قليلة بنيا الجسور وعمرا الأرض ، وكانا رفيقين بأهل الزراعة على طريقة عمر فيما يجب أن تعامل به الامة .

ولكن ابني مقرن لم يخلقا لعدّ النقود وجباية الضرائب ، بل خلقا لمتون الخيل، والدعوة الى الله،حتى تنطفىء نيران المجوسية الى الأبد :وكان مركزعمل النعمان في بلدة اسمها (كسكر) ، فكتب الى عمر بن الخطاب يقول له: «مَثَلي ومثل كسكر كمثل رجل شابٌ الى جنبه مومسة تــلوّن له وَتعطر . فأنشدك الله لما عزلتني عن كسكر ، وبعثتني الى جيش من جيوش المسلمين » . وكان عمر عندما وصله كتاب النعمان تأتيه الرسائل من العراق وأطراف فارس وقادةالجند ومن سعد بن أبي وقاص نفسه بأن يزدجرد استثار الفرس من أصبهـان وهمدان والريّ (طهران) وأذربيجان وجمع الأنحاء لحرب العرب . وأنــه قــد أقام معسكره الأعظم في نهاوند مدينة أصبهان ، وكان الهرمزان قد جيء به أسيراً الى المدينة من قبل ذلك،فاستدعاه عمر وسأله عن قوة فارس،فاجابه الهرمزان:

– ان فارس اليوم رأس وجناحان .

قال عمر : وأين الرأس ؟

قال الهرمزان : بنهاوند ، والجناحان أذربيجان (ومكان آخر سماه) .

ونصح لعمر بان يقطع الجناحين فيضعف الرأس . فقال له عمر :

– كذبتَ يا عَدو الله ، بل أعمد الى الرأس فاقطعه ، فإذا قطعه الله لم يعص عليّ الجناحان .

وأراد عمر أن يسير الى نهاوند بنفسه،فنعه أهل الشورى من كبار الصحابة، وحينئذ لمع في ذهنه المنير اسم (النعمان بن مقرّن) .

النعمان للقيادة العظمى

وكان عمر لما جاء كتاب النعمان وأخيه بالاستعفاء من ولاية الخراج كتب اليه يأمره بان يلتحق بقبائله من مزينة ، ويتلقى الأوامر من سعد بن أبي وقاص ، وكتب الى سعد ان يضم الى النعمان جيشاً كثيفاً يقطع به دجلة بحيال ميسان،ثم يأخذ البر الى الاهواز على البغال ، ويجنبون الخيل لتبقى مستريحة ليوم الوغى . وكتب عمر الى عبد الله بن عتبان كتاباً مع ربعى بن عامر بأن يستنفر قبـائل اهل الكوفة ويلحقها بالنعمان فيوافيه ببلدة (ماه) وهم تحت قيادة حذيفة بن

اليمان حتى ينتهوا الى النعمان . وكتب الى قواد الجيوش في انحـــاء اخرى من فارس وبين فارس والاهواز – ومنهم سلمى بن القين ، وحرمله بن مريطـة ، وزر بن كليب ، والمقترب الاسود بن ربيعة – ان يشغلوا فارس عن اخوانهم الزاحفين على نهاوند ، وان يحوطوا بذلـــك امتهم وارضهم ، وان يقيموا على حدود ما بين فارس والاهواز حتى يأتيهم امره،وبذلك قطع على العدو بنهاوند كل مدد يمكن ان يصل اليه .

وفي طريق النعمان الى نهاوند افتتح أرْبك (او اريق)من نواحي رامهرمز، ولها اهمية عسكرية لقنطرة عندها مشهور لها ذكرى في تاريخ الفتوح ثم في تاريخ ثورات الخوارج .

وانتقل النعمان بعد ذلك الى السوس وتستر ففتحها بأهل الكوفة ، وسار منها الى نهاوند ، وفي طريقه تلقى كتاب امير المؤمنين عمر يقول له فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر امير المؤمنين الى النعمان بن مقرن ، سلام عليك ، فإني احمد اليك الله الذي لا إله الا هو. اما بعد فقد بلغني ان جموعاً من الاعاجم قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا اتاك كتابي هذا فسر – بأمر الله وبعون الله وبنصر الله – بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعراً فيؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم غيضة .. وان رجلاً من المسلمين أحبّ اليّ من مائة الف دينار . والسلام عليك » .

وكان النعمان يدنو من نهاوند والجيوش تتلاحق به،عملاً بأوامر امير المؤمنين التي كانت تعبّئهم وتجمعهم من كل حدب وصوب ، ومنها جيوش بقيادة حذيفة ابن اليمان ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وجرير بن عبد الله البجلي، والمغيرة ابن شعبة ، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي ، وطليحة بن خويـلد الاسدي ، وقيس بن مكشوح المرادي .

لا يخون العربي قومه

وكان امير المؤمنين عمر يتخوف من ثلاثة رجال تطوعوا في جيش النعمـان وهم طليحة بن خويلد – صاحب تلك الحوادث في حروب الردة – وعمرو بن أبي سلمى وعمرو بن معدي كرب ، فكتب الى النعمان كتاباً تلقاه وهو في الطريق يقول فيه : « ان معك حد العرب ورجالهم في الجاهلية ، فادخلهم دون من هم

دونهم في العلم بالحرب ، واستعن بهم ، واشرب برأيهم ، وسل طليحة وعمراً وعمراً ولا تولهم شيئاً » . فاراد النعمان ان يختبرهم ، فارسل طليحة طليعة فغاب وأبطأ ، فخافوا ان يكون ارتد الثانية ، فبعد ان قطع ٢٤ فرسخاً في الاستطلاع عاد وقد علم القومَ ووقف على خبرهم . فلما رآه المسلمون راجعاً كبّروا ، فسأل طليحة عن سبب تكبيرهم ، فاخبروه بالذي خافوا عليه ، فقال :

– والله لو لم يكن دين الا العربية ، ما كنت لاجزر هذه العجمَ الطماطم هذه العرب العاربة !

ثم دخل على النعمان واطلعه على ما وقف عليه ، وانه ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه ، فنادى النعمان بالرحيل : وامرهم بالتعبئة ، فجعل على مقدمته اخاه نعيم بن مقرن ، وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن ، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو ، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود .

الحرب خدعة

ولما صارت هذه الجيوش في منطقة نهاوند ، كانت للنعمان أمام طلائعه عيون تشق لهم الطريق وتكتشف ما فيه ، فزجر بعضهم فرسه فلم يبرح ، فترجل عنه ونظر في يد الفرس فإذا في حافره حسكة ، فنظر هو ورفاقه فإذا العجم قد طرحوا حسك الحديد (كالمسامير الحادة) على طول الطريق ، فطيروا الخبر إلى قائدهم العام النعمان بن مقرن ، فجمع مجلس شوراه من القواد وأهل الرأي ، فأجمع رأيهم على أن يتظاهروا بالرجعة والتخوف من جيوش الفرس ، حتى يضطر الفرس الى طلب العرب بسلوك هذا الطريق ، وجازت الحيلة على الفُرس وظنوا أن العرب انهزموا ، فأرسلت الفرس من كنس الحسك من الطريق ، فعطف عليهم النعمان بكتاب الله . وأخذ ينظم صفوفهم . ووافق نزول الجيوش الإسلامية في مكان يسمى (الأسبيذهان) من ضواحي نهاوند ونزلت جيوش العجم في ضاحية (وايه خرد) فأمر النعمان بأن يضرب فسطاطه ، فتسابق أربعة عشر قائداً من أشراف القادة المجاهدين واكثرهم من الصحابة كحذيفة بن اليمان فبنوا للنعمان فسطاطه بأيديهم فلم ير الناس بناة فسطاط اشرف من هؤلاء . وانشب النعمان القتال بعدما حطت جيوشه اثقالها .

معارك نهاوند

وكانت حرب نهاوند سنة ١٩ لسبع سنين من إمارة أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب . وبدأ القتال في يوم أربعاء وواصل الفريقان القتال يوم الخميس، فلما كان يوم الجمعة أيقن الفرس انهم لا قبل لهم بحرب العرب وجهاً لوجه ، فانحجروا في خنادقهم ، فحصرهم المسلمون واقاموا عليهم اياماً طوالاً . والاعاجم لا يخرجون الا اذا ارادوا الخروج . فلما طال الأمر ، عقد النعمان في يوم جمعة من الجمع مجلس شوراه ممن بقي من اهل النجدات والرأي في الحروب، وخطب فيهم النعمان فقال: « ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن ، وانهم لا يخرجون الا اذا شاءوا . ولا يقدر المسلمون على انبعاثهم قبل مشيئتهم . فما الرأي الذي نحمشهم ونستخرجهم الى المنابذة وترك التطويل ؟ » .

وكانت سنّة العرب في مجالس حربها ان يتكلم اهل الرأي على الأسنان ، فتكلم عمرو بن ثبي العنزي — وكان اكبر الناس سناً يومئذ — فقال : التحصن عليهم اشد من المطاولة علينا ، فدعهم ايها الامير وطاولهم ولا تحرجهم ، وقاتل من اتاك منهم .

فرد عليه الجميع رأيه . وتكلم عمرو بن معدي كرب فقال :

— ناهدهم ايها الأمير وكاثرهم . . .

فردوا عليه جميعاً رأيه وقالوا: وانما تناطح بنا الجدران، والجدران اعوان لهم علينا.

وتكلم طليحة فقال : « ارى ايها الامير ان تبعث خيلاً مؤدبة ، فيحدقوا بهم ، ثم يرموهم بالنبل لينشبوا القتال ، ويحمشوهم . فإذا استحمشوا واختلطوا بفرساننا أرزوا الينا استطراداً ، ونحن لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم ، فإذا استطردنا لهم ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا فخرجوا ولقيناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما احب » .

وكان طليحة في هذه ايضاً من اهل الحق والخير ، فأخذ النعمان ومجلس شوراه برأي طليحة ، وامر القعقاع بن عمرو — وكان على الجردة — ان يتولى الإحداق بالعدو ، وتربص النعمان الى ساعة الزوال التي كان النبي ﷺ يحب القتال فيها اذا لم يبدأه صبحاً ، واخذ يطوف على الرايات ، فحرض رجالها بخطب بليغة وايمان عميق .

آخر أوامر النعمان

وكان آخر خطب النعمان في اخوانه المجاهدين يوم المعركة « انكم بين خيرين،

منتظرين احدى الحسنيين : من بين شهيد حي مرزوق . او فتح قريب ، وظفر يسير فليكف كل رجل ما يليه ، ولا يكل قرنه الى اخيه فيجتمع عليه قرنه وقرن نفسه ، وذلك من الملاءمة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مسلط على ما يليه . فإذا قضيت امري فاستعدوا ، فإني مكبر ثلاثاً ، فإذا كبرت التكبيرة الاولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ ، واذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض ، فإذا كبرت الثالثة فإني حامل ان شاء الله فاحملوا معاً . اللهم اعز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان اول شهيد اليوم على اعزاز دينك ونصر عبادك » .

ثم رجع الى موقفه فكبر الاولى والثانية والثالثة ، والناس مستعدون للمناهضة . وحمل النعمان وحمل الناس، وراية النعمان تنقضّ نحو العدو انقضاض العُقاب ، والنعمان معلم ببياض القباء والقلنسوة ، فلم يسمع السامعون بوقعة يوم قط اشد من هذه الوقعة فيما بين الزوال والإعتام ، وقتل من العجم ما طبق ارض المعركة دماً كان يزلق فيه الناس والدواب وزلق فرس النعمان في الدماء فصرع الفرس ، واصيب النعمان حين زلق به فرسه فصرع . وكان آخر كلماته لأخيه سؤاله عن المعركة ومن انتصر فيها ، فلما علم ان النصر للمسلمين قال لأخيه : « عجل بالبشارة الى امير المؤمنين » .

فتناول الراية اخوه نعيم بن مقرن قبل ان تقع ، وسجى النعمان بثوب ، وذهب الى حذيفة بن اليمان بالراية فدفعها اليه ، فأقام حذيفة نعيماً في المقام الذي كان هو فيه ، وقام هو في مقام الشهيد الاعظم قائد هؤلاء المؤمنين الأبرار الذين لم يكونوا دون مرتبة اهل بدر في اخلاصهم وقوة ايمانهم واعطائهم من انفسهم كل ما تدخره من معادن النفوس .

فلما بلغ حذيفةُ المكان الذي كان فيه النعمان فأقام اللواء قال له المغيرة : اكتموا مصاب اميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفي عدونا لكيلا يهن الناس. واقتتلوا حتى اظلهم الليل فانكشف المشركون والمسلمون مُظلّون بهم . فعمي على عبدة النار قصدهم ولم يعلموا اين يقرون ، فأخذوا نحو اللهب الذي كانوا نزلوا دونه فوقعوا فيه ، وكانوا يقعون في النار جماعات لانهم ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل لئلا يفروا اثناء القتال ، فجعلوا عند فرارهم لا يهوى منهم احد في

النار الا قال بالفارسية « وايه خرد ! » فسمى المكان (وايه خرد) الى اليوم ، ويقدر احفادهم ممن اسلموا بعدُ ان عدد قتلى العجم في النار ذلك اليوم مائة الف او يزيدون ، ولم يفلت الا الشريد ، وحاول الفيرزان النجاة فاراً نحو همذان فاتبعه نعيم بن مقرن وقدّم القعقاع قدامه فأدركه عند ثنية همذان ، وكان فيها بغال تحمل عسلاً فحالت بينه وبين الإفلات ،فقتله على الثنية ، وقال المسلمون «ان لله جنوداً من عسل» واستاقوا العسل وما معه من احمال ،وسميت الثنية (ثنية العسل).

ودخل المسلمون بعد النصر مدينة نهاوند. وجمعوا الغنائم والاسلاب وحملوها بكل امانة الى صاحب الاقباض السائب بن الأقرع . ثم اقبل (الهربذ) صاحب بيت النار فطلب الأمان من حذيفة بن اليمان ، وابلغه ان عنده ذخيرة كسرى وجواهره. وأبى المجاهدون أن يدخلوا ذلك الغنائم ،وأحبوا ان يرسل كما هو الى عمر ، فذهب السائب بالأخماس —وبهذه الذخائر في سَفَطين — الى عمر ، فقال له عمر:

— ما وراءك يا سائب ؟

قلت : خيراً يا امير المؤمنين ، فتح الله عليك بأعظم الفتح ،واستشهد النعمان ابن مقرن رحمه الله ...

فقال عمر : انا لله وانا اليه راجعون . ثم بكى فنشج ...

قال السائب : حتى اني لانظر الى فروع منكبيه من فوق كتـــده (اي مجمع كتفيه) فلما رأيت ما لقي قلت : والله يا امير المؤمنين ما اصيب بعده من رجل يعرف وجهه ، فقال عمر :

— المستضعفون ؟ لكن الله الذي اكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وانسابهم. وما يصنعون بمعرفة ابن ام عمر ؟

ثم قام ليدخل ، فقال له السائب :

— ان معي مالاً عظيماً قد جئت به (واخبره خبر السفطين) .

فقال عمر : ادخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما ، والحق بجندك .

قال السائب : فأدخلتهما بيت المال وخرجت سريعاً الى الكوفـة . وبات عمر تلك الليلة . فلما اصبح بعث في اثري رسولاً فما ادركني حتى دخلت الكوفة فأنخت بعيري ، واناخ الرسول بعيره على عرقوبي بعيري فقال :

— الحق بأمير المؤمنين ، فقد بعثني في طلبك ، فلم اقدر عليك الا الآن .

فقلت له : ويلك ماذا ، ولماذا ؟

قال : لا ادري والله .

قال السائب فركبت معه حتى قدمت المدينة . فلما رآني أمير المؤمنين قال :

— مالي ولابن ام السائب ؟ بل ما لابن ام السائب ومالي ؟

قلت : وما ذاك يا امير المؤمنين ؟

قال : ويحك ، والله ما هو ان نمت في تلك الليلة التي خرجتَ فيها ، فباتت ملائكة ربي تسحبني الى ذينك السفطين يشتعلان ناراً يقولون : لنكوينك بهما ؟ فأقول : اني سأقسمها بين المسلمين . فخذهما عني لا ابا لك ، والحق بهما وبعهما ليكون ثمنهما في اعطيات المسلمين وارزاقهم .

قال السائب : فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة . وغشيني التجار ، فابتاعهما عمرو بن حريث المخزومي بألفي الف (اي بمليونين من الدراهم) ، ثم خرج بهما الى ارض العجم فباعهما بأربعة آلاف الف ، فما زال عمرو بن حريث اكثر اهل الكوفة مالاً بعد ...

رحم الله عمر بن الخطاب . ورحم الله النعمان بن مقرّن ، ورحم الله مجاهدي نهاوند ، ورحم الله طليحة بن خويلد ... انها الأخلاق ، وهي البحر الأعظم من الدين ، والعقيدة هي الساحل المحيط بالبحر الأعظم . والعقيدة بلا اخلاق ساحل لبحر لا ماء فيه : فلا هو بحر ينفع ، ولا هو بر يعمر ويزرع . فارجعوا ايها المسلمون الى الاخلاق ليرجع اليكم دينكم ، فترجع اليكم ثمراته في سلمكم وحربكم ، وفي دنياكم وآخرتكم : والدين بلا اخلاق ليس بدين ....

القائد الفاتح الأحنف بن قيس

سيّدُ بني تميم وحَكيمها

بنو تميم

هم رهط عظيم من العرب النزاريين ، ينتسبون الى تميم بن مرّ بن أدّ بن طابخة ابن الياس ، وجدهم طابخة بن الياس أخو مدركة بن الياس بن مضر جد قريش الذين منهم الهادي الأعظم صلوات الله وسلامه عليه . وكان بنو تميم الذين تألق نجم (الأحنف بن قيس) في آفاقهم ينتسبون عند ظهور الإسلام الى شعبين عظيمين : بني عمرو بن تميم ، وبني سعد بن زيد مناة بن تميم . وفي كل منهما قبائل لها مفاخر وذكريات شريفة تتغنى بها الأجيال الى اليوم . وفي كل قبيلة من قبائلها نوابغ وشعراء وفرسان وخطباء وحكماء كان منهم ومن أنسالهم في الجاهلية والإسلام خير عظيم للإنسانية ، وثروة ضخمة للأدب العربي ، ونتاج دسم من نتاج العقول ، وآثار باهرة من آثار الأخلاق والفضائل .

ان من لا يعرف التاريخ يظن بتاريخ العرب قبل الإسلام انه مقفر عقيم ، وانا اعتقد انه اخصب تواريخ الامم واثمنها. وبعضهم يزعم انه مجهول ومضطرب. وانا مؤمن بأنه لو كان تاريخَ امة كالألمان – مثلاً – لشيدوا منه افخم تاريخ في ماضي الإنسانية. وان تميماً هذه وحدها لو اراد المؤرخ المتثبت الصبور البصير ان يدوّن مفاخرها ، وينظم مآثر رجالها ويحلل ادب شعرائها . ويستنطق بطولة ابطالها لما كان يكفيه عشرة مجلدات ضخام ، فكيف بالأزد ، فكيف بهَمْدان ، فكيف بقُضاعة ، فضلاً عن قريش ورَبيعة وسائر بطون عدنان وقحطان . ان الإنسانية لا تعرف أمة أثرى وانبل واوغل في مُثلها العليا قولا وعملاً من أمة العرب في الجاهلية . اما الإسلام واهله فقد حملا الى الإنسانية ما تتلمظ شوقاً اليه ولهفة من آمال في السعادة لو تعاون الجميع على بعثه وتحقيقه . ولكن اهل الباطل والشر حسدوا اهل الحق والخير على ان يكون ميلاد السعادة على ايديهم وتحت سمائهم وبين اطناب بيوتهم ، فوقفوا في طريق التاريخ ومنعوه

من ان يمتد ويتمادى بعد البطون الثلاثة الأولى في الإسلام التي قال فيها النبي ﷺ « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ، وبعد ان منعوا الإسلام من ان يستمر بتلك العظمة عقب البطون الثلاثة الأولى ، عمدوا الى تاريخ تلك البطون الثلاثة فشوّهوه عمداً ، ودسوا فيه ما ليس منه ، الا ان رجال الحديث ونقاد الرواة كانوا من ورائهم فدلوا من يريد الحق على مَواطنه ، فسهلت المهمة على امثالنا ممن يحاول التمحيص ، ويستلذ السهر في اخراج تاريخ العروبة والإسلام نظيفاً طاهراً كالعهد بالحوادث عند وقوعها .

الأحنف بن قيس وبيئته

و (الأحنف) لقب للرجل العظيم الذي سأبعث الأضواء على سيرته ، وقد لقب به لأنه لما ولد كان في رجله حَنَف اي اعوجاج . اما اسمه الحقيقي الذي سمته به امه فهو (صخر) وابوه قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزّال بن مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، فهو من الشعب الثاني في تميم وهو بنو سعد بن زيد مناة ، ولذلك كان يقال للأحنف (السعدي) كما كان يقال له (التميمي) .

وكان ابوه قيس من بيت متوسط الحال في بني سعد بن زيد منـاة ليس من سادتهم ولا من وضعائهم ، وقد قُتل ابوه في الجاهلية – والأحنف طفل اورضيع – قتلته بنو مازن بن مالك بن عمرو بن تميم احدى قبائل الشعب الأول من شعبي تميم ، فنشأ في كنف عميه (المتشمس) و (صعصعة) . اما صعصعة فبقي الى خلافة معاوية وكان من سادات تميم في الإسلام ، واما المتشمس فبقي له ولدان كانا في ركاب الأحنف في جهاده وفتوحه كما سترى .

وام الأحنف حُبّي بنت عمرو بن قرط بن ثعلبة الباهلية اخت الاخطل بن عمرو بن قرط الذي افتخر به الأحنف يوم الجفرة فقال : « ومن له خال مثل خالي؟ » .

وكانت ولادة الأحنف في منازل قومه ، حول ماء يسمى (الغزَير) عند رملة الوركة غربي اليمامة ، حيث تنفجر الآن آبار البترول السعودي في الأحساء من سواحل نجد .

ومع ان الأحنف كان طفولته يتيماً ضئيل الجسم غير بهيّ الطلعة ، فإن امه كانت تتوسم فيه مخايل الذكاء ونضوج المدارك ، فتأسف لضؤولة جسمه ، واعوجاج رجله ، وتقول وهي ترقصه :

والله لولا حَنفٌ برجله   وقلة اخافهـا من نسله
ما كان في فتيانكم من مثله

ونشأ الأحنف نشأة امثاله من اهل المواهب والذكاء في اخبية العرب، فكان يتطلع الى عقلاء قومه وحلمائهم فيقتبس من فضلائهم . فهذا عمـه المتشمس كان مثلاً يتطبـع الأحنف بطبعه ، ويتحلم بحلمه ، ويرى فيه اسوة حسنة له في محاسنة الناس والإحسان اليهم . وهذا قيس بن عاصم يقول فيه الأحنف : « كنا نختلف اليه نتعلم منه الحلم ، كما نختلف الى العلماء نتعلم منهم العلم » . وهذا اكثم بن صيفي احد حكماء تميم وعظمائها المعاصرين للأحنف نتعلم نحن الآن من حكمته بعد اربعة عشر قرناً ، فكيف بالاحنف المعاصر له !

في هذه البيئة نشأ الاحنف في الجاهلية ، وهو لا يعلم ما ينتظره امامه من عظائم التاريخ التي ستكون له في جهاده ليفتح الاقطار ، ويحمل اليهـا بلاغة العروبة واخلاقها ، وهداية الإسلام وسعادته .

استجابته للدعوة الاسلامية

ولما ظهرت الدعوة الإسلامية ، وارسل رسول الله ﷺ دعاتـه ورسله الى القبائل ، حضر الى منازل بني سعد بن زيد مناة تميم في الأحساء (اليمامة) رسول من بني سُليم دعاهم الى الإسلام ، وكان الاحنف يصغي الى اقوال هـذا الرسول بفطرته السليمة ، فأثنى على ما سمعه منه وقال له :«والله انك لتدعونا الى خير، وتأمر به » . وقد جاء في مسند الإمام احمد(٥ : ٣٧٢)من حديث الحسن البصري ان كلمة الاحنف نقلت يومئذ للنبي ﷺ فقال « اللهم اغفر للأحنف » .فكان الاحنف يقول عن هذه الدعوة النبوية « ما انا لشيء ارجى مني لها » .

وروى الحافظ ابن عساكر ان الاحنف لما وفد على عمر بفتح(تستر) شهد له احد المهاجرين الذين كانوا في وفد رسول الله ﷺ الى قوم الاحنف بان الاحنف كف عن اصحاب رسول الله ﷺ من همّ بهم من سفهاء قومه .

وكان من اثر الفطرة السليمة الطاهرة التي فطر الله العرب عليها، والإدراك الناضج الذي اتصف به امثال الاحنف بن قيس من بني سعد بن زيد مناة ، ان قرر رهط الاحنف – بنو مرة بن عبيد – ارسال صدقات اموالهم الى النبي ﷺ لتستعمل في الجهاد ، وليكون اصحابها اعضاء في الكيان الاسلامي. واختاروا

لإيصال هذه الصدقات الى النبي ﷺ عكراش بن ذؤيب . فاصبح الاحنف من ذلك اليوم ممهل من الساعة التي اثنى فيها على دعوة الإسلام بانها « دعوة الخير » معدوداً من المؤمنين بالإسلام، الا انه لم يكن من نصيبه السفر الى الحجاز و لقاء النبي ﷺ وان كان في الحقيقة من الطبقة الاولى في (النابغين) رضوان الله عليهم جميعاً.

في خلافة أبي بكر

وكان الاحنف في خلافة ابي بكر من عامة الشباب في بني تميم . ولم يكن له من السن ولا من التقدم في السيادة ما يجعله صاحب ذكر مشهور في الناس ، فلم نعلم عنه في السنوات الاولى بعد وفاة النبي ﷺ الا انه ذهب مع عمه (المتشمس) ليشاهد مسيلمة متنبىء بني حنيفة ، فلما انصرفا عنه كان حديث الاحنف مع عمه في كذب هذا المتنبىء، ومازحه عمه فقال له: الا تخشى ان اخبره بتكذيبك اياه ؟ فقال له : احالفك عنده ، فهل تحلف انك لم تكذّبه كما كذبته : وهكذا كان باطل مسيلمة موضع فكاهة هذين الحكيمين الحليمين .

في خلافة عمر

وكانت خلافة أبي بكر قصيرة الامد . وبانقضاء حروب الردة كانت بنو مرة بن عبيد رهط الاحنف ، بل اكثر بني سعد بن زيد مناة ، بل معظم حملة السلاح من بني تميم ، يرحلون من منازلهم في الاحساء ونجد الى نواحي البصرة والكوفة ليشاركوا في جهاد فارس وفتوحها . وكان فتاهم الاحنف قد اخذ يتألق نجمه ، وتتفتح مداركه ، ويظهر لقومه نبوغه وكانوا جميعاً منهمكين في حروبهم مع الهرمزان حتى فتح الله لهم سوق الاهواز ، ومناذر ، وانتصروا تلك الانتصارات الباهرة على ضفاف نهر تيرى ، فتقدمت بالاحنف مواهبه الى مراكز القيادة وصار يعد من رؤوس بني سعد بن زيد مناة بن تميم وذوي الرأي والصلاح من رجالهم .

وفوده على عمر

وفد الاحنف على عمر مرات ، فوفد عليه مرة في إمارة عتبة بن غزوان على العراق، ومرة في إمارة ابي موسى الاشعري، ومرة عند تسليم الهرمزان وتظاهره بالاسلام. واخبار الاحنف في وفوده على عمر المرة بعد المرة تداخل بعضها في بعض، وقد حفظ الرواة ما وقع له فيها ، غير انهم يختلفون في تعيين اوقات الوقائع .

وفي الامكان تميز ذلك وتنظيمه لمن يتسع لذلك وقته .

فمن ذلك ان عمر كتب الى عتبة بن غزوان ان يوفد عشرة من صلحاء جند البصرة ليستطلع منهم خبر جيوشه ، فاوفد اليه اثنين من الصحابة المهاجرين : سلمى بن القين وحرملة بن مريطة ، واثنين من بني العدوية من بني حنظلة : غالبا الوائلي وكليب وائل الكلبي ، وكان الاحنف بن قيس التميمي في هذا الوفد. فلما مثلوا بين يديه ، وسألهم عن حوائجهم وحوائج عامة الجيش قالوا : اما العامة فأنت صاحبها ، ولم يبق الا خواص انفسنا ، فطلبوا لانفسهم . وكان الاحنف في آخر القوم — لانه احدثهم سناً — فلما سأله عمر حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال :

« اما بعد يا امير المؤمنين فإن اهل مصر (اي الجند الذي ذهب لفتح مصر) نزلوا منازل فرعون وأصحابه ، وان اهل الشام (يعني المجاهدين الذين ذهبوا لفتحها) نزلوا منازل قيصر ، وان اهل فارس (يعني بني تميم وغيرهم ممن كانوا في الكوفة) نزلوا منازل كسرى ومصانعه في الأنهار العذبة ، والجنان المخصبة ، وفي مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب ، والجنان الخصب ، فتأتيهم ثمارهم ولم تخضد . وان اهل البصرة (يعني قومه من بني تميم الذين يحاربون الهرمزان في الأهواز) نزلوا في ارض سبخة هشاشة ، زعقة نشاشة ، لا يجفُّ ترابها ، ولا ينبت مرعاها . طرفها في بحر اجاج ، والطرف الآخر في الفلاة . لا يأتينا شيء الا مثل مرى النعامة . فارفع خسيستنا ، وأنعش ركيستنا . وزد عيالنا عيالاً ، وفي رجالنا رجالاً . وضع درهماً ، وأكثر قفيزنا ، ومر لنا بنهر نستعذب منه الماء » .

فقال عمر لبقية الوفد : « هل تحريتم أن تكونوا مثل هذا ؟ هذا والله السيد » . وعرض عليه الجائزة ، فقال الأحنف :

— يا امير المؤمنين ، والله ما قطعنا الفلوات ، ودأبنا الروحات والعشيات للجوائز ، وما حاجتي الا حاجة من خلّفت .

فزاده ذلك عند عمر تقدماً . وقال فيه . « هذا الغلام سيد اهل البصرة » . وتوسم فيه انه سيكون له شأن ، فاستبقاه عنده في المدينة سنة ليكون على اتصال بشيوخ الصحابة الواقفين على سنن الاسلام واغراض رسالته . ثم ليزداد عمر

اختباراً له واطمئناناً لما سيتولاه من الأمر .

ولما انصرف الوفد الى رحالهم ، نظر في ثيابهم فوجد ثوباً قد خرج طرفه من عيبة ، فشمه ، ثم سأل :

– لمن هذا الثوب منكم ؟

قال الأحنف : – لي !

فسأله عمر : بكم اخذته ؟

وكان الأحنف قد اشترى من العراق ثوبين ، احدهما بستة عشر درهماً لبسه في الطريق ، والآخر – الذي استنكره عمر – باثني عشر درهماً أبقاه جديداً ليلبسه في المدينة . فلما استنكره عمر – لأن من البذخ والترف ان يلبس قائد عظيم من قواد جيشه ثوباً باثني عشر درهماً – ادرك الأحنف بذكائه وجه استنكار عمر ، واجابه بأنه اشتراه بثمانية دراهم (وقال الأحنف : ولم اكذب غير هذه في حياتي) . فقال له عمر :

– فهلا بدون هذا . ووضعتَ فضلته موضعاً تغني به مسلماً : حُصوا ، وضعوا الفضول مواضعها تريحوا انفسكم واموالكم : ولا تسرفوا فتخسروا انفسكم واموالكم . ان نظر امرؤ لنفسه وقدم لها يخلفْ له .

ولاحظ عمر ان بعض بلاد الفرس التي كانت فتحت تكرر منها الانتقاض والانضمام الى الهرمزان في بغيه وحربه . فسأل الاحنف :

– هل ظُلمت الذمة ؟ ولمظلمة نفروا . ام لغير ذلك ؟

فقال الأحنف : لا بل لغير مظلمة . والناس على ما تحب .

قال عمر : – فنعم إذن .

وكتب الى عتبة بن غزوان والي العراق : اعزب الناس عن الظلم . واتقوا : واحذروا ان يدال عليكم لغدر يكون منكم او بغي . فإنكم انما ادركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه . وقد تقدم اليكم فيما أُخذ عليكم . فاوفوا بعهد الله وقوموا على امره ، يكن لكم عوناً وناصراً .

الهرمزان بالمدينة

وكتب الله النصر لجند البصرة وجند الكوفة على الهرمزان . وكان القائد

العربي العام على الجيشين أبو سبرة بن أبي رهم . وكان للأحنف مواقف حربية عظيمة في هذا النصر . ولا سيما في قتال (شهرك) الذي سجل فيه التاريخ لنابتة البصرة الشرف الأعظم . وأنها أفضل نوابت الأمصار: وكانت بقيادة الأحنف : فأوفد أبو سبرة وفداً إلى عمر سنة ١٧ فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس : وأرسل الهرمزان معهم، فقدموا البصرة مع أبي موسى الأشعري ثم خرجوا نحو المدينة : حتى إذا دخلوا هيأوا الهرمزان في هيئته الرسمية عندما يلبس كسوته من الديباج الذى فيه الذهب. ووضعوا على رأسه تاجه (الآذين) المكلل بالياقوت كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته . وقصدوا عمر في منزله بالمدينة فلم يجدوه وقالوا لهم : في المسجد . فانطلقوا اليه في المسجد فلم يروه . ثم دلهم عليه غلمان من أهل المدينة وقالوا لهم :

– إن أمير المؤمنين نائم في ميمنة المسجد !

وقصة الهرمزان مشهورة حين رأى أمير المؤمنين نائماً والدرة معلقة بيده وليس له حارس ولا حاجب . فقال الهرمزان :

– ينبغي له أن يكون نبياً !

فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء ...

ثم استيقظ عمر . فوقع نظره على الهرمزان بهذه الملابس . فقال:

– أعوذ بالله من النار . وأستعين الله .

والقصة مشهورة بتفاصيلها . وكان للأحنف شرف هذه الوفادة على عمر لما اكتسب من المكانة في جهاده وقيادته الحكيمة وزعامته في تميم ومضر .

الأحنف يغير مجرى التاريخ

وكان عمر متمسكاً برأيه في الاقتصار على ما فتح من فارس ، وأن يمنع جيوشه من التوغل في المشرق ، ولا سيما بعد أن انكسر الهرمزان وفتح المسلمون الأهواز ، فقال عمر « حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز . وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار ، لا يصلون الينا ولا نصل اليهم » وقال لأهل الكوفة : « وددت أن بينهم وبين الجبل جبلاً من نار ، لا يصلون الينا ولا نصل اليهم » .

وفاوض عمر الوفد في هذا الأمر ، فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين ، إخبرك . إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد ، وأمرتنا

بالاقتصار على ما في أيدينا . وإن ملك فارس حيٌ بين أظهرهم ، وإنهم لايزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم . ولم يجتمع ملكان فاتفقا (أي التقيا) حتى يخرج أحدهما صاحبه . وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً إلا بانبعاثهم ، وإن ملكهم هو الذي يبعثهم . ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى تزيله عن فارس ، ونخرجه من مملكته وعز أُمته . فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويُضربوا جأشاً » .

فقال عمر للأحنف : صدقتني والله ، وشرحت لي الأمر عن حقه .

وأذن عمر بالانسياح سنة ١٧ في بلاد فارس ، وانتهى في ذلك إلى رأي الأحنف ، وعرف فضله وصدقه . فساحوا في سنة ١٨ ، ودفع لواء خراسان إلى الأحنف ، ووزع بقية الألوية إلى الأبطال من قادة المجاهدين ، ورسم لهم خطة الحرب والتقدم ، ثم جعل يمدهم بالجيوش من ورائهم .

رؤيا يزدجرد

والملك الذي قال الاحنف لأمير المؤمنين عمر إنه يكيد لدعوة الاسلام من وراء الفتوح فلا بد من القضاء عليه للخلاص من هذا الكيد، هو يزدجرد بن شهريار بن كسرى ، وكان قد انسحب متجهاً إلى الريّ (وهي طهران الآن) ، وبينما كان على محمله يسير بقومه إلى الريّ وهو نائم ، وصلوا الى مخاضة لا بد من اجتيازها ، وخافوا اذا نزل بعير محمل يزدجرد في المخاضة أن ينزعج ، فأيقظوه من النوم ، فلما استيقظ عنّفهم وقال لهم : كنت أرى رؤيا قطعتم عليّ آخرها وشاعت هذه الرؤيا الغريبة في ايران ، وبلغ خبرها العرب ، فقد رأى يزدجرد انه ومحمد ﷺ واقفان بين يدي الله والنبي ﷺ يناجي ربه في أمته ، فيقول الله عز وجل : أملّكهم مائة سنة . فيقول النبي ﷺ : زدني يا رب. فيقول عشراً ومائة سنة . فيقول : زدني يا رب. فيقول عشرين ومائة سنة. وفيما كان النبي ﷺ يقول « زدني يا رب » أيقظ الإيرانيون يزدجرد فعنفهم لانه كان يريد ان يعلم مدة هذه الامة التي قلبت العروش وفتح الله لها ولدعوتها أمنع البلاد وأقواها .

نار المجوسية في خراسان

ومضى يزدجرد في طريقه وهو يحمل نار المجوسية معه ، حتى أتى خراسان

فاختار منها لنار المجوسية مدينة (مرو الشاهجان)،وبنى لهافيها (بيت النار)، واطمأن من أن يؤتى ، وأخذ يكاتب المقاطعات الإيرانية التي لم تصل اليها خيل العرب محاولاً تنظيم قواتهاوترتيب أسباب الدفاع عنها،وجمع كلمة الاقوياء من رجالها.

وكان العرب قبل ذلك في تردد من أمر الجهاد ، لموقف عمر من أمر المشرق، ورغبته في الاكتفاء بما فتح الله له،فلما أقنعه الاحنف بالانسياح لمطاردة يزدجرد، وكان الرأي ما رآه الاحنف ، لان يزدجرد ونار المجوسية كانا يعملان على جمع شمل الباطل لمقاومة الحق حتى لو كف الحق عن الباطل . فلما اختار الله لعمر أن يواصل الزحف ، كانت تميم تحت ألوية الاحنف . وغيرها من قبائل العرب تحت ألوية قادتهم ، متأهبين جميعاً لإعلاء كلمة الله .

الأحنف يحطم المجوسية بخراسان

وخرج الاحنف الى خراسان ، فأخذ على مهرجان قـذق ودخل خراسان من الطَبسين فافتتح (هراة) عنوة واستخلف عليها صُحاراً العبدي ، وتقـدم الى (مرو الشاهجان) ليطفىء نار المجوسية ويلقي يزدجرد في معقـله . وعند اتجاهه الى مرو أرسل مطرف بن عبد الله بن الشخير بجيش الى نيسابور،والحارث ابن حسان بجيش الى سرخس ، بينما كانت جيوش الكوفة تحاصر (جيّ) . ولما نزل الاحنف (مرو الشاهجان) انسحب منها يزدجرد الى (مرو الروذ) وكتب من هناك الى خاقان ملك الترك وغوزك ملك الصغد يستمدهما ، والى ملك الصين يستعينه . فلـما علم الاحنف بانسحاب يزدجرد الى مرد الروذ جعل حصار مرو الشاهجان الى حارثة بن النعمان الباهلي وهو من اخواله ، وضم الى من اختارهم من جيشه أربعة ألوية من جيوش الكوفـــة وخرج بهم نحو مرو الروذ ليلقي يزدجرد ، فلما دنا منها هرب هذا الجبان الدساس قاصداً (بَلْـخ) فنزل الاحنف على مرو الروذ أيام لينظم حصارها ، وأرسل وراء يزدجرد الى بلـــخ الالوية الاربعة من جيش الكوفة ، ثم لحق هو أيضاً بهم بعـد تنظيم حصار مرو الروذ ليدركهم في بلخ ، فوجدهم سبقوه الى لقاء يزدجرد، وهزم الله قواته ، وهرب يزدجرد بمن معه من الفرس الى النهر – آخر حدود خراسان – فكان فتح بلخ من فتوح أهل الكوفة ، أما بقية بلاد خراسان فكلها من فتوح الاحنف بجيوش البصرة وأكثرهم من تميم ولا سيما رجال سعد بن زيد مناة رهط الاحنف .

وكتب الاحنف بفتح خراسان الى عمر ، فعاد عمر الى الندم على ما فعل ، وقال « وددت أني لم أكن بعثت اليها جنداً ، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار » (الطبري ٤ : ٢٦٤) . وكتب في جوابه الى الاحنف « أما بعد فلا تجوزنّ النهر ، واقتصر على ما دونه . وقد عرفتم بأي شيء دخلتم خراسان (يريد التقوى والإخلاص لله) فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدم لكم النصر . واياكم أن تتغيروا فتنفضّوا ».

ترى هل كان عمر يقول ذلك لان الله أراه مثل الرؤيا التي رآها يزدجرد وهو يجوز المخاضة الى مكان طهران ؟ أم أنه يطيل التفكير في الاحاديث النبوية عن المشرق ؟ وعلى كل حال فإنه كان متشائماً من هذه الفتوح في كل اطوارها .

أما مكانة الاحنف فكانت هي مكانته ، وقد قال عمر لما أتم الله على يد الاحنف هذا الفتح الاعظم « إنه الاحنف ، وهو سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه » .

اتحاد الترك والفرس على قمع الاسلام

واستجاب ملكا الترك والصغد لاستمداد يزدجرد فأعدّا له الجيوش من الترك والتتار ، فلما انهزم إلى أرضهم فيما وراء النهر كانت الامداد قادمة عليه ، فانتعش بذلك وأعاد تنظيم رجاله ، وارتد الى خراسان بقوة همجية جمعت الى ظلمات الكفر الشراسة وروح الفتك والطغيان . وكان الترك من أيام الاكاسرة ممنوعين دخول أرض فارس (ولابن مسكويه في كتابه «تجارب الامم» بيان مستفيض عن ذلك وعن أسبابه) ، فلما أُبيح للترك دخول أرض فارس لقتال العرب دخلوها بشراسة وهمجية فظيعة . وكان عددهم أضعاف أضعاف المجاهدين من المسلمين . فلم يكن للأحنف بد من لقاء الملوك الثلاثة : يزدجرد ، وخاقان ، وغوزك ، رغم قلة من معه من أبطال الحرب : وكان الاحنف قد اختبر قبل ذلك حرب الفرس وعرف كيف يذل كبرياءهم ، الا انه وجيوشه يجهلون -الى ذلك الوقت - أساليب الترك في الحرب ، فرأى أن يختبر ذلك بنفسه على رأس طليعة من أصحابه ، فطاف في الليل حول معسكر خاقان ، فلما انبلج الفجر خرج فارس منهم بطوقه وضرب بطبله ، فخرج له الاحنف واختلفا طعنتين ، فطعنه الاحنف وهو يقول :

إن على كل رئيس حقاً　　　أن يخضب الصعدة أو تندقا

إن لنـا شيخـاً بها ملقى سيف أبي حفص الذي تبقى

وبعد قليل خرج له فارس آخر من الترك فطعنه الاحنف وهو يرتجز :

إن الرئيس يرتبي ويطلعُ ويمنع الُخلاءَ إما أربعوا

ثم خرج له ثالث فطعنه الاحنف وهو يقول :

جَرْيَ الشموس ناجزاً بناجزْ محتفـلاً في جريـه مشارز

وانصرف الاحنف الى معسكره ولا يعلم احد بما فعـل . وكان من عادة الترك أن لا يخرجوا للقتال حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم على نحو ما وقع . فلما خرجوا بعد الثلاثة فرأوهم صرعى ، تشاءم خاقان ، وتذكر ما كان يسمعه عن انتصارات العرب وأنهم لا يُغلبون ، فانصرف الى بلخ وتبعـه الصغـد . ومنع الاحنف جيوشه من اتباعهم . ووقع الخلاف بين يزدجرد وقومه : هو يريـد اللحاق بخاقان ومعه الاموال ، وهم يريدون التفاهم مع العرب . فمضى يزدجرد الى فرغانة والترك فأقام عندهم مدة خلافة أمير المؤمنين عمر . وبقيت الاموال مع الذين ارادوا مصالحة العرب ، فكان للإسلام من ذلك خير عظيم ، وكان للفرس من عدل العرب ما لم يسبق له نظير في التاريخ .

الانتقاض

ولما وصلت الاخبار الى خراسان بمؤامرة الهرمزان في المدينة واغتيال امير المؤمنين عمر بن الخطاب انتقضوا وكفر من اسلم منهم ، وكانت البلاد في سلم ، والجيوش تجاهد في آفاق اخرى ، فاحتاجت ايران الى فتح جديـد . وعاد الاحنف في مدة امير المؤمنين عثمان الى استئناف بطولته ، الا انه في هذه المرة كان على علم بمسالك خراسان ومواطن القوة والضعف منها ومن اهلها ، فكان عظيماً في كل ما دوّنه التاريخ من حوادث جهاده .

الفتح الثاني لخراسان

وكان هذا الفتح الثاني وولاية العراق لعبد الله بن عامر بن كريز الاموي ، وكان شاباً في الخامسة والعشرين من عمره [1]. فلما تقرر استئناف فتح خراسان قسمت البلاد الى ست جبهات حربية كان الاحنف قائد جبهة منها وفيها قلب

---

(١) انظر التعريف به تعليقنا على (المنتقى من منهاج الاعتدال) ص ٢٧٨ .

هذه البلاد (مرو الشاهجان) و (مرو الروذ) وكان ذلك في سنة ٣٠ للهجرة. وعرف الأحنف كيف يرغم (مرو الروذ) على الخضوع له بأسرع مما أخضعها في المرة الأولى سنة ١٨ فكتبوا له يطلبون الصلح ، وإن كتابهم ووثيقة الصلح التي كتبها لهم الأحنف أوردها الطبري في تاريخه (٥ : ٨١ - ٨٢) مروية عن التابعي الجليل ابن سيرين ، زميل الحسن البصري . ولاحظنا في أسماء الشهود أسماء مجاهدين من بني تميم بقسميهم (بني عمرو وبني سعد) مما دل على أن الأحنف كان يومئذ سيد الشعبين جميعاً . ودلت الوثيقة أيضاً على أن من أصفياء الأحنف الذين ارتضاهم للتوقيع على شهادة الصلح اثنين من قبيلة مازن بن مالك بن عمرو بن تميم التي قتلت أباه وجعلته يتيماً ، وهما حميد بن الخيار المازني وحمرة بن الهرماس المازني. فالإسلام صفـّى قلوب الجميع وجعلهم أصفياء في الله . ولاحظنا في هذه الوثيقه أيضاً أن ختم الأحنف كان منقوشاً عليه (نعبد الله) .

موقف عسكري حرج

وكان الأحنف في هذا الفتح الثاني على رأس قوة خفيفة في طخارستان لا تزيد على أربعة آلاف مجاهد ، فأقبل حتى نزل في موضع سمي فيما بعد باسم (قصر الأحنف) ، فوجدوا أن أهل طخارستان والجوزجان والطالقان والفارياب أعدوا له بعد استرداده (مرو الروذ) ثلاثة زحوف في ثلاثين الفاً . فماذا يصنع ثلاثة آلاف عربي أمام هذه الزحوف ؟ صلى الأحنف العشاء الآخرة ودعا إلى خيمته أهل الرأي من قادة هذا الجند القليل واستشارهم ، فأشار بعضهم بالانسحاب إلى مرو الروذ ، وخشي بعضهم أن يستضعفهم أهل مرو الروذ فينقضوا الصلح فأشار بالانسحاب إلى (آبر شهر) . واستنكر بعض أهل الرأي فكرة الانسحاب وأشاروا بالثبات والاستمداد بسرعة من المعسكر العربي العام ، وأيد الآخرون هذا الرأي وزادوا عليه أنه إذا أبطأ عليهم المدد يناجزون العدو مستميتين حتى ينال الشهادة آخرُ من يبقى منهم .

وصرف الأحنف مستشاريه إلى خيامهمليناموا ، وقام يصلي ويدعو الله ، ثم أخذ سيفه ، وقام يمشي في أنحاء معسكره ، فرأى خيمة فيها نور ونار ورجلاً يقول لأصحابه وهو يوقد النار تحت طعام لهم : الرأي للأمير أن يسير - إذا أصبح - حتى يلقى العدو فيناجزهم فإنه أرعب لهم . وآخر يقول : إن فعل

الأمير فقد أخطأ ، أتأمرونه أن يلقى العدوّ مصحراً في بلادهم بعدد قليل لعدد كثير فإن جال جولته اصطلمونا ؟ لكن الرأي له أن ينزل بين قرية المرغاب والجبل : فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره فلا يبقى مجال لعدوه - وإن كثروا - إلا أن يلقوه بعدد أصحابه ، لأن خط القتال لا يتسع لأكثر من ذلك . وفي الصباح المبكر كان الجيش العربي يحتل ذلك الموقع بين المرغاب والجبل . وقبل أن يبدأ القتال وصل اليه رسول من أهل مرو الروذ يذكرون أنهم مستعدون للنجدة وفاء بما شرطوا على أنفسهم في عهد الصلح ، فقال لهم : إني أكره أن أستنصر بغير جنودي ، فأقيموا على ما أعطيناكم فإن ظفرنا فنحن على ما جعلنا لكم ، وإن ظفروا بنا وقاتلوكم على وفائكم لنا فقاتلوا عن أنفسكم .

ونشبت المعركة في النصف الثاني من النهار ، وصبر الفريقان حتى أمسوا ، والأحنف يقاتل وهو يتمثل بشعر أبو جؤية الأعرجي :

أحقّ من لم يكرهِ المنيهْ ... حزوّر ليست له ذرّيه

واستمر القتال ليلاً حتى ذهب عامة الليل ، ثم هزم الله هذه الجموع، وأعمل بنو تميم فيهم سيوفهم حتى انتهوا من مطاردتهم إلى (رسكن) وهي على بعد ١٢ فرسخاً من قصر الأحنف . ويروي الأديب الكبير المفضل الضبي عن أبيه أن الأحنف بعث الأقرع بن حابس في جريدة خيل إلى الزحوف فأظفره الله بهم : وفي ذلك يقول النهشلي :

سقى مُزْنُ السحاب إذا استهلت ... مَصارعَ فتية بالجوزجان
إلى القصرين من رستاق خِوط ... أقادهمُ هناك الأقرعان

يحتقرون الذهب

وبعد أن استتب الأمر للأحنف في (مرو الروذ) واصل زحفه إلى (بَلخ) وافتتحها صلحاً على أربعمائة درهم في السنة ، فندب الأحنف ابن عمه أسيد بن المتشمس لقبض المال بعد جمعه ، وتقدم يتحسس لجهاده ميادين اخرى . وانتظر ابن عمه في بلخ ، فحل عيد المهرجان (عيد النار) وهو هناك ، فبعد أن تسلم منهم الجزية الرسمية المتفق عليها ، جاءوه بهدايا شخصية - من آنية الذهب والفضة ، وبدنانير ودراهم ، ومتاع وثياب - فسألهم اسيد :

- وهل هذا مما صالحناكم عليه ؟

قالوا : لا . ولكنه شيء نقدمه - في مثل هذا اليوم من كل عام - لمن يتولى امرنا نستعطفه به .

فأجابهم : إني اكره ان اردّه ، ولعله من حقي. ولكني اعزله حتى انظر...

وقبضه ، وقدم على الأحنف فأخبره بما وقع ، فسأل الأحنف اعيان البلاد عن ذلك فقالوا : هي هدية اعتدنا تقديمها لمن يلي امورنا في هذا اليوم من كل عام.

فتوقف الاحنف عن اخذها ، وحملها إلى القائد العام عبد الله بن عامر بن كريز ،

فقال ابن عامر : - اقبضها يا ابا بحر ، فهي لك .

قال الاحنف : لا حاجة لي بها .

فرأى ابن عامر ان الهدية لا ترد ، وامر احد رجاله بأن يضمها إلى الأموال الرسمية ، وجعل شكره على هذا الفتح ان يخرج محرماً من نيسابور الى مكة ، فلامه امير المؤمنين عثمان على ذلك ، وقال له : كان ينبغي لك ان تحرم من الميقات الذي يحرم منه الناس .

الانتقاض الثاني لخراسان واستردادها

وفي السنة التالية (٣٣ هـ) تلقى عبد الله بن عامر بن كريز خبر انتقاض خراسان مرة اخرى، فرمى بها الاحنف بن قيس للمرة الثالثة ، فقاتلهم قتالاً شديداً اضطروا بعده للاستسلام . وفتح الله له مرو الشاهجان ومرو الروذ الفتح الثالث .

في خلافة امير المؤمنين علي

وكان الاحنف في الحج عند وقوع الشهادة لامير المؤمنين عثمان سنة ٣٥، فبايع للخليفة الراشد الرابع امير المؤمنين علي، الا انه رأى ان قتال ام المؤمنين وحواري رسول الله ﷺ امر شديد، وان قتال ابن عم رسول الله ﷺ شديد ايضاً، فاعتزل بالجلحاء على فرسخين من البصرة . واعتزل معه ستة آلاف من تميم . وفي صفين كان مع امير المؤمنين علي ، فلما صفا الامر لمعاوية كان الاحنف مع الجماعة .

حياته السلمية

للأحنف سيرة في سلمه انبل واعظم من سيرته في حربه . وفيها من الوقائع - التي تدل على حكمته ، وعلى صلاحه، وعلى انه كان ركناً في الامة - ما لا تتسع لبيانه صفحات كثيرة من هذا الكتاب. ولعلي اعود للكلام عليه في فرصة اخرى.

ولو اتسع المجال لعرض حياته السياسية بعد عرض حياته الحربية لكان حقاً

لي ان اقول : ان امثال الاحنف كانوا في دولتهم في مقام نواب الامة وشيوخها في زماننا ، وهم في ذلك المقام يسمون باصطلاحهم السياسي (اهل الحل والعقد) ، ولم يكونوا ينتخبون كما ننتخب الآن الشيوخ والنواب، ولا كان الذين يرفعونهم الى تلك المنزلة كالذين لهم في زماننا حق الاشتراك في انتخاب الشيوخ والنواب ،بل كان لاسلافنا طرق اخرى لبلوغ تلك المرتبة ، وعماد الكفاية لذلك عندهم (الاخلاق) ، والاخلاق لا ينبغ المتفردون بها - كالاحنف - اذا لم يكن لهم اساس من الاخلاق الشائعة والمحترمة في الجمهور، ولا يكون هذا الا بالرجوع الى الإسلام واساليبه الاجتماعية وكيانه الخلقي .

فهل في علمائنا من يتفرغ لدراسة هذه الامور الى جانب دراسة تاريخ العروبة والإسلام ، لنتمكن من بعث ذلك الماضي،فنسترد به وبأخلاقه مكانتنا في الارض؟

ان هذا ليسير جداً اذا نحن اردنا .

وفاة الأحنف

مات هذا الرجل العظيم في البصرة زمن ولاية مصعب بن الزبير سنة ٦٧ او ٦٩ ، فمشى امير البصرة في جنازته متقلداً سيفاً ، ليس عليه رداء ، وهو يقول : ذهب اليوم الحزم والرأي .

ولما دّلى في حفرته اقبلت بنت لأوس السعدي على راحلتها وهي عجوز كبيرة فقالت : من هذا الموافى به حفرته ؟ قيل لها : هذا الاحنف . قالت : ابو بحر؟ والله لئن كنتم سبقتمونا الى الاستمتاع به في حياته ، لا تسبقونا الى الثناء عليه بعد وفاته .

ثم قالت :

« لله درك - ابا بحر - من مِجنّ في جَنن ، ومُدرَج في كفن ، وإنا لله وإنا اليه راجعون . نسأل الله الذي ابتلانا بموتك ، وفجعنا بفقدك ، ان يوسع لك في قبرك ، وان يغفر لك يوم حشرك ، وان يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشاد دليلك » .

ثم نظرتْ الى الناس فقالت :

« ايها الناس ،

ان اولياء الله في بلاده ، هم شهوده على عباده . وإنا لقائلون حقاً، ومثنون صدقاً ، وهو اهل لحسن الثناء وطيبه . اما والذي كنتَ من اجله في عدّة ، ومن الحياة في مدة ، ومن المضمار الى غاية ، ومن الآثار الى نهاية ، الذي رفع َعلمك عند انقضاء اجلك ، لقد عشتَ مودوداً حميداً ، ولقد متّ سعيداً فقيداً. ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السلم ، رفيع العماد ، واري الزناد ، منيع الحريم ، سليم الأديم ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الباد . ولقد كنت في المحافل شريفاً ، وعلى الارامل عطوفاً ، ومن الناس قريباً ، وفيهم غريباً ، وان كنت فيهم مسوّداً ، والى الخلفاء لموفداً ، وكانوا لقولك مستمعين ، ولرأيك متبعين . رحمنا الله وإياك » .

فلما انتهت من خطبة التأبين المرتجلة قال مصعب بن الزبير : ما رأيت كاليوم امرأة قط افضح للرجال من هذه .

فتح الفتوح

قال القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله عنه يصف فتح نهاوند وكان من كبار المجاهدين فيه ، وكانوا يسمونه (فتح الفتوح) :

ونحن ُ حَبسنا في نهاوند خيلنا ... لستّ َليالٍ انتجت للأعاجمِ

َملأنا ِشعاباً من َنهاَوندَ منهم ُ ... ِرجالاًوخيلاً أُضرِ َمت ْبالضرائم

وراكضهنّ الفير ُزان ُ على الصفا ... فلم ُينجه ِ منا انفساح ُ المحارِمِ

هل أخطأ الاحنف ؟

لعلّ القارىء قد وقف – كما وقف كاتب هذه السطور – عند اختلاف أمير المؤمنين عمر وقائده الحصيف الأحنف بن قيس في وجهتي نظرهما إلى التوسع في الفتوح الإسلامية نحو المشرق ، والإيغال في بلاد إيران وما وراء إيران . فقد رأينا عمر متشائماً – في أول الأمر – من التقدم بالجيوش الإسلامية نحو المشرق. حتى لقد قال : « وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار ، لا يصلون الينا ولا نصل اليهم » ، إلى أن أقنعه الأحنف بأن المسلمين لا يتقـــدمون في إيران إلا بانبعاث أهلها ، وأنهم لا يتركوننا إذا نحن تركناهم ، فالتقـدُّم فيما وراء العراق إلى الشرق كان ضرورة لا مناص منها .

وأمير المؤمنين عمرُ لما جنح إلى التشاؤم من تقدُّم جيوش المسلمين نحو المشرق كان متأثراً بأحاديث يحفظها الصحابة عن النبي ﷺ في هذا المعنى ، منها حديث البخاري عن أُم حبيبة عن أختها زينب بنت جحش أم المؤمنين أن النبي ﷺ استيقظ من النوم محمرّاً وجهـهُ يقول : « لا إله إلا الله . ويلٌ للعرب ، من شرّ قد اقترب : فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه (وعقد سفيان بن عيينة – أحد رواة هذا الحديث – تسعين أو مائة) ... الحديث »[1] .

ومنها حديث مسلم من طريق فضيل بن غزوان : سمعت سالم بن عبدالله بن عمر ابن الخطاب يقول لأهل العراق : يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة ، وأركبكم

---

(١) انظر فتح الباري ١٣ : ٨٨ .

لكبيرة ! سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الفتنة تجيء من ها هنا (وأومأ بيده نحو المشرق) من حيث يطلع قرن الشيطان » .

وحديث البخاري عن عبد الله بن عوف عن نافع عن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال : ذكر النبي ﷺ « اللهم بارك لنا في شامنا ، اللهم بارك لنا في يمننا » . قالوا : يا رسول الله وفي نجدنا [1] ... قال « اللهم بارك لنا في يمننا » . قالوا : يا رسول الله وفي نجدنا فأظنه قال في الثالثة : « هناك الزلازل والفتن ، وبها يطلع قرن الشيطان » .

قال الحافظ ابن حجر : وقال الخطابي « نجد من جهة المشرق . ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها ، وهي مشرق أهل المدينة . وأصل (النجد) ما ارتفع من الأرض ، وهي خلاف (الغور) ، فإنه ما انخفض منها. وتهامة كلها من الغور ، ومكة من تهامة » انتهى .

ثم قال ابن حجر : وعرف بهذا وهاء ما قاله الداودي أن نجداً من ناحية العراق ، فإنه توهم أن نجداً موضع مخصوص ، وليس كذلك ، بل كل شيء ارتفع بالنسبة إلى ما يليه يسمى المرتفع نجداً والمنخفض غوراً » .

ونقل الحافظ ابن حجر قول من قال : كان أهل المشرق يومئذ أهل كفر ، فأخبر النبي ﷺ أن الفتنة تكون من تلك الناحية ، فكان كما أخبر . وأول الفتن كان من قبل المشرق ، فكان ذلك سبباً للفرقة بين المسلمين ، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به ، وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة .

وعندي أن حديث أم المؤمنين زينب أبعد دلالة من العراق ، ويشمل ما وراءها إلى أقطار بعيدة ، ما كان يحمل عمرَ على التشاؤم من الإيغال في تلك الآفاق ، وأحداث التاريخ حققت ذلك في مختلف العصور .

ومع ذلك فإن الأحنف كان على صواب فيما احتج به لعمر ، بل إن نشر الدعوة الإسلامية يجب أن يكون رسالة المسلمين في كل عصر ، وإذا كانت الفتن

---

(١) ظن الذين لا علم لهم أن المراد بنجد هنا بلاد نجد . وسترى بيان الحافظ ابن حجر والحافظ أبي سليمان الخطابي أن المراد بها الاراضي المرتفعة من مشرق المدينة الى العراق وماوراءها.

والعصبية للباطل وكل ما يحبه الشيطان ويفرح به هبت به رياح المشرق على قلب بلاد المسلمين حيناً من الدهر ، فإن الإسلام كان له أبناء ناصحون ، وأولياء صادقون ، في كل قطر بلغته دعوته وأذّن المؤذنون فيه بحيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح ، وإن الحق ما زال في صراع مع الباطل في كل زمان ومكان ، وعلى أولياء الحق أن يكافحوا أولياء الباطل إلى أن يخزى الشيطان ويبوء بما يستحقه من الفشل واليأس . وهذا ما كان يرجوه أمير المؤمنين عمر يوم استجاب لمشورة الأحنف ، وأقرّه على ما ارتآه .

ومن أعجب ما قرأته من دقيق الملاحظات في هذا الباب ، فقرة حكيمة كتبها راهب أوربي شاهد بنفسه العوامل التي أدت إلى انهيار الدولة الصفوية في إيران مدة إقامته في السفارة الفرنسية بالعاصمة أصفهان على عهد آخر الملوك الصفويين شاه حسين ، وكتب في ذلك كتاباً قيماً باللغة اللاتينية ترجمه الترك بلسانهم بعنوان (تاريخ أفغان) وطبع سنة ١٢٧٧ هـ في مطبعة جريدة خانه بالقسطنطينية . قال في ص ٨٤ — ٨٥ ما ترجمته :

« إن الممالك والمدائن والقرى الواقعة في المقاطعات الشرقية ، وأجناس البشر وقبائلهم وعشائرهم وسائر طوائفهم ممن يقيم في صحارى تلك المقاطعات ، فطروا — في جبلتهم وطبيعتهم — على الغدر بالأجناس الساكنة في غرب تلك المقاطعات ، وعلى ظلمهم ، والتعطش إلى سفك دمائهم . فإذا تمكنوا منهم جاروا عليهم بلا رحمة ، وبكل ما ينافي الفضيلة والمروءة . وحسبك دليلاً على ذلك ما فعله جنكيز عند استيلائه على بلاد ما وراء النهر ، وما صدر عن هولاكو عند تغلبه على الخلفاء العباسيين ، وما ارتكبه تيمور لنك عند اكتساحه إيران وغيرها ، فإن هؤلاء سفكوا في هذه الوقائع من دماء بني الإنسان ما لا يدخل في حساب ، وما لا يتناوله العد والحصر . والأمة الفارسية — بطبيعتها — جبلت على هذا النوع من الظلم والغدر والبغي » .

وقد سرد المؤرخ هذه الملاحظة لمناسبة ما ارتكبه الملا باشي — رئيس علماء إيران بالتواطؤ مع رجال قصر الشاه وأعيان المملكة — من تزوير ودناءة ، في حمل الشاه حسين الصفوي آخر ملوك الدولة الصفوية على الفتك بالوزير الأعظم اعتماد الدولة فتح علي خان وصهره لطف علي خان حتى سمل عيني الوزير الأعظم

وأورده وصهره موارد الهلكة بتهم مزوّرة ودنيئة ، لا لذنب إلا لأنه من أهل السنة ، وأنه يقف في طريق لصوصيتهم ، وثبت أنه أحكم وزراء إيران وأكثرهم إخلاصاً وأبعدهم نظراً وأوسعهم رأياً .

العرب في جاهليتهم وإسلامهم

لما بلغ عمرَ بن الخطاب موتُ سراقة بن عمرو قائده على المشرق واستخلافه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، أقرّ عبد الرحمن على فرج الباب (ويسمونه « الدربند » وهو معقل العجم على بحر الخزر) وأمره بغزو الترك . فخرج عبد الرحمن بجيوشه حتى قطع الباب ، فقال له شهر براز الذي كان ملكاً على تلك الجهة قبل فتحها : ما تريد أن تصنع ؟ قال . أريد بلنجر . قال : إنا لنرضى منهم أن يدَعونا من دون الباب . قال عبد الرحمن : لكننا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم ،وتالله إن معي لمجاهدين لو يأذن لنا اميرنا في التوغل لبلغت بهم الردم (اي سدّ الصين) قال شهر براز : ومن هم ؟ قال : اقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنية . كانوا اصحاب حياء وتكرّم في الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرّمهم في الاسلام ، ولا يزال هذا الأمر دائماً لهم ، ولا يزال النصر معهم ، حتى يغيرهم من يغلبهم ، وحتى يلفتوا عن حالهم .

لما فتحنا القوقاس

نحن المسلمين فتحنا بلاد القوقاس من ايام سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان القائدَ العام لجيوشنا في تلك الجبهة القائدُ المجاهد حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري (الذي كان يحارب تحت لوائه في بعض الحروب امثال عبد الله بن عباس رضي الله عنهم) وكانت زوجته (ام عبد الله بنت يزيد الكلبية) تشاركه في جهاده ، حتى إنه لما توجه اليه الموريان الرومي بثمانين الفاً من الروم[1] والترك، واراد حبيب بن مسلمة ان يُبيّته في سرادقه مدفوعاً الى ذلك بدافع التضحية الكاملة التي لم يحلم بمثلها ولا قادة اليابانيين ، شعرت زوجته بذلك ، فسألته :

– اين موعدك ؟

فأجابها : سرادق الموريان ، او الجنة !

فلما اقتحم معسكرَ الموريان بنفسه وبنخبة ابطاله وجعل يفتك بمن يعترض سبيله حتى بلغ سرادق القيادة العامة وجد امرأته ام عبد الله قد سبقته الى هذه المغامرة الحربية العجيبة التي كتب الله فيها للمسلمين النصر والظفر بما لم يسبق له نظير ، ولا عرف له التاريخ بعد ذلك مثيلاً بين جيشين في مثل هذا التفاوت في ضخامتها واستعدادهما المادي .

اما بعد توغله في القوقاس فقد حفظ لنا التاريخ من آثار جهاده وثيقة معاهدة بالصلح والأمان كتبها لأهل تفليس ، وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من حبيب بن مَسلمة لأهل تفليس من رستان منجليس من جُرزان الهرمز ، بالأمان على انفسهم وبِيَعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم ، على الصَّغار[2] ، والجزية على كل بيت دينار ، وليس لكم ان تجمعوا بين البيوتات تخفيفاً للجزية ، ولا لنا أن نفرق بينها استكثاراً لها . ولنا نصيحتكم على أعداء الله ورسوله ما استطعتم ، وقِرَى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا ، وإن يُقطعْ برُجل من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المسلمين إلا أن يحال دونهم . وإن آمنتم وأقمتم الصلاة فإخواننا في الدين ، وإلا فالجزية عليكم . وإن عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم فغير مأخوذين بذلك ، ولا هو ناقض

---

(١) الروم في هذه الجهات هم من جنس الارمن والكرج والروس .

(٢) اي الخضوع للحكم الاسلامي بلا شرط ولا قيد .

عهدكم . هذا لكم ، وهذا عليكم ، شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيدا .

●

وحفظ لنا التاريخ إلى جانب هذه الوثيقه نص كتاب بعث بـه اليهم جوابا على كتاب منهم يثنون فيه على المجاهدين المسلمين ويعترفون – على لسان سفيرهم الذي يحمل هديتهم – بأن الله أكرم العرب بالنصر ، وفضلهم على الأمم . فقال القائد العربي يجيبهم على رسالتهم .

أما بعد فإن رسولكم قدم عليّ ، وعلى الذين معي من المؤمنين ، فذكر عنكم أنكم قلتم إننا أمة اكرمنا الله وفضلنا ، وكذلك فعل الله بنا ، والحمد لله كثيراً ، وصلى الله على محمد نبيه خير البرية من خلقه . وذكرتم انكم احببتم سلمنا . وقد قوّمتُ هديتكم وحسبتها من جزيتكم ، وكتبت لكم اماناً واشترطت فيه شرطاً ، فإن قبلتموه ووفيتم به وإلا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، والسلام على من اتبع الهدى .

●

وبقيت تفليس وتلك الأصقاع القوقاسية تحت الحكم الإسلامي الرحيم من عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى زمن الدولة السلجوقية التي ثار عليها ثوار الكرج واستظهروا على جنود السلجوقيين حتى استردها جلال الدين خوارزم شاه سنة ٦٢٣ ، ثم أحرقت وتداولتها الأيدي إلى أن صارت في حكم قياصرة الروس وخلفائهم البلاشفة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

●

وحبيب بن مسلمة كان مجاب الدعوة ، وقضى حياته في الجهاد والفتوح . ولما حوصر عثمان ذو النورين رضي الله عنه في المرة الثانية ، وخيف عليـه من بغي عليه ، ارسل معاوية كتيبة قوية من الشام الى المدينة بقيادة حبيب بن مسلمة هذا لكفّ البغي عن امير المؤمنين ، فلما بلغت الكتيبة وادي القرى وصل اليها خبر وقوع الشهادة لخليفة رسول الله ﷺ وصهره ، فرجعت . وفي ذلـك يقول حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ :

إن تمس دارُ بني عفان خاليـة ... باب صريع وباب محرق خـرب
فقد يصادف باغي الخير حاجته ... فيها ويأوي اليه الذكر والحسب
يا ايها الناس ابدوا ذات انفسكم ... لا يستوي الصدق عند الله والكذب
إن لا تنيبـوا لأمر الله تعترفوا ... كتائباً عصباً من خلفهـا عصب
فيهم (حبيب) شهاب الحرب يقدمهم ... مستلئماً قد بدا في وجهه الغضب

المجتمع في خلافة عثمان

قال الحسن البصري :

« شهدتُ مناديَ عثمان رضي الله عنه ينادي : يا ايها النـــاس اغـدوا على أعطياتكم ، فيغدون ، ويأخذونها وافية . يا ايها النـاس اغدوا على ارزاقكم ، فيغدون فيأخذونها وافيـة . حتى — والله — سمعتـهُ اذناي يقول : اغدوا على كسوتكم ، فيأخذون الحلل . واغدوا على السمن والعسل » .

قال الحسن : « ارزاق دارّة ، وخير كثير ، وذاتُ بـينٍ حسن . ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنـاً ، إلا ويودّه وينصره ويألفـه . فلو صبر بعضهم على الأثرة لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق ، ولكنهـــم لم يصبروا ، وسلّوا السيف مع من سلّ ، فصار عن الكفار مغمَدا ، وعلى المسلمين مسلولا » . روى ذلك عنه الحافظ ابن عبد البر .

وقال ابن سيرين صنو الحسن البصري وزميله، وهو ايضاً كان معاصراً لعثمان:

« كثر المال في زمن عثمان حتى بيعت الجارية بوزنها . وفرس بمائة الف درهم. ونخلة بألف درهم » .

وروى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ان اباه قال :

« لقد عتبوا على عثمان اشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه » .

وقال مبارك بن فضالة مولى زيد بن الخطاب: سمعت عثمان يخطب وهويقول:

« يا ايها الناس ما تنقمون عليّ ؟ وما من يوم الا وانتم تقسمون فيه خيراً » .

المجاهدون الاولون

في كتاب الإصابة للحـــافظ ابن حجر (١ : ٥٧٦ — ٥٧٧) عن خالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص الأموي ، عن أبيه قال :

لما بويـع مروان بن الحكم (وكان ذلك سنة ٦٤ هـ - أي قبل ثلاثة عشر قرناً ونيّف) مرّ على ماء في البادية لبني جزء بن عمرو بن عوف بن كعب بن أبي بكر ابن كلاب ، وعلى الماء شيخ منهم كبير [١] ، فقال له مروان :

— كيف أنتم آل جزء ؟

فقال الشيخ :

— بخير ، انبتنا الله ، فأحسن نباتنا ، ثم حصدَنا ، فأحسن حصادنا ...

قال الحافظ ابن حجر ، وكانوا هلكوا في بلاد الروم ، في الجهاد .

اما كيف هلكوا قبل ذلك في الجهاد ، فقد ذكر مؤرخو الإسلام لمعاً من اخبـــاره . وانت اذا وقفت على القليل مما ذكروا تجلت لك صورة من صور الكمال الذي كان للمجاهدين الأولين ، فجمعوا فيـــه بين الإخلاص لدين الله ، وتصريف الشجاعة والفروسية والأموال بل والأهواء باستعـــمال ذلك كله في سبيل الله . وكان لهم — مع ذلك الكمال — نضوج العقل . وجمال المنطق ، وهما من ميراث القومية العريق في القدم الذي ازدان به سلفنا من العرب ، وبـــه امتاز الإنسان على سائر خلق الله من ذوي الحياة .

وحكاية جهاد آل جزء — الذي كان به حصادهم كما قال ذلك الشيـــخ من شيوخهم لمروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ — هي ان زرارة بن جزء الكلابي ، انتهى اليه وهو في نجوعه بالبادية سنة ٤٩ هـ [٢] . ان امير المؤمنين معاوية يعقد رايات

(١) هذه رواية ابن حجر عن خالد بن سعيد ، ونقل الجاحظ في البيان والتبيين(٣ : ٧٦من طبعتنا) ان هذا الشيخ هو زرارة بن جزء الذي سيأتي الكلام عليه .

(٢) وكانت منازلهم بين (حمة الثوير) و (حمة البرقة) و (حمة المنتضى) و (حمةالهودري) غربي البصرة بشمال ، ولهم هنالك حصن اسمه (الحوأب) .

الجهاد لأبطال العرب ومجاهديهم تحت قيادة ابنه يزيد ، وان القبائل تقرع طبولها في كل افق متجهة الى دمشق ، لتأخذ مكانها في فيالق الحملة الكبرى التي ينظم كتائبها في البر واساطيلها في البحر سفيان بن عوف الأزدي [1] . وان طائفة من اعلام الصحابة وعلمائهم التحقوا بهذه الحملة جنوداً في سبيـــل الله ، وفي مقدمتهم عبد الله بن امير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب (ابن عم النبي ﷺ) ، وعبد الله بن الزبير بن العوام (حفيد عمه رسول الله ، وسبط ابي بكر الخليفة الأول) ، وابو ايوب الأنصاري الذي نزل النبي ﷺ ضيفاً عليه في بيته عند هجرته الشريفة من مكة الى المدينة .

واتفق في ذلك الحين مرور امير من امراء البيت المالك بديار آل جزء [2] ، وهو الامير عنبسة بن ابي سفيان اخي الخليفة [3] ، فاحتفل آل جزء بمقدمه ، وانزلوه في المقام اللائق به .

ومما اكرم به آل جزء ضيفهم الأمير ان الشاب النبيل عبد العزيز بن زرارة ابن جزء استعرض امامه خيله بفرسانها ، ومطاياه بركبانها ، ومواشيه وامواله التي جرت عادة العرب ان يرفقوها بفرسانهم وركبانهم اذا نفروا للقتـــال [4] فرأى الأمير الأموي من ذلك ما اعجبه . فلما لمح ذلك عبد العزيز في وجه اخي الخليفة ، وكان قد وقف على خبر الحملة التي تجهز في الشام لغزو القسطنطينية ، نادى قائلاً – والأمير عنبسة يسمع – :

« اللهم اني اشهدك اني حبست نفسي ، واهلي ، ومالي ، في سبيلك ... » .

فكانت هذه التضحية في مقام (بدلية التجنيد) التي كان يبذلها ابناء الوجهاء الى عهد قريب ، ولكن ابناء وجهاء العرب الأولين لم يكونوا يبذلونها ليقعدوا

---

(١) هو خليفة عبد الله بن قيس الحارثي في قيادة الاساطيل الاولى للاسلام ، وهو الذي تعلم من استاذه عبد الله بن قيس ان يقول في المآزق الحرجة والمواقف الصعبة: « الغمرات، ثم ينجلين».

(٢) لان ديارهم كانت على احدى طرق السابلة بين الحجاز والعراق والشام .

(٣) وعنبسة بن ابي سفيان هو الجد الاعلى للشاعر الاموي الشهير ابي المظفر محمـــد بن احمد الابيوردي المتوفى سنة ٥٥٧ ، وقد وفاه حقه من الترجمة والتحليل الاستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام .

(٤) ولعل الامير كان يشرف على هذا الاستعراض من حصنهم المسمى (الحوأب) وهو مشيد على ماء جاهلي قديم اسمه (الحوأب) ايضاً .

بها عن الجهاد ، وليهربوا من كتائبه ، ويتخلوا عن حمل اعبائه، واحتمال متاعبه، وتحمل عواقبه في انفسهم وذويهم ، بل لتكون هذه التضحيــة نوراً يمشي بين يدي دمائهم التي عاهدوا الله على بذلها في سبيله ، اعلاء لـكلمة الحق في آفاق جديدة من آفاق الأرض .

وما كاد ضيفهم الأمير يرحل عن نجعهم متوجهاً الى دمشق ، حتى تجهز شيخ العشيرة زرارة بن جزء (ابو عبد العزيز) وركب من باديته قاصداً عاصمة الإسلام الرابضة بين جبل قاسيون وضفاف برَدَى ، حتى اذا صار بباب معاوية ، رأى ازدحام زعماء القبائل عليه ، وصعوبة الوصول اليه . فقال لمن كان هناك :

— من يستأذن لي اليوم على امير المؤمنين استأذن له غداً !

اي انه يستقرض الاستئذان حقاً بحق ، ولا يستجديه عفواً بلا مقابل .

وكان زرارة يثق فيما له من مواهب انها ستنيله الحظوة عند معــاوية ، وتحله منه في المكان الأقرب ، كما كان يثق بأن معاوية يعرف اقدار الرجال، وينزلهم من نفسه ومجلسه ودولته على قدر رجولتهم ، وعلى قدر ثقتهم بفضائل انفسهم، وسخائهم للملة بما تحت ايديهم .

فلما اذن له معاوية ودخل عليه ، قال :

« يا امير المؤمنين ،

اني رحلت اليك بالأمل ، واحتملت جفوتك بالصبر ، ورأيت اقواماً ادناهم منك الحظ ، وآخرين باعدهم منك الحرمان . وليس للمقرب ان يأمن ، ولا للمباعد ان ييأس» .

ونسب الجاحظ في البيان والتبيين (٣ : ٣٧) الى ابنه عبد العزيز الفقرة التالية خطاباً لمعاوية وما علمنا ان عبد العزيز خطب بين يدي معاوية، وهي بكلام ابيه اشبه، ومعانيها تدل على انها من تمام الخطبة التي اوردنا منها الفقرة السالفة . قال :

« يا امير المؤمنين ،

لم ازل استدل بالمعروف عليك ، وامتطي النهار اليك . فإذا الوى بك الليل، فقبض البصر ، وعفى الأثر، اقام بدني، وسافر املي ، والنفس تلوم ، والاجتهاد يعذر . واذ بلغتك فقطني .. » .

فأعجب معاوية كلامه ، كما اعجب اخاه عنبسة خيل ابنه عبد العزيز ومطاياه

وتضحيته بها وبنفسه واهله في سبيل الله ، فضمه الى يزيد، وفرض له في الفين.
وخرج زرارة بن جزء وابنه عبد العزيز وقبيلتهم كلها مع يزيد بن معاوية الى الصائفة (اي الى حرب الروم في الصيف وكان ذلك في صيف سنة ٤٩ للهجرة) وبعد ان قام زرارة بتنظيم المجاهدين من ذويه ورجال قبيلته ، وتوثيق اواصرهم بالجيش الأعظم ، جعل على كتيبته ابنه عبد العزيز بن زرارة بن جزء ، وعاد الى دمشق معتذراً بشيخوخته وبضعف بصره ، وصار يتردد على الدار الخضراء (قصر الخلافة الرسمي الملاصق للجدار القبلي من مسجد بني أُمية) فكان معاوية يحله في المحل اللائق بمثله من رجال الأمة .

وفي ذات يوم جاء الى معاوية نعي عبد العزيز بن زرارة بن جزء ، وابوه جالس في مجلس الخليفة بالدار الخضراء . فقال معاوية لما قرأ الكتاب :

– في هذا الكتاب موت سيد شباب العرب !

فقال زرارة :

– ابني ، او ابنك ؟

قال : – بل ابنك ، فأعظم الله عليك اجرك [1] .

فلم يزد زرارة على ان قال : « إنا لله وإنا اليه راجعون » .

ووصلت بعد ذلك رسائل من شباب دمشق المجاهدين في هذه الحملة الى ذويهم في عاصمة الإسلام بأن عبد العزيز بن زرارة الكلابي لما اوغل مع الجيش العربي في ديار الروم حتى بلغوا القسطنطينية ،اقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتدت الملاحم بينهم ، فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة ثم يخرج من المعارك سالماً ظافراً ، فأنشأ يقول :

ونكبة لو رمى الرامي بها حجراً	اصم من جندل الصمان لانصدعا
مرت عليّ فلم اطرح لها سلبي	ولا استكنت لها رعناً ولا جزعا
ولا رميت على خصم بفاقرة	الا رميت بخصم فر لي جذعا
ولا ازال على ارجاء مهلكة	يسائل المعشر الأعداء ما صنعا
قدعشت في الدهر اطواراً على طرق	شتى ، فصادفت منها اللين والبشعا

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥ : ٣٧٠) والاصابة لابن حجر (١ : ٥٤٧ و ٥٧٦).

كلا بلوت ، فلا النعماء تبطرني ولا تخشعت من لأوائها جزعا
ما سدّ من مطلع يخشى الهلاك به الا وجدت بظهر الغيب مطلعا
لا يملأ الهول صدري قبل وقعته ولا اضيق به ذرعاً اذا وقعا

ثم حمله على من يليه ، وجعل يقتل فيهم ، ويسفك من دمائهم ، حتى انغمس بينهم ، فشجروه برماحهم ورشقوه بسهامهم ، الى ان كانت منيته ذلك اليوم (رحمه الله) .

ومن قول ابيه زرارة في رثائه :

وزانَ المنابر عبد العز يز وزان البساط وزان السريرا
واورى زناد بني عامر غلاماً ، وقضى عليه الأمورا
فحاط الحريم ، وكف العظيم ، واغنى الفقير ،واعطى الكسيرا
رمته المنون على غربه بسهم فأصبح جدّي عثورا
نعاه ابنحرب اليّ الغداة فأصبحت شيخاً مصاباً ضريرا
فإن يكن الموت اودى به فأصبح مخ الكلابي زيرا
فكل فتى شارب كأسه فإما صغيراً ، وإما كبيرا

وزرارة بن جزء (ابو هذا الشبل الشهيد الفارس الكريم) معدود من الصحابة . ونقل ابو عثمان الجاحظ ابياتاً من بليغ شعره قالها حين اتى عمر بن الخطاب في خلافته ، وهي :

اتيت ابا حفص ، ولا يستطيعه من الناس الا كالسنان طرير
فوفقني الرحمن لما لقيته وللباب من دون الخصوم صرير
قروم غيارى عند باب ممنع تنازع ملكاً يهتدي وتجور
فقلت له قولاً اصاب فؤاده وبعض كلام الناطقين غرور

اما الإبن المجاهد الشهيد ، فقد ظلت سيرته على ألسنة الفتيان في البادية يتحدثون بها جيلاً بعد جيل ليقوموا بمثل فضائلها وروائعها بأنفسهم كلما سنحت لهم الفرص . وقد زار بعد ذلك بأمد طويل هارون بن بكار (حفيد عبدالله بن الزبير بن العوام الذي كان زميل عبد العزيز بن زرارة في حصار القسطنطينية الأول) فذكروا له في جملة ما ذكروه من اخلاق عبد العزيز بن زرارة اعلانه

التبرع بنفسه وبأهله وبأمواله بين يدي الأمير عنبسة بن أبي سفيان ، ثم وفاءه بهذا العهد اكمل وفاء عرف عن فارس شاعر نبيل .

• •

هذه صورة صادقة لبادية العرب في صدر الإسلام إلى نهاية دولة بني أمية، وهو زمن التابعين والتابعين لهم بإحسان ، وهو زمن الخير الذي عمت فيه الفتوح ، وحدث فيه أعظم انقلاب في تاريخ الإنسانية، لأن دخول الممالك في الإمبراطورية الإسلامية لم يكن معناه الظفر والفتح كما تفهمه الأمم قبل الإسلام وبعد الإسلام . بل كان معناه : تحوّل الأمم عن أنانيتها ، وعن باطلها ، وعن ضعفها الخلقي وسخافاتها الدينية والعقلية ، بل عن ألسنتها وقومياتها الى لسان القرآن وقومية رسوله ، والتحاقها بتلاميذ محمد ﷺ و تباعهم التحاق تخلق واندماج ، وهو انقلاب لم يسبق له نظير ، ولا استطاع ان يأتي بمثله الفاتحون فيما بعد ، لا من المسلمين المتأخرين ، ولا من الغربيين .

والمجاهدون الذين تم على ايديهم هذا الانقلاب هم امثال عبد الله بن عمرو وعبد الله ابن عباس وعبد الله بن الزبير وأبي أيوب الأنصاري ، الذين تقدموا بأنفسهم للجهاد في سبيل الله تحت راية معقودة ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان الأمير القائد الذي يصلي بالناس ، وهو الذي يرجعون اليه في جميع حركاتهم وسكناتهم .

واذا تجاوزنا هذه الطبقة من علماء الصحابة واعلامهم ، نلقى بعدها الطبقة التي منها امثال عبد العزيز بن زرارة بن جزء الكلابي ، وان الكثيرين من مثقفي المسلمين يعلمون ان من احداث الدعوة المحمدية الأولى تبرع عثمان بن عفان بنفقات جيش العسرة ، وتبرع إخوانه من كبار الصحابة بكرائم اموالهم ، ولكن قلّ من يعلم منهم ان من احداث الجهاد الإسلامي الأعظم في زمن التابعين تبرع امثال هذا البدوي النبيل — القابع في نجعه ، المنزوي بين الحمات في الصحراء — بكل ما يملك من خيل وإبل ومواشي واموال . بل تبرعه بدمه وبأهله في سبيل الله.

وهذا البدوي المجاهد ، وكل عربي تقدم للجهاد معه او قبله او بعده ، كانوا يعرفون فرق ما بين شمس باديتهم الساطعة الضاحية ، وبين جوّ القسطنطينية التي كان يتجمد ماء خليجها في بعض السنين من شدة البرد ، فتسير الخيول والعربات والناس على مائه المتجمد ، ومع ذلك فإن هذه الطبيعة بقسوتها وشدتها

لم تستطع ان تصد ابناء البادية ، ولا اهل الرفاهة من وجوه ابناء العواصم وفي مقدمتها دمشق ، عن ان يقدموا انفسهم ودماءهم واموالهم في سبيل إعلاء كلمة الحق والخير ، تحت كل سماء، وفي دائرة كل افق. لأنهم يرون ان الله الذي انبتهم فأحسن نباتهم ، انما اكرمهم بالجهاد ليحصدهم في سبيله فيحسن حصادهم .

وممن نال سعادة الشهادة يومئذ في معقل الروم الاعظم تحت اسوار القسطنطينية ، الصحابي الجليل ابو ايوب الانصاري رضوان الله عليه ، فدفن الى اصل حصن من حصونها غربي ضفاف خليج القرن الذهبي ، وقبره معروف هناك الى اليوم. وكان من استكمال مجاهدي تلك الحملة لجميع فضائل الانسانية ، ان كان الروم يعجبون من محاسن اخلاقهم ونبل مروءاتهم . فلما اودع العرب في ارضهم جسم شهيدهم ابي ايوب خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة الانصاري النجاري واجسام من دفن معه من شهداء تلك البقعة ، اتخذهم الروم بمنزلة كبار قديسيهم ، اعجاباً بنبل اولئك المجاهدين وعالي اخلاقهم ، فصاروا يستسقون بهم عند قبورهم قروناً طويلة مثلما يفعلون بقديسيهم في شعائر ملتهم سواء بسواء . فلما جاء السلطان محمد الفاتح العثماني وكان من نصيبه فتح تلك العاصمة، وجد قبر ابي ايوب واخوانه مكرماً عند اهلها من نصارى الروم ، فأقام عنده مسجداً ، ودرج سلاطين آل عثمان على ان يتقلدوا سيف السلطنة في تلك البقعة في اليوم الاول من ولايتهم .

وكنا معاشر شباب العرب — ايام كنا نطلب العلم في القسطنطينية في اواخر سلطنة السلطان عبد الحميد — نرى من البرّ لعروبتنا واسلامنا ان نزور مثوى هذا الصحابي المجاهد الجليل لنطلب له من الله الرحمة وطيب الخلود .

هذه الاخلاق التي كان عليها مجاهدو الإسلام الاولون ، هي التي تمكنوا بها من إسناد البشر بالإسلام فيما بين نهر الغانج وجبال الاطلس وتخوم البيرنيه في عشرات قليلة من السنين .

وبتلك الدماء الطاهرة سقى العرب تربة الدنيا ، فأينعت بها ثمرات الاسلام.

المجاهد المحتضر

لص اديب بليغ ، يحوّله الاسلام الى مجاهد عظيم

كان (مالك بن الرّيب) من مازن تميم ، وكان لصّـــاً يقطع الطريقَ مع شِظاظ الضّبي الذي يُضرب به المثلُ فيقال : ألصّ مِن شِظاظ .

ولما ولى معاويةُ بن أبي سفيان سعيدَ بن عثمان بن عَفان إمارةَ خراسانَ سار فيمن معه فأخذَ طريق فارس ، فلقيه بها مالكُ بن الرّيب – وكان مالك ، فيما ذُكر ، من أجمل العرَب جمالاً ، وأبينهم بياناً – فلما رآه سعيد أعجبه ،ومالك في نفرَ من أصحابه . فقال :

– ويحكَ يا مالك ! ما الذي يـــدعوك إلى ما يبلغني عنـــك من العَداء وقطع الطريق ؟

قال : أصلح الله الأمير ! العجزُ عن مكافأة الإخوان [1] ...

قال : فإن أغنيتك واستصحبتك ، أتكفُّ عما تفعل وتتبعني ؟

قال : نعم أصلح الله الأمير ؟ أكفُّ كفّاً ما كفَّ أحدٌ أحسنَ منه .

فاستصحبه وأجرى عليه خَمسمائة دينار في كلّ شهر ، وكان معه في جهـاده كأعظم ما يكون المجاهدون في سبيل الله ، حتى قتل بخراسان ... طُعن فسقط وهو بآخر رَمَق ، فقال هذه القصيدة يرثي بها نفسه ، ويذكر غربته :

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنّ ليـــلة   بجنب الغضا أزجي القلاصَ النواجيا

---

(١) اي انه كان على مذهب عروة بن الورد والشنفرى ، وكانوا يسمون صعاليك العرب .

فليتَ الغضا لم يقطع الركبُ عرضه ... وليت الغضا ماشى الركابَ لياليا
لقد كان في أهل الغضا — لو دنا الغضا — ... مَزارٌ ، ولكنَّ الغضا ليس دانيا
ألم ترني بعتُ الضلالةَ بالهدى ... وأصبحتُ في جيش ابن عفان غازيا
وأصبحتُ في أرض الأعادي بُعيد ما ... أراني عن أرض الأعادي قاصيا
أقلبُ طَرفي حول رحلي فلا أرى ... به من عيون المؤنسات مُراعيا
دعاني الهوى من أهل أودٍ وصحبتي ... بذي الطَّبَسَيْن، فالتفتُّ ورائيا[1]
أجبتُ الهوى لما دعاني بزفرةٍ ... تقنعتُ منها ، أن ألام ، ردائيا
أقول وقد حانت قرى الكرْد دوننا: ... جزى الله عَمراً خيرَ ما كان جازيا
إنِ الله يرجعني من الغزو لا أرى ... — وإن قلَّ مالي — طالباً ماورائيا
تقول ابنتي ، لما رأتْ طول رحلتي: ... سِفارك هذا تاركي لا أباليا
وبالرمل منا نسوةٌ شهدْنني ... بكين وفدّين الطبيب المداويا
فمنهنَّ أمي وابنتاها وخالتي ... وجارية أخرى تهيج البواكيا
لعمري، لئن غالتْ خراسانُ هامتي ... لقد كنت عن بابَي خراسان نائيا
فلله دَرِّي . يوم أترُك طائعاً ... بَنيَّ بأعلى الرقمتين ، وماليا
ودَرُّ الظباء السانحاتِ عشيةً ... يخبرنَ ، أني مالكٌ ، من ورائيا
ودَرُّ كبيريَّ اللذين كلاهما ... عليَّ شفيقٌ ناصح لو نهانيا
ودَرُّ الرجال الشاهدين تفتكي ... بأمري ألا يقصروا من وَثاقيا
وكرَّ الهوى من حيث يدعو صحابه ... ودرَّ لجاجاتي ، ودرَّ انتهائيا
تذكرتُ من يبكي عليَّ فلم أجدْ ... سِوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقرَ محبوكٍ يجرّ لجامَه ... إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
ولكن بأكناف (السمينة) نسوةٌ ... عزيزٌ عليهن العشية ما بيا[2]
صريع على أيدي الرجال بقفرة ... يُسوُّون لحدي حيث حمَّ قضائيا
ولما تراءتْ عند مَروٍ منيتي ... وخلَّ بها جسمي وحانت وفاتيا[3]

---

(١) اود : في ارض قومه بني مازن . والطبسان كورتان في خراسان .
(٢) السمينة : منزل قومه في ارض بني مازن .
(٣) مرو : اشهر مدن خراسان . خل بها جسمي : اختل .

أقول لأصحابي : ارفعوني فإنه ... يقرُّ بعيني أن سهيلٌ بداليا

فيا صاحبي رحلي ، دنا الموت فانزلا ... برابية ، إني مقيم لياليا

أقيما عليّ اليوم أو بعض ليلةٍ ... ولا تعجلاني ، قد تبين شانيا

وقوما ، إذاما استلّ روحي ، فهيئا ... لي السدر والأكفان عند فنائيا

وخطا بأطراف الأسنةِ مضجعي ... وردّا على عينيّ فضل ردائيا

ولا تحداني ، بارك الله فيكما ، ... من الأرض ذات َالعرْض أن توسعاليا

خذاني فجرّاني ببرْدي اليكما ... فقد كان قبلي اليوم صعباً قياديا

وقد كنتُ عطافاً إذا الخيل أدبرت ... سريعاً لدى الهيجا إلى من دعانيا

وقد كنت صباراً على القرْن في الوغى ... وعن شتمي ابن العمّ والجار وانيا

فطوراً تراني في ظلالِ ونعمةٍ ... ويوماً تراني والعتاق ركابيا

ويوماً تراني في رحى مستديرة ... تخرّق اطراف الرماح ثيابيا

وقوما على بئر السمينة أسمعا ... بها الغرُّ والبيض الحسان الروانيا :

بأنكما َخلفتماني بقفرةٍ ... تهيل عليّ الريح فيها السوافيا

ولا تنسيا عهدي خليليّ بعدما ... تقطع أوصالي وتبلى ِعظاميا

ولن َيعدم الوالون َبثاً يصيبهم ... ولنْ َيعدم الميراث مني المواليا

يقولون : لا َتبعد ، وهم يدفنونني ، ... وأين مكان البعد إلا َمكانيا !

غداة غدٍ ، يا لهف نفسي على غدٍ ... إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاويا

وأصبح مالي ِمن َطريف وتالد ... لغيري ، وكان المال بالأمس ماليا

فيا ليت شعري ، هل تغيرت الرحى ... رحى المثل أو أمست بفلج كما هيا(١)

إذا الحيُّ حلوها جميعاً ، وأنزلوا ... بها بقراً حمٌّ العيون سواحيا

وعين وقد كان الظلام يجنها ... يسفن الخزامى مرةً والأقاحيا (٢)

وهل أترك العيس العبالى بالضحى ... بركبانها تعلو المتان الديافيا

---

(١) رحى المثل وفلج : من بقاع وطنه في الحجاز .

(٢) السوف : الشم .

إذا عصب الركبان بين عنيزة	وبَوْلان عاجوا المنقبات النواجيا[1]
فياليت شعري.هل بكت أمُّ مالكٍ	كما كنت لو عالوْا بنعيكِ باكيا!
إذا مت فاعتادي التبورَ فسلمي	على الرمس، أسقيت السحاب الغواديا
على جدَث قد جرّت الريح فوقه	تراباً كسحق المرْنباني هابيا
رهينة أحجارٍ وترْب تضمنت	قراراتها مني العظام البواليا
فيا صاحبي، إما عرضتَ فبلغنْ	بني مازن والريب أن لا تلاقيا
وعطـلْ قلوصي في الركاب فإنها	ستفلق أكباداً وتبكي بواكيا
وأبصرت نار المازنيات مَوهناً	بعلياء يثنى دونها الطرف وانيا
فما كان عهد الرمل عندي وأهله	ذميماً، ولا ودّعت بالرمل قاليا

(١) عنيزة : موضع لبني عامر بن كريز على ميل من القريتين ببطن الرمة تنتهي اليه ميـاه الاودية . وهو مذكور في شعر امريء القيس وجرير وغيرهما . وبولان : موضع قريب من النباج في طريق الحاج من البصرة سمي باسم بولان بن عمرو بن الغوث احد اجداد قبائل طي .

العرب المسلمون في كراسي الحكم

لقد شوّهت الحزبيات السياسية القديمة ، والعصبيات المذهبية الآثمة ، جمال تاريخنا – من بدء تدوينه إلى الآن – بما عبثت به من حقائق ، وما دفنتــــه من مزايا وسجايا وفضائل وما ابتكرته من أكاذيب ، وما صرفتـــه عن وجهه من المعاذير ، حتى صار الذين لا يساوون عند الله جناح بعوضة ، يتطاولون بالنقــد والتنقيص والثلب وقلة الأدب على مقامات عظماء من الصحابة الذين قام الإسلام على عواتقهم ، وسقيت تربة بلاده بدمائهم ، وكان دخول أوطاننــا في كيان العروبة والإسلام بعض حسناتهم . كما يتطاولون على مقامات عظـــماء من علماء التابعين وسادتهم وقادتهم وولاتهم ممن نتمنى الآن – عنددراستناتراجم حياتهم-- لو أن الانسانية كلهاترزق مثلهم أو أقل منهم في هذا العصر الذي نتبجح فنتشدق بتقدمه الصناعي ، بينما حكماؤه وعظماؤه ينحون بالمذمة على انحلال المبادىء في أهله ، وغلبة الشرور في أفراده وجماعته .

إن الموّهين والمشوّهين من مدوّني الأخبار المتقرّبين إلى حكام كل عصر بذم خصومهم والسابقين لهم ، قد حقنوا قلوب الناس جميعاً بالكراهيـــة والبغضاء لأمثال مروان بن الحكم بل لمن هم أعظم منه مقاماً وفضلاً ونبلاً كالخليفة الراشد صهر رسول الله عثمان بن عفان ، فكان ذلك سبباً في صد الأطفال والتلاميــذ – تبعاً لآبائهم وأساتذتهم – عن معرفة ما كان عليه سلفنا من فضائــل ، لأن ما دسه الإخبــاريون في سيرتهــم من أكاذيب قــد ابتعــد بسيرتهم عما كانت عليه في الواقع ، فعرضت على أنظــار النــاس كما أراد شانئوهم أن يصوروهم للناس .

ولأجل أن تعرف مروان بن الحكم – مثلاً – كما كان في الواقع ، ننقل هذه الحادثة من تاريخ حياته ، ونشير على القارىء أن يبحث في ذاكرته عن أحب الشخصيات اليه ممن تبوّأوا مقاعد الحكم في أي عصر ، ولينظر هل بلغ من أحدهم أن يصدر عنه مثل العدل الباهر الذي صدر عن مروان بن الحكم فيما سنقصه من خبره ؟

قال أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني (١٣ : ٧٦ بولاق) أخبرني محمد ابن الحسن بن دريد ، عن أبي حاتم ، عن أبي عبيدة أن عبد الرحمن بن الحكم (وهو أخو مروان لأبيه وأمه) لطم مولى لأهل المدينة حناطاً ، وكان مروان يومئذ والياً على المدينة وله فيها الأمر والحكم ، فشكا الحناط عبد الرحمن بن الحكم إلى أخيه مروان ، فما كان من الأمير إلا أن أجلس أخاه (وهو النبيل الشاعر الوجيه) بين يديه إلى جانب العبد الحناط وقال للحناط :

– الطمه كما لطمك !

قال الحناط : – والله ما أردتُ هذا ، وإنما أردت أن أعلمه أن فوقه سلطاناً ينصرني عليه . وقد وهبتها لك .

قال مروان :

– لست أقبلها منك ، فخذ حقك !

قال الحناط : – والله لا ألطمه ولكن أهبها لك .

قال مروان :

– إن كنت ترى أن ذلك يسخطني عليك فوالله لا أسخط ، فخذ حقك !

فعاد الحناط إلى قوله :

– قد وهبتها لك ، ولست والله لألطمه .

فقال الأمير : – لستُ والله قابلها ، فإن وهبتها فهبها لمن لطمك ، أو لله عز وجل .

فقال : — قد وهبتها لله عز وجل .

وبذلك انتهت جلسة القضاء والحكم .

ونحب أن يعلم القارىء أن عبد الرحمن بن الحكم من أشراف قريش في الجاهلية والاسلام ، وقد علمت أن أخاه أمير المدينة ، وأزيدك أن ابن عمه الخليفة بدمشق ، وأنه هو نفسه من كبار شعراء قريش .

فإذا كان العدل القائم سلطانه في تلك الدولة قد أوقفه هذا الموقف من حناط معدود في موالي أهل المدينة (أي عبيدهم) فإن مكانة عبد الرحمن ابن الحكم في ذاته أباحت له أن يقول لأخيه الأمير في مثل ما يكون بين الأخ واخيه :

كل ابن ام زائد غير ناقص　　　وانت ابن ام ناقص غير زائد
وهبتُ نصيبي منك (يامرو) كله　　　لعمرو وعثمان الطويل وخالد

ولكن الأخ الذي كانت له هذه الدالة وهذه الجرأة على أخيه في البيت ، كانت له — في نظام الحكم الذي كان للعرب في صدر الاسلام — تلك الطاعة التي رأيناها منه يوم أوقفه أخوه في موقف العدل وهو ينتظر أن تقع اللطمة على وجهه من كف العبد الحناط الذي يمثل أحط طبقات الناس في المجتمع .

معاوية رضي الله عنه
في النصوص الاسلامية الاصيلة

روى الامام محمد بن اسماعيل البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه (ك٥٦ ب ٣ – ج ٣ ص ٢٠١) ، والامام مسلم بن الحجاج القشيري في كتاب الامارة من صحيحه (ك ٣٣ ح ٦٠) عن انس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ نام القيلولة في قباء عند ام حرام بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت ، ثم استيقظ ﷺ وهو يضحك ، قالت : فقلتُ ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرّة (أو مثل الملوك على الأسرّة – شك إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة راوي الحديث عن أنس) . قالت بنت ملحان : فقلت يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم . فدعا لها رسول الله ﷺ ، ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك ، فقلت : وما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناس من أُمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله (كما قال في الأول) قالت : فقلت يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال : أنتِ من الأولين (اي من الجماعة التي رآها النبي ﷺ في منامه الاول) ، فركبت البحر في اسطول معاوية بن أبي سفيان ، فصرعتْ عن دابتها حين خرجت من البحر فماتت هناك .

قال الحافظ بن كثير في البداية والنهاية (٨ : ٢٢٩) يعني جيش معاوية حين غزا قبرس ففتحها سنة ٢٧ ايام عثمان بن عفان ، وكانت معهم ام حرام بنت ملحان في صحبة زوجها عبادة بن الصامت ، ومعهم من الصحابة ابو الدرداء وابو ذر وغيرهما . وماتت ام حرام في سبيل الله وقبرها بقبرس الى اليوم .

قال ابن كثير : ثم كان امير الجيش الثاني يزيد بن معاوية في غزوة

القسطنطينية . قال : وهذا من اعظم دلائل النبوة . قلت: وكما ان هذا الحديث الثابت في صحيحي البخاري ومسلم من دلائل نبوة نبينا ﷺ فإنه من اعظم الشهادات والمناقب لمعاوية وابنه ، ولو كره ذلك الذين يبغضون الصحابة جميعاً وعلى رأسهم ابو بكر وعمر .

وروى الإمام الترمذي عن أبي إدريس الخولاني من كبار علماء التابعين وأعلم أهل الشام بعد أبي الدرداء أن عمر بن الخطاب لما عزل عمير بن سعد الأنصاري الأوسي عن إمارة حمص وولى عليها معاوية قال الناس : عزل عميراً وولى معاوية (قال البغوي في معجم الصحابة : وكان عمير يقال له « نسيج وحده » . قال ابن سيرين ، إن عمر كان يسميه بذلك لإعجابه به ، وكان عمير من الزهاد) فقال عمير : لا تذكروا معاوية إلا بخير ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « اللهم اهد به » ويروى أن الذي شهد هذه الشهادة لمعاوية أمير المؤمنين عمر ، فإن كان هو الذي شهدها له وروى دعاء رسول الله ﷺ لمعاوية بأن يهدي الله به فذلك أمر عظيم لعظم مكانة عمر . وإن كان الذي شهد بذلك عمير بن سعد الأنصاري مع أنه هو المعزول بمعاوية عن ولاية حمص فإن ذلك لا يقلّ عظمة عما لو كانت الشهادة لمعاوية من عمر ، وقد علمت أن عميراً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن من زهاد الأنصار .

ونقل الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٨ : ١٣٣) عن الليث بن سعد (وهو إمام مصر وعالمها ورئيسها المتوفى سنة ١٧٥) قال : حدثنا بكير (وهو ابن عبد الله الأشجّ المدني ثم المصري المتوفى سنة ١٢٧ ، قال عنه النسائي : ثقة ثبت) عن بسر بن سعيد المدني (المتوفى سنة ١٠٠ ، قال عنه ابن معين : ثقة . وقال عنه الليث بن سعد: كان من العبّاد المنقطعين أهل الزهد في الدنيا والورع) أن سعد بن أبي وقاص (أحد العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة) قال : « ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب) يعني معاوية .

وفي منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣ : ١٨٥) قول الصحابي الجليل أبي الدرداء لأهل الشام « ما رأيت أحداً أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ من إمامكم هذا » يعني معاوية .

وروى الحافظ ابن كثير ايضاً (٨ : ١٣٥) عن عبد الرزاق بن همام الصنعاني احد الأئمـــة الأعلام (وكان ينسب الى التشيع) عن معمر بن راشد أبي عروة البصري ثم اليماني وكان احد الأعلام عن همام بن منبه الصنعاني وكان ثقـة قال : سمعت عبد الله بن عباس يقول « ما رأيت رجلاً اخلق بالمُلك من معـاوية » . وهل يكون الرجل اخلق بالملك الا ان يكون عادلاً حكيمـاً يحسن الدفاع عن ملكه ، ويستعين الله في نشر دعوة الله في الممالك الأخرى ، ويقوم بالأمانة في الأمة التي ائتمنه الله عليها ؟

وفي كتاب مناقب الصحابة من صحيح الإمام البخـاري (ك ٦٢ ب ٢٨ — ج ٤ ص ٢١٩) حديث ابن أبي مليكة أن ابن عباس قيل له : « هل لك في امير المؤمنين معاوية ، فإنـه ما اوتر الا بواحدة . فقال : انه فقيه » .

وفي كتاب المناقب من جامع الإمام الترمذي (ك ٤٦ ب ٤٧) حديث عبد الرحمن ابن ابي عميرة المزني عن النبي ﷺ انه قال لمعـــاوية « اللهم اجعله هادياً مهدياً واهدِ به » .

ورواه الطبراني من طريق سعيد بن عبـــد العزيز التنوخي — وكان لأهل الشام كالإمام مالك لأهل المدينة — عن ربيعة بن يزيد الإيادي احد الأئمة الأعلام عن عبد الرحمن بن ابي عميرة ان النبي ﷺ قال لمعاوية « اللهم علمه الكتـــاب والحساب وقهِ العذاب » .

واخرجه الإمام البخـاري في التاريـــخ قال : قال لي ابو مسهر (وذكره بالعنعنة كالحديث المتقدم) .

ورواه الإمام احمد من حديث العرباض بن سارية السلمي .

ورواه ابن جرير من حديث ابن مهدي .

ورواه اسد بن موسى ، وبشر بن السري ، وعبد الله بن صالح عن معاوية ابن صالح ، باسناده . وزاد في رواية بشر بن السري « وأدخله الجنة » .

ورواه ابن عدي وغيره عن ابن عباس عن النبي ﷺ .

ورواه محمد بن سعد بسنده الى مسلمة بن مخلد احد فاتحي مصر وولاتهـا . ورواة هذا الدعاء النبوي لمعاوية رضي الله عنه من الصحابة اكثر من ان يحصوا .

ومن لم يصدق هذا الحديث فهو منكر لكل ما ثبت في السنة من شريعة الإسلام . وفي الشيعة المبغضين لمعاوية اللاعنين له من يزعمون انهم منتسبون الى النبي ﷺ ، فهل تراهم يحقدون على جدهم ﷺ لرضاه عن معاوية واستعانته به ودعائه له ؟ !

واخرج ابن كثير في التاريخ (٨ : ١٣٥) عن هشيم ، عن العوّام بن حوشب عن جبلة بن سُحيم ، ان عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « ما رايت احداً اسود من معاوية » قال جبلة بن سحيم : قلت ولا عمر ؟ قال : كان عمر خيراً منه ، وكان معاوية اسود منه » .

وروى ابو بكر الأثرم - ورواه ابن بطة من طريقه - حدثنا محمدبن عمرو بن جبلة حدثنا محمد بن مروان ، عن يونس ، عن قتادة قال : لو اصبحتم في مثل عمل معاوية (اي في مثل دولته وتحت سلطانه) لقال اكثركم : هذا المهدي .

وروى ابن بُطة بإسناده الثابت من وجهين عن الاعمش عن مجاهد قال : لو ادركتم معاوية لقلتم : هذا المهدي .

وروى الاثرم : حدثنا احمد بن جوّاس ، حدثنا ابو هريرة المكتب قال : كنا عند الاعمش ، فذكروا عمر بن عبد العزيز وعدله ، فقال الاعمش :فكيف لو ادركتم معاوية ؟ قالوا : في حلمه ؟ قال : لا والله ، بل في عدله .

وقال عبد الله بن احمد بن حنبل : اخبرنا ابو سعيد الاشجّ ، حدثنا ابو اسامة الثقفي ، عن ابي إسحاق السبيعي انه ذكر معاوية فقال : لو ادركتموه او ادركتم ايامه لقلتم : كان المهدي .

وهذه الشهادات من هؤلاء الائمة الاعلام لامير المؤمنين معاوية اذا كانت في زمن دولة بني العباس ، وهي صدى استجابة الله عز وجل دعاء نبيه ﷺ لهذا الخليفة الصالح يوم قال فيه ﷺ : « اللهم اجعله هادياً ، مهدياً ، واهد به » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٣ : ١٨٥) : لم يكن من ملوك الإسلام ملك خيراً من معاوية ، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيراً منهم في زمن معاوية ، إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده . وإذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل .

كيف كانوا يقدّمون الرجال؟

قوام الامة برجالها، ورجال الامة هم الذين تنتفع الدولة بأخلاقهم ومواهبهم وفضائلهم فإذا رأيت دولة تقدّم المفضول وتؤخر الفاضل ، فاعلم أنها دولة تهدم أمتها ، ولا تريد ان يكون لها عماد من رجالها الفاضلين الموهوبين الصالحين .

ونرى كثيرين ممن يجهلون دخائل التاريخ ، لم يحفظوا من تاريخ صدر هذه الأمة الا بعض الهنات الاستثنائية التي بولغ فيها بدعايات الشيعة والشعوبية وأهل الاهواء . اما الامور التي يقوم بها بنيان الدولة والتي يتحقق بها صلاح الامة ، وهي التي غالبة على رجال القرن الاول من حاكمين ومحكومين ، فقد اهملت المدارس تعليمها ، فأهمل المعلمون العناية بها ، فعمت الجهالة بها جمهور الامة وكان على الصالحين البعيدي النظر من مدرسي التاريخ في مدارس الاقطار العربية والبلاد الإسلامية أن يتحرّوا الاسباب التي كان بها فلاح سلفنا حتى كانوا هم اصحاب اعظم دولة في الارض ، فينيروا جوانب هذه الحقائق التاريخية لابناء الجيل ، ليقنعوهم بأن سيادة جيلهم متوقفة على إحيائها .

اقول هذا بعد تلاوتي ترجمة صفوان بن أُمية بن خلف الجمحي احد اصحاب رسول الله فقد روى الحافظ ابن حجر في الإصابة عن الزبير بن بكار عن عمه وغيره من شيوخ قريش ان ابنين لصفوان بن أُمية بن خلف - وهما عبد الله بن صفوان وعبد الرحمن الاكبر ابن صفوان - وفدا على امير المؤمنين معاوية في دمشق وكان معاوية خال عبد الرحمن الاكبر ، اما اخوه عبد الله بن صفوان فكان من ام اخرى . فقدّم معاوية عبد الله مع بُعده عنه على عبد الرحمن مع انه ابن اخته . فلما علمتْ ام حبيبة بنت ابي سفيان - اخت معاوية وخالة عبد الرحمن -

بأن امير المؤمنين قدم عبد الله على ابن اختها عاتبته في ذلك ، فأراد ان يقيم لها الحجة على صواب ما فعل ، فأذن لعبد الرحمن فدخل عليه فقال له معاوية :

– سل حوائجك !

فذكر دَيناً ، وعيالاً . فأعطاه وقضى حوائجه .

ثم اذن لعبد الله وقال له : – سل حوائجك !

فقال : تخرج العطاء ، وتقرض للمنقطعين ، وترفد الارامل القواعد، وتتفقد احلافك الاحابيش .

قال معاوية : أفعل ُكلّ ما قلت . فهلم حوائجك !

قال عبد الله بن صفوان : واي حاجة لي غير هذا ؟ أنا اغنى قريش ...

ثم انصرف !

فقال معاوية لاخته : كيف رأيتِ ؟

● ●

ان خالاً يؤثر ابن ضرة اخته على ابن اخته لأنه انفع للأمة ، وارفع نفساً واعف عن بهرج العاجلة ، خليق بأن يعد في الصالحين من ولاة امر المسلمين ، وأن يعرف الشيء له هذه الفضيلة وامثالها ، لتكون هذه الاخلاق محببة الى الذين يحتمل ان يلوا شيئاً من امور الناس في المستقبل ، او – على الأقل – ليعملوا بهذه الاخلاق في خاصة شؤونهم ، وفي مختلف تصرفاتهم، فيعم الخير ابناء الجيل، ويكون التقدم فيه للأفضل لا للأقرب ...

هات حبالــك !

من أخلاق العرب

لما وصل الخبرُ إلى العراق بوفاة امير المؤمنين يزيد بن معاوية بدمشق ، كان اميره على العراق عبيد الله بن زياد ، وكان يومئذ في البصرة ، فجـاءه الخبر بأن الكوفة قد انتقضت عليه ، فأزمع السفر الى الشام واستخلف على البصرة مسعود ابن عمرو العتكي كبير الازد وكان يقال له قمر العراق - فركب مسعود في موكب من فرسان اليمن وربيعة وخرج من منازل الأزد معلماً بقباء ديباج اصفر ، حتى اذا غشي المسجد الجامع ارتقى المنبر وجعل يأمر بالسنّة وينهى عن الفتنة. وكان في سجن عبيد الله بن زياد نحو اربعة آلاف من الحرورية بعضهم من خوارج بني تميم وآخرون من خوارج سائر القبائل ، فاستطاعوا ان يحصلوا على السلاح ، واندفعوا من السجن فقصدوا المسجد الجامع وقتلوا مسعود بن عمرو . وكـان آخرون من بني تميم - من غير الخوارج - ارادوا سيـد تميم الاحنف بن قيس على ان يظهر بهم في هذا اليوم ويكون له الامر ، فآثر العزلة والبعد عن الفتنـة ، فاختار بعضهم للإمارة عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي ، وكان عبد الله بن الحارث لا يزال في بيته عندما قصد مسعود العتكي منبر الجامع وقتل وهو على اعواده ، فهاجت الازد واتهمت بني تميم بقتل مسعود ، وإنما قتله الخوارج ، وركبت بنت مسعود الى مربد البصرة تطالب بدم أبيها ، وتوالت رجال من بني تميم ونساء من نسائهم على الاحنف تستفزّه للأهبة ولدفع الهائجين من الازد وانصارهم من ربيعة ، حتى اقاموا عنده البينة الشرعية على اعتداء الأزد على بعض الضعفاء ، فدعا الأحنفُ حينئذ عبسَ بن طلق الصريمي

فعقد له اللواء على تميم . ودعا الله لهذه الكتيبة بعد ان ولت فقال «اللهم لاتخزها اليوم ، فإنك لم تخزها فيما مضى » .

ولما رأى شباب بني تميم ان الاحنف قد تشمر للدفاع جعلوا يقولون: «هاجت زبراء ! » اي غضب الاحنف ، وزبراء امة له ، فكنـُّوا بها عنـه من إجلاله . وكانت المقـاتلة من بني تميم حريصين على خطـة الدفاع وعلى إخمـاد الفتنـة ما استطاعوا ، حتى لقد ناشدوا الازد وهم يقاتلونهم فقالوا لهم (فيما رواه الطبري ٢ : ٤٦٢ طبع أوربا ، و ٧ : ٣١ طبع مصر) .

« اللهَ الله يا معشر الازد في دمائنا ودمائكم، بيننا وبينكم القرآن ومن شئتم من اهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا بينة انا قتلنا صاحبكم (اي مسعود ابن عمرو العتكي) فاختاروا افضل رجل فينا فاقتلوه بصاحبكم ، وان لم تكن لكم بينة فإنا نحلف بالله ما قتلنا ، ولا امرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً . وان لم تريدوا ذلك فنحن فدى صاحبكم بمائة الف درهم » .

فكفَّ الفريقان عن القتـال . ثم جاء الاحنف بن قيس في وجوه مضر الى منزل زياد بن عمرو العتكي ، فقال الاحنف :

- يا معشر الازد ، انتم جيراننا في الدار ، واخوتنا عند القتـال ، وقـد اتينـاكم في رحالكم لإطفـاء حشيشتكم وسلّ سخيمتكم ، ولكم الحكم مرسلا ، فقولوا على احلامنا واموالنا ، فإنه لا يتعاظمنا ذهاب شيء عن اموالنا كان فيه صلاح بيننا .

فقالوا : — أتدون صاحبنا عشر ديات ؟

قال لهم الاحنف : — هي لكم .

ثم ندب الاحنف ابن اخته إياس بن قتادة بن موألة العبشمي (احد بني عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم) ليحمل من اغنياء تميم حمالات تلك الفتنة ، دية مسعود المضاعفة عشرة اضعاف ، وديات غيره من عامة الناس الذين ذهبوا ضحايا الفتنة . قال إياس (فيما رواه ابو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٥ طبع مصر) فجهدتُ ان يقوم لي بهذه الحمالات اهل الحضر فلم يفعلوا ، ولم يغنوا فيها شيئاً . فخرجتُ الى البادية ، فحملوا يرمونني

بالبكر (اي بالبعير) وبالإثنين، حتى اجتمع لي من حمالتي سواد صالح. وصرت بالرمل الى رجل ذكر لي ، فلما دفعت اليه اذا هو رجل أسيود أفيحج، أعيسر، أكيشف (١) فلما انتسبت له وذكرت له حمالتي قال :

– قد بلغني شأنك ، فأنزل !

قال إياس : فوالله ما قراني ، ولا برّ عليّ ، فلما كان من الغد أقبلتْ إبله لوردها . فإذا الأرض مسودة ، واذا هي لا ترد في يوم لكثرتها . وقد ملأ غلمانه حياضه ، فجعل كلما ورد رِسلٌ من إبله جاء يعدو حتى ينظر في وجهي فيقول :

– أنت حويمل بني سعد !

ثم يخرج يرقص ، فأقول في نفسي : – أخزى الله هذا، وأخزى من دلني عليه !

حتى اذا رويت الإبل وضربت بعطن – اي بركت بأعطانها – نادى الرجل :

– أين حويمل بني سعد ؟

قلت : قريب منك !

قال : – هات حبالك !

فما ترك لي حبلاً الا ملأه بقرنين من إبله ، ثم يقول :

– هات حبالك !

فجئنا بغرائر محالبنا ، وأرشية دلائنا ، وأروية زمائلنا ، وما زال يقول :

– هات حبالك !

حتى حللنا عصم قربنا ، وعقل إبلنا ، وخطمها فملأها لنا ، ثم قال :

– حبالك !

قلت : – لا حبال .

فقال : – قد عرفت من دقة ساقيك أنه لا خير عندك (أي أن إياساً لبخله يحسب الناس كلهم بخلاء فلم يستعد الاستعداد الكافي لاستقبال الخير والكرم) .

---

(١) الفحج : تباعد ما بين اوساط الساقين ، والنعت منه « افحج » والتصغير للتحقير ولذلك قال اسيود اي اسود ، واعيسر اي اعسر لا يستعمل يده اليمنى . والاكيشف تصغير الاكشف وهو الذي له شعرات ثائرة في قصاص ناصيته ، والعرب تتشاءم به .

وعاد إياس بن قتادة الى خاله الأحنف في البصرة بما معه من الخيرات، فودى بنو تميم مسعودَ بن عمرو بعشر ديات ، وباوأوا بين القتلى ، وتم الصلح .

وفي ذلك يقول سوار بن حيان المنقري :

ألم تكن في قتل مسعود عبرْ   جاء يريد إمرة فما أمر
حتى رأى الموت قريباً قد حضر   يطمهم بحر تميم إن زخر
وقيس عيلان ببحر فانفجر   من حولهم فما دروا أين المفر
حتى علا السيل عليهم فغمر

التربية في قصور بني أمية

قال العتبي :

أسرَّ معاوية رضي الله عنه الى ابن اخيه عمرو بن عنبسة بن أبي سفيان حديثاً . قال عمرو : فأتيت أبي وقلت له :

ـ ان أمير المؤمنين أسرَّ اليَّ حديثاً ، أفأحدّثك به ؟

قال : ـ لا لأنه من كتم حديثه كان الخيار اليه، ومن أظهره كان الخيار عليه ، فلا تجعل نفسك مملوكاً بعد ان كنت مالكاً .

فقلت : ـ أو يكون هذا بين الرجل وأبيه ؟

قال : ـ لا . ولكن أكره أن تعوّد لسانك اذاعة السر .

قال عمرو : فرجعت الى عمي فأخبرته بذلك ، فقال .

ـ أعتقك أخي من رق الخطأ .

سعيد بن المسيب

١٥ هـ – ٩٣ هـ

شريفٌ من أشراف بني مخزوم من قريش رهط خالد بن الوليد ، وأم سلمة زوج النبي ﷺ ، وأبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة .

ولد في المدينة المنورة في السنة الثانية لخلافة عمر بن الخطاب ، وكان أبوه وجدُّه من أصحاب رسول الله ، أسلما عاما فتح مكة . وهو : سعيد ، بن المسيب ، بن حَزْن ، بن أبي وهب ، بن عمرو ، بن عائذ ، بن عمران ، بن مخزوم ، بن يقظة ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب القرشي .

كان مثال النباهة والاستقامة من طفولته ، لزم وهو صغير مجالسَ عمر أمير المؤمنين ، وسمع منه ومن عثمان وعليْ وسعد بن أبي وقاص وابن عباس وابن عمر وكثير من الصحابة . وهو الحجة في الأحاديث التي رواها أبو هريرة عن النبي ﷺ ، لأن سعيد بن المسيب كان صهره زوج ابنته .

عاش حريصاً على فهم أحكام القرآن وتبين مقاصده ، كما كان يفهمها الصحابة . وعلى تلقي أحاديث الرسول وسماعها من أفواه الذين سمعوها من النبي ﷺ ، حتى كان يسافر الايام والليالي ليسمع حديثاً واحداً من فم صحابي لا يحفظ غيره ذلك الحديث . وبذلك صار رأسَ أهل المدينة المقدم عليهم في الفتوى وعلوم الشريعة . ويعد من تلاميذه أمثال عطاء بن أبي رباح ، ومحمد الباقر بن علي زين العابدين ، وعمرو بن دينار ، وابن شهاب الزهري .

جاء رجل الى عبد الله بن عمر بن الخطاب ليسأله عن مسألة ، فقال له عبدالله ابن عمر : ائت ذاك (وأشار الى سعيد بن المسيب) فاسأله ، ثم ارجع إليْ

فأخبرني . ففعل الرجل وأخبره ، وكان سعيد لا يزال شاباً ، فقال عبد الله بن عمر لمن حوله : ألم أخبركم أنه احد العلماء ؟ وقال فيه عبد الله بن عمر ايضاً : لو رأى هذا رسول الله ﷺ لسره .

وسعيد بن المسيب احد الفقهاء السبعة في عصر التابعين وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير بن العوام ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وعبدالله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وخارجة بن زيد بن ثابت الانصاري، وسليمان ابن يسار الهلالي ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

ووافقت خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٧٦ هـ) زمن النضوج من حياة سعيد بن المسيب ، وكانت شهرة سعيد في العلم والتقوى قد ملأت أرجاء العالم الإسلامي ، وكان عبد الملك لا يرى نفسه أقل من سعيد فقهاً في علوم الشريعة ، ولا أقل حرصاً منه ومن أمثاله على اقامة أحكامها واعزاز كلمة الله ، ويمتاز بما اختصه الله به من توسيع دائرة الفتوح . وجميع المشتغلين يومئذ بعلوم الشريعة كانوا يعلمون أن عبد الملك كان قبل ولايته الخلافة من رؤوسهم النابهين ، وان امام دار الهجرة مالك بن أنس اعتبر أقضية امير المؤمنين عبد الملك مرجعاً في احكام الاسلام فدونها في كتاب الاسلام الذي سماه (الموطأ) : لكن أهل الصلابة في العلم والفقه كانوا يؤاخذون أمثال عبد الملك بن مروان بأنهم وان تمسكوا بالشريعة في كل الاحوال واقاموا احكامها كما يجب ، الا انهم تساهلوا في الامور التي تتصل بالملك والسياسة ، وكان يجب عليهم ان لايتساهلوا في ذلك اقتداء بسيرة الخلفاء الاربعة الراشدين . وامثال عبد الملك كانوا يرون ان ما كان عليه الخلفاء الراشدون انما كان فوق مستوى البشر ، وان من يلي الملك بعدهم اما ان يتساهل من الناحية التي تتصل بالملك والسياسة فقط او ان يعم تساهله جميع النواحي ، فهم يرون انفسهم من اهل الخير والصلاح لانهم لم يتساهلوا الا من الناحية السياسية ، فإذا امنوا على ملكهم ولم ينازعهم احد فيه فإنهم مستقيمون على طريق الشرع في جميع الاحوال الأخرى .

فهذه النقطة كانت موضع الخلاف بين امثال عبد الملك بن مروان وامثال سعيد بن المسيب . يريد سعيد ان يكون ائمة المسلمين من الخلفاء المعاصرين كالخلفاء الراشدين ، ويريد عبد الملك أن يكتفي الناس منه بالاستقامة على الشرع في كل

شيء بشرط أن يتسامحوا معه فيا يتخذه من الوسائل لاستبقاء الملك واستتبابه في أسرتهم وبنيهم . وهو – بينه وبين نفسه – يعتذر لنفسه بأن رعيته لا تبلغ مستوى رعية أبي بكر وعمر في التقوى واقامة سنن المجتمع الاسلامي ، وليس للخليفة في زمان التابعين مثل الاعوان على الحق والخير الذين كانوا في الصدر الاول ، وكما تكون الامة يكون ولاتها . هذا اذا قارنا زمن التابعين – ولاته ورعيته – بزمن الصدر الأول ، اما اذا قارناه بمن بعدهم ، او بالمجتمع الانساني في اية أمة اخرى فلا شك انه من اروع العصور الذهبية في تاريخ البشر .

أراد عبد الملك أن من قدر كبير أولاده (الوليد) فعقد له البيعة بولاية العهد بعده ثم لأخيه سليمان ، وخطب للوليد بنت سعيد بن المسيب لما بلغه من علمها وتقواها وجمالها ، مضافاً الى ذلك نسبها في قريش . وكان سعيد يومئذ في وطنه مدينة الرسول ، وعبد الملك في عاصمة ملكه دمشق . وكان أمير المدينة لعبد الملك صهراً له من وجهاء بني مخزوم وهو هشام بن اسماعيل بن هشام (أخي خالد ابن الوليد ، وهشام بن اسماعيل خالُ هشام بن عبد الملك ، وباسمه سمي هشام ابن عبد الملك . فاجتمع هشام بن اسماعيل المخزومي أمير المدينة بابن عمه سعيد ابن المسيب المخزومي فقيهها وقال له : إن أمير المؤمنين عبد الملك عقد البيعة لابنيه الوليد وسليمان ، وقد بايعهما على ذلك وجوه أهل الحل والعقد في جميع الأمصار ، وأراد أن يزيد ابنه الوليد تكريماً فخطب له ابنتك ليجعله صهرك . فكان جواب سعيد بن المسيب على ذلك أن رفض قبول الوليد بن عبد الملك صهراً له ، وأبى أن يشترك في البيعة له بولاية العهد . وقد حاول هشام بن اسماعيل أمير المدينة أن يتلافى هذا الموقف بكل وجوه الحكمة ففشل ، ومن ذلك أنه وسّط بينه وبين سعيد طائفة من كبار أصحاب سعيد ، وفيهم من هم بمنزلته في العلم والصلاح ، مثل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبدالله ابن عمر (وهؤلاء الثلاثة من الفقهاء السبعة) ، وعرضوا على سعيد بن المسيب أن يقرأ عليه أمير المدينة كتاب أمير المؤمنين بولاية العهد لابنيه وأن يسكت سعيد فلا يقول لا ولا نعم ، أو أن يجلس في بيته يوم البيعة العامة فلا يشترك فيها ، أو أن يغير مجلسه في المسجد فيكتفي الأمير بأن يرسل اليه من يبحث عنه

في مجلسه المعتاد فلا يجده فيه ، فأبى أن يجيب إلى شيء من ذلك وجلس في مجلسه المعتاد ودُعي للبيعة فرفض ، فعوقب بالجلد ، وأبى أن يصاهر ولي العهد .

وكان له عطاء سنويٌ من بيت المال مثل الذي يعطى لمن هم في طبقته من أبناء الصحابة ، ولم يكن يتناوله قط ، ويعيش من تجارة له في الزيت يستعمل فيها نقوداً له تبلغ أربعمائة دينار .

وعرض عليه مرة عطاء من بيت المال يبلغ نيفاً وثلاثين الفاً فقال : لا حاجة لي فيها !

وقال تلميذه أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب في مسجد المدينة ، ففقدني أياماً ، ثم جئته فقال لي :

– أين كنت !

قلت : – تُوفيت أهلي فاشتغلت بها .

فقال : – هلا أخبرتنا فشهدناها ؟

قال أبو وداعة : ثم أردت أن اقوم ، فقال لي :

– هل احدثت امرأة غيرها ؟

فقلت : – يرحمك الله ، ومن يزوّجني ؟ وما املك الا درهمين او ثلاثة !

فقال : – ان انا فعلت تُفعل ؟

قلت : نعم .

فحمد الله ، وصلى على النبي ﷺ ، وزوّجني بنته على درهمين (اوقال ثلاثة) وهي البنت التي أبى سعيد بن المسيب ان يزوجها لولي عهد الخلافة . قال ابو وداعة . فقمت وما ادري ما اصنع من الفرح . فصرت الى منزلي ، وجعلت اتفكر ممن آخذ واستدين ، وصليت المغرب وكنت صائماً ، فقدمت عشاي لافطر (وكان خبزاً وزيتاً) واذا بالباب يقرع ، فقلت :

– من هذا ؟

قال : – سعيد !

ففكرت في كل انسان اسمه سعيد الا سعيد بن المسيب فإنه لم ير منذ اربعين سنة الا ما بين بيته ومسجد رسول الله . فقمت وخرجت واذا بسعيد بن المسيب، فظننت انه قد بدا له (اي ندم على تزويجي) فقلت :

– يا ابا محمد ، هلا ارسلت إليّ فأتيتك ؟

قال : لا ، انت احقُّ ان تؤتى .

قلت : – فما تأمرني ؟

قال : رأيتك رجلاً عزباً قد تزوّجت ، فكرهت ان تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك (فإذا بنته قائمة خلفه ، في طوله) .

ثم دفعها في الباب ، ورد الباب . فسقطت الفتاة من الحياء. قال ابو وداعة، فاستوثقتُ من الباب ثم صعدت السطح فناديت الجيران ، فجاءوني وقالوا :

– ما شأنك ؟

فقلت : زوّجني سعيد بن المسيب اليوم ابنته ، وقد جاء بها على غفلة ، وها هي في الدار :

فنزلوا اليها ، وبلغ أمي الخبر فجاءت وقالت :

– وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن اصلحها ثلاثة ايام .

فأقمت ثلاثاً ، ثم دخلت بها ، فإذا هي من أجمل الناس ، واحفظهم لكتاب الله تعالى ، واعلمهم بسنة رسول الله ﷺ ، واعرفهم بحق الزوج .

قال ابو وداعة : فمكث سعيد شهراً لا يأتيني ولا آتيه ، ثم اتيته بعد شهر وهو في حلقته ، فسلمت عليه ، فردّ عليّ ولم يكلمني حتى انفضّ من في المسجد ، فلما لم يبق غيري قال :

– ما حال ذلك الانسان ؟

قلت : هو على ما يحب الصديق ويكره العدو .

فانصرفت إلى منزلي ...

الحجــاج يشجع على الصدق

كان ربعى بن خراش التابعي ثقة لم يكذب قط في حياته ، وكان له ابنـان ثائران على الدولة في زمن الحجاج بن يوسف ، وكان الحجاج جاداً في طلبهـما . فقال بعض رجال الأمن للحجاج :

– إن أباهما لم يكذب قط ، فلو أرسلتَ اليه فسألته عنهما .

فأرسل الحجاج إلى ربعى بن خراش ، فلما صار عنده قال له :

– أين ابناك ؟

قال : هما في البيت .

فقال الحجاج : قد عفونا عنهما لصدقك .

طلائع الاسلام الى الهند

إن المرُوءةَ والسّماحة والنّدى لمحمّد بن القاسم بن محمّدِ
ساسَ الجيوشَ لسبعَ عشرةَ حجةً يا قُرب ذلك سُؤدداً من مَولد

الاتجاه نحو الشرق

كانت للإسلام في صدره الأول سياسة عليا فيما يتعلق بالتوغل في الشرق . بعد أن قوّض سعد بن أبي وقاص عرش الأكاسرة ، وأطفأ نار المجوسية إلى الأبد . وكان مردُّ هذه السياسة إلى أحاديث نبوية جديرة بطول الدراسة والتفكير . منها حديث أم المؤمنين زينب في صحيح البخاري أن النبي ﷺ استيقظ من النوم محمرٌّ الوجه وهو يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من سدّ يأجوج ومأجوج مثل هذه ... الخ » وحديث سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب في صحيح مسلم : « ان الفتنة تجيء من ها هنا – وأومأ بيده نحو المشرق » . وقد قلنا في ص ١٧٧ ان الحافظ ابن حجر تكلم عن ذلك في فتح الباري (١٣ : ٨٨) وهو موضع لا يزال الى الآن في حاجة الى طول التفكير فيه ، وبُعد النظر في مراميه . ولذلك كتب أمير المؤمنين عمر الى القائد الحكيم الاحنف بن قيس – فيما ذكره ابن الاثير في فتح خراسان من حوادث سنة ٢٢ – فأمره بأن يقتصر على ما دون النهر ولا يجوزه ، وقال له بالحرف : وددتُ لو ان بيننا وبينها بحراً من نار » وقبل ذلك في سنة ١٥ اراد الامير القائد المرشد عثمان بن أبي العاص الثقفي (وهو من شيوخ سعيد بن المسيب ونافع بن جبير ومحمد بن سيرين وقال عنه الحسن البصري : ما رأيت افضل منه) ،

اراد هذا الامير الداعية وهو وال لعمر على البحرين وعُمان والخليج العربيّ ان يوجه دعاة الاسلام – من ناحيته – الى الهند ، وبالفعل ارسل اخويه الحكم بن أبي العاص الى بروص والمغيرة بن أبي العاص الى خور الديبل ، فظفرا وانتصرا ، وارسل جيشاً خفيفاً الى تانة مستكشفاً ، ثم كتب الى عمر بخطة خربية تبدأ الخلافةُ بالجري عليها في هذا الوجه فلامه عمر وكتب اليــه : « يا اخا ثقيف ، حملتَ دوداً على عود . واني احلف بالله لو اصيبوا لأخذت من قومك مثلهم » .

وانا لا ازعم ان موقف عمر تفسير قطعي للأحاديث التي اشرنا اليها ، فعمر كان يحب التأني والتثبت ،ولعل من تأنيه وتثبته التوقف في تفسير هذه الاحاديث الى ان يستنير له طريقها ، ولكنها بلا شك كان لها حساب كبير في خطة عمر وسياسته ، ولذلك كان قوله فيما يتعلق بالباب وما وراء الباب ، وما يتعلق بما وراء النهر وما دون النهر : « وددت لو ان بيننــا وبينهـــا بحراً من نار » اما إندونيسيا والهند والسند والافغان فقد اثبت التاريخ ان في الاتصال بهن وبأمثالهن خيراً كثيراً ، ولله الحمد والمنة .

استكشاف المسلمين للهند

وفي خلافة امير المؤمنين عثمان ارسل واليه على العراق – وهو عبــد الله بن عامر بن كريز – مستكشفين الى الهند باشارة من امير المؤمنين ، وكان يرأسهم حكيم بن جبلة العبدي . فلما عادوا وجههم والي العراق الى امير المؤمنين عثمان في المدينة ، فقال له حكيم بن جبلة وهو يذكر الهند : « يا امير المؤمنــين قــد تعرّفتها وتنحرتها » .

قال عثمان : – فصفها لي .

قال حكيم : – ماؤها وشل ، وتمرها دقل ، ولصها بطل . ان قلّ الجيش فيها ضاعوا ، وان كثروا جاعوا .

فقال له عثمان : اخابر ام ساجع ؟

قال : – بل خابر (فلم يغزها عثمان احداً) .

وفي اواخر سنة ٣٨ واوائل سنة ٣٩ توجه الى ثغور الهند مستكشف آخر من بني عبد القيس ايضاً وهو الحارث بن مرة متطوعاً بإذن من امير المؤمنـــين

عليّ ، وكان اتجاهه الى ارض قيقان من بلاد السند عن طريق خراسان ، فظفر واصاب مغنماً ، وقسم في يوم واحد الف رأس . لكن الامر انتكس عليه بعد ذلك فقتل ومن معه بأرض قيقان الا قليلاً ، وكان مقتله سنة ٤٢ .

الطلائع الأولى

وفي سنة ٤٤ وجه معاوية بن أبي سفيان الى تلك الجهات قوة منظمة اكثر رجالها من الازد معقودة اللواء لزعيمهم المهلب بن أبي صفرة ، فدخل ارض بنّة (بين كابل والملتان) فشهدت تلك الأودية والجبال من بطولة رجال هذه الحملة ما يعد نموذجاً لأمثالها في الفتوح الإسلامية الأولى ، وفيها يقول أحد المجاهدين الذين ساهموا في وقائعها :

ألم تر أن الأزد ليلة بيتوا ... ببنة كانوا خير جيش المهلب

والظاهر أن حركات الإسلام العسكرية احتاجت بعد ذلك إلى المهلب في مواطن أخرى ، فأرسل معاوية الى ثغور الهند عبد الله بن سوّار العبدى ، وهو من سراة الدولة الأموية وكرمائها وشجعانها ، فكان معسكره يتنقل في البلاد ، وقد أعدّ :

للقى العدا بيض السيو ... ف وللندى حمر النعم

فقال فيه أحد شعراء معسكره :

وابن سوّار على عداته ... موقد النار وقتال السغب

والسغب الجوع . فكانت الآفاق التي ينزلها ابن‌سوار بجيشه لا تعرف الجوع ولا الجبن ولا التردد في الحق والخير . وقد منع ابن سوار أن توقد في آفاقه نار للطعام غير ناره ، فكان في مسيره مبشراً بهداية الإسلام ، وكرم أخلاق العرب ، ومحققاً للمثل المليا في الحركات العسكرية النبيلة . ولم تطل مدة هذا المحارب للجوع وللباطل ، فقد قتله بعض الترك غيلة ، وكانت منيته في تلك الديار ، رحمه الله ورضي عنه .

ولما بلغ معاويةَ خبرُ اغتيال ابن سوار أمر زياداً بأن يسير جيشاً من العراق إلى الهند فبعث بقوة على رأسها سنان بن مسلمة بن المحبق الهذلي ، وكان فاضلاً متألهاً ، ففتح مكران عنوة ومصّرها وأقام الشرع وضبط البلاد . ثم تولى هذه

الجهة بعده راشد بن عمرو الجديدي من الأزد . ثم جد الجد في ثغور الهند فأرسل زياد ابنه عباداً وجعل طريقه إلى الهند من (سنـاروذ) إلى (كهز) حتى (روذبار) من أرض سجستان ، ومنها دخل الهند فنزل (كش) وأتى (قندهار) ففتحها ، وقد سجل الشاعر العظيم يزيد بن مفرغ بطولة هذا الجيش بقوله :

كم بالجروم وأرض الهند من قدم ومن سراهنك قتلى لا هم قبروا
بقنـدهار ، ومن تكتب منيتـه بقنـدهار يرجم دونـه الخبر

وأردف زياد بعد ابنه عباد قوة بقيادة أبي الأشعث المنذر بن الجارود العبدي ، ففتح (قُصدار) ومات بها ، فقال أحد شعراء جيشه :

حلّ بقصدار فأضحى بهـا في القبر لم يقفل مع القافلين
لله (قصدار) وأعنـابها أيّ فتى دنيا أجنّت ودين

وتولى القيادة والولاية بعده على فتوح الهنـد أيام عبيـد الله بن زياد حرى بن حرى الباهلي ، فاتسع في الفتوح . ومن تلـك الأيام رسخ الإسلام في البوقان ، وافتخر أحد مجاهدي جيش ابن حرى بمواقفه في الدفاع عن الحق فقال :

لولا طعانيَ بالبوقان ما رجعت منـه سرايا ابن حرى بأسلاب

الحجاج بن يوسف وجهاده في الهند

ولما صار أمر العراق والمشرق إلى رجل الدولة الحجاج بن يوسف الثقفي ، كان ميدان الهند قد تحول من ساحة استكشاف واختبار عسكري ، إلى أرض استقر الإسلام ببعض زواياها ، وصار له رجاء بالازدهار فيها ، فاستعمل الحجاج على هذه الجبهة العسكرية سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي ، وقتل هذا في حادث فردي ، فأرسل الحجاج مجاعة بن سعر السعدي ففتـح طوائف من قندابيـل ، وخلد الشعر العربي جهاده بقول أحد المجاهدين معه :

ما من مشاهدك التي شاهدتها إلا يزينـك ذكرها مجـاعا

ولكن المنية لم تمهل هذا المجاهد غير سنة واحدة ، فدفن بمدينة مكـران وخلف على القيادة في الهند بعده محمد بن هارون بن ذراع النمري . وكـان في جزيرة الياقوت من جزائر الهند نسوة مسلمات ولدن في تلك الجزيرة من آباء من العرب المسلمين قدموا إلى الهند تجاراً ودعاة قبل أن يصلها المجاهدون والفاتحون ،

فأراد ملك جزيرة الياقوت أن يتقرب إلى القائد العربي محمد بن هارون النمري وإلى أستاذه الحجاج بن يوسف، فأحضر سفينة ووضع فيها هؤلاء النسوة المسلمات وقال لمحمد بن هارون :

– هذه هديتي الى أميرك الحجاج بن يوسف .

ومخرت السفينة متجهة نحو سواحل العرب ، فخرج قرصان من ميدالديبل في بوارج فأخذوا السفينة بمن فيها ، فنـادت امرأة منهن – وكانت تميميـة من بني يربوع – :

– ياحجاج!

وطار الخبر الى الحجاج باستغاثتها ، فأجابها من وراء البحار والجبال :

– يا لبيك !

وكتب الى الراجة داهر امبر الجهة التي وقع الاعتداء في ساحلها يسأله تخلية النسوة ، فكتب اليه الراجة :

– انما اخذهن لصوص لا اقدر عليهم .

فأغزى الحجاج عبيدَ الله بن نبهان بلاد الديبل، فقتل فيها شهيداً. واستطال الحجاج المسافة بينه وبين الهند ، فأمر والي عمان بديل بن طهفة البجلي بأن يسير بنفسه وبكل ما عنده من رجال الحرب حتى يأتي الديبل ويؤدب طغاتها وعلى رأسهم الراجة داهر . وأسرع اليهم بديل بن طهفـة فحطمهم بخيـله وسيوف المجاهدين معه ، الا ان فرسه نفر به وهو في معمعة القتال فأطاف العدو به وقتلوه، فكان الشهيد الثاني من القادة السادة المدفونين في تلك الأرض .

اصغر قادة الجيوش سناً

ووصل النذير إلى الحجاج بمقتل قائده ، فنثر كنانته بين يديه واختار منها أصغر قائد في الأرض يومئذ، وهو تلميذه وابن عمه محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم ابن أبي عقيل بن عمرو بن مسعود الثقفي ، وكان محمد بن القـاسم هذا عندما وقع عليه اختيار الحجاج لهذه المهمة صبيـاً في السادسة عشرة من عمره ، ولم يكن الحجاج يعبث أو يهزل ساعة توسم هذا الغلام بفراسته ، فالحجاج لا يعرف العبث ولا الهزل ، بل كان ملتهب القلب بنداء تلك العربيـة من بني يربوع يوم هتفت

« يا حجاج ! » ، وزاد قلبه سخطاً وغضباً جواب الراجة داهر بأن البغـاة على النسوة العربيات لصوص ، وزعمه أنه لا يقدر عليهم . ثم تحول الحجـاج نقمة إلهية على الشر وأهله لما جاءه خبر استشهاد قائديه عبيد الله بن نبهان وبديل بن طهفة . فكان اختياره لهذا القـائد وهو في ميعة الصبا اختيـارَ الخبير الذي يكتشف الرجولة في أصحابها من قبل أن يعرفها أصحابها في أنفسهم . وهكذا رمى الحجاج الراجة داهر بهذه الصاعقـة القاصمة لظهور المبطلين ، الرحيمـة بالوادعين والآمنين ووقف في دار إمارته فيما بين دجلة والفرات يترقب نجـاح فراسته في فروسيـة ابن عمه الصغير فكتب اليه – وكان بعيداً عنه في أرض إيران – يأمره بأن يتخير من أبطال الحاميات العربية في الأصقاع الإيرانية من يقع اختياره عليهم ، واختط له خطة السير أولاً إلى مدينة الري ، وهي مدينة طهران الآن ، وجعل رياسة أركان حربه إلى أبي الأسود جهم بن زحر الجعفي ، وأمرهما إذا وصلا إلى شيراز أن يتريثا لأنه سيلحق بهما نجـدات أُخرى ، ولم يبلغا شيراز حتى دنت منها قوة انتخبها الحجاج من أشجع أبطال جيوش الشام ، وكانت لا تزيد على ستة آلاف فارس لكنهم يظنون بأنفسهم أن فيهم القدرة على افتتاح الكرة الأرضية وبسط سيادة الإسلام على كل من فيهـا لو أمرهم خليفتهم بذلك ، فانضم الجيش الصغير إلى ذلك القائد الطفل وحرص على أن يجهزهم بكل ما يحتاجون اليه ، حتى الخيط والإبرة ، وحتى الخل احتال الحجاج عليه فأتى بالقطن النظيف المحلوج فأمر بغمسه في الخل الحاذق وجفف في الظل حتى تبخر ماؤه وبقيت فيه مادة الخل مجففة ، وعلمهم إذا احتـاجوا إلى الخل أن يغمسوا القطن الجاف في الماء فيكون منه بعد تصفيته أحسن الخـل وأجوده . وهكذا طارت هذه الحملة العسكرية بعددها ، المستوفية لحاجتها القوية بعزائمها التي تهد الجبال ، حتى اجتاز محمد بن القاسم الثقفي حدود إيران إلى الهند وانتقل من (مكران) التي كانت بيد المسلمين إلى (قنزبور) ففتحها ، ثم الى (ارمائيل) فاستولى عليها ثم وصل الى (الديبل) التي وقع منها العدوان على نساء العرب ، فوجد الحجاجَ قد ارسل الى سواحلها سفناً بالرجال والسلاح والأداة والمؤن ، فخندق محمد بن القاسم حول الديبل ، وركز جيشهُ رايات الإسلام على الرماح

على طول الخندق الذي تحصن وراءه الأبطال الذين لم تر الدنيـا بطولة أعظم من بطولتهم وكان مما بعث به الحجاج الى هذا الجيش منجنيق عظيم يسمونه (العروس) بلغ من ضخامته ان كان يحتاج الى قوة خمسمائة رجل لقذف الصخور الضخمة منه الى الحصون لتحطيمها . وكان في مدينة الديبل (بُدّ) عظيم هو صنم ذلك البلد يقوم عليه شبه منار يعلوه دقل طويل تخفق عليه راية حمراء عظيمـة جداً اذا هبت عليها الريح اطافت بالمدينة . وكان الحجاج قد تلقى من محمـد بن القاسم وصف ذلك من اليوم الأول الذي وصل فيه الى الديبل ، فكتب اليه الحجاج رسالة يأمره فيها بأن يقصر من المنجنيق قائمة وان يوجهه الى المشرق ، ويقصد برميه الدقل القائم على الصنم . ولما فعل المجاهدون ما اشار الحجاج به عليهم في رسالته تكسر الدقل من القذيفة الأولى ، وسقطت راية (البُد) ذليلة ممزقة . فحنق الوثنيون على الجيش المحاصر ، وخرجوا لقتاله ، وكان ذلك ما أراده الحجاج من توجيه قذيفة المنجنيق الى منارة البُد والراية القائمة عليـه ، فلقيهم محمد بن القاسم بأبطاله ، وأخذهم بالسيوف فمزقهم الله كل ممزق. وفيما كان الوثنيون في رعب الهزيمة ، كان المجاهدون يتسلقون سلاليم نصبوها على الأسوار، فدخلوا المدينة عنوة . وبقي الدقل المكسور على منارة البد في مدينة الديبل من أيام الحجاج بن يوسف الى خلافة المعتصم بالله ، ثم هدمت المنارة وماتحتها زمن المعتصم واتخذ مكانها سجن للبلد .

وانتقل محمد بن القاسم من (الديبل) الى مدينة (بيرون) التي نبـغ منهـا أيام الأمير محمود بن سُبكتكين حكيم الاسلام ابو الريحان البيروني أعظم البشر عقلاً فيما يعتقده المستشرق الالماني سخـاو ، فكان من اثر دخول بيرون في ملة الاسلام على يد محمد بن القاسم الثقفي افتخار الحكيم الاعظم أبي الريحان البيروني بعربيته واسلامه ، الى درجة انه كان يفضل ان يُهجى بالعربية على ان يُمدح بالفارسية .

مقتل الراجه داهر

وجعل محمد بن القاسم لا يمر بمدينة الا فتحها ، حتى عبر نهراً دون (مهران). فأيقن داهر من استسلام البلاد لهذا القائد الفتى أن الملك قد خرج من يده ان لم

يجرّب حظه للمرة الاخيرة فيجمع جميع قواه ويلقى المسلمين بوقعة فاصلة . وكانت تلك الوقعة ، فحضرها وهو على فيل وحوله الفيلة ، فاقتتل الفريقان قتالاً لم يسمع بمثله على ما يقول ابو الحسن البلاذري - وهو من اقدم مؤرخي الفتوح وادقهم واصدقهم - فما كان المساء حتى بات السيف العربي في أحشاء الطاغية داهر ، ويقول المدائني إن قاتله من بني كلاب ، وسماه ابن دريد في كتاب الاشتقاق (ص ٢٣٦) القشعم بن ثعلبة الطائي - ونقل البلاذري في فتوح البلدان (ص ٤٢٦) عن ابن الكلبي أنه القاسم بن ثعلبة بن عبدالله بن حصن الطائي ، وهو القاتل :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا … ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غير معرّد … حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلاً … متعفر الخدين غير موسد

ويروي البلاذري عن منصور بن حاتم أن الهنود صوروا داهر وقاتله ، وصورتها كانت في بروص . وأنهم صوروا بديل بن طهفة وصورته كانت في قند ، وقبره بالديبل .

فلما تم لمحمد بن القاسم قتل داهر غلب على بلاد السند ، وانضمت السند الى الوطن الاسلامي من ذلك اليوم ، ولذلك كانت نسبة الاسلام في اهلها الآن أعظم من نسبته في أي قطر من أقطار (دولة باكستان) التي كتبت هذا الفصل احتفالاً بمرور الاسبوع الاول على قيامها ابتهاجاً بهذا الحادث العظيم في تاريخ الاسلام الحديث .

الاستيلاء على ملتان

ومضى محمد بن القاسم يطهر أرض السند من سلطان الكفر والشرك ، إلى أن قطع نهر (يباس) إلى (الملتان) فقاتله أهلها قتالاً شديداً ، وأبلى في ذلك زائدة ابن عمير الطائي وانهزم المشركون فتحصنوا في المدينة ، ونفد زاد محمد بن القاسم وجيشه فأكلوا الحمير ، واستعانوا بالله فهداهم إلى مدخل الماء في المدينة ، فقطعوه عنها فاضطر المشركون الذين فيها إلى الاستسلام . وكان فيها (بد) تهدى اليه الأموال وتنذر له النذور ويحج اليه أهل السند فجمع محمد بن القاسم ما هناك من

الذهب والأموال وجعل يودعها في بيت مساحته عشرة أذرع في ثماني أذرع ، وكان جباة الأموال يلقونها فيه من فوهة في سطحه ، فسميت الملتان (فرج بيت الذهب) وأحصوا ذلك المال فبلغ مائة وعشرين مليون درهم ، ولما أرسل به إلى الحجاج حسب ما أنفقه على حملة محمد بن القاسم فبلغ ستين مليوناً ، فقال الحجاج : « شفينا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددنا ستين الف درهم ورأس داهر » .

عاقبة محمد بن القاسم

إذا كانت من حسنات الحجاج أنه رجل دولة من الطراز الأول إلى حد أن الخلفاء الأولين في دولة بني العباس كانوا يحسدون عليه خلفاء بني أمية من صميم قلوبهم ، فقد كانت له سيئات لا يجوز لغير عمر بن عبد العزيز وأمثاله أن يشتهروا بها ، لأن الساسة المؤرخين — من غير طراز عمر بن عبد العزيز — لو كانوا في مركز الحجاج لا يبعد أن يصدر عنهم الكثير من سيئاته، ولا يستطيعون شيئاً من حسناته وكان من حسنات الحجاج اكتشافه رجولة الرجال ، وتعهده الرجولة فيهم بالتربية والتشجيع ، فكانت الدولة في زمنه غنية بالرجال الذين تتمنى مثلهم أعظم دول الأرض في كل عصر ، إلا أن من سيئاته الإسراف فيما يُحسن الاعتدال فيه . من ذلك تدخله في شؤون لا يسامحه التاريخ بالتعرض لها، كإقحامه نفسه في امر ولاية سليمان بن عبد الملك العهد بعد أخيه الوليد، فكتب إلى قائدنا البطل الفتى محمد بن القاسم أن يخلع سليمان باسم الجيش الذي تحت قيادته ، وما كان لمحمد بن القاسم أن يخالف الحجاج ، وهو اميره من جهة ، ورأس اسرته من جهة ، فضلاً عن كونه مديناً له بوجوده السياسي والعسكري في الدولة . وبعد ان اعلن محمد بن القاسم خلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد مضت الايام وحلت سنة ٩٦ فتبوأ سليمان الخلافة ، ومن بديهيات الامور معاقبة كل من له يد في الخلع ، فصدر امر الخلافة من دمشق بولاية يزيد بن أبي كبشة السكسكي على السند ، وحمل هذا الفتى البطل - محمد بن القاسم — مقيداً مع معاوية بن المهلب ، فقال محمد متمثلا:

اضاعوني واي فتى اضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

قال البلاذري : فبكى أهل الهند على محمد بن القاسم ، وصوروه بالكبرج (الجص) . ولما وصل من السند إلى العراق كان الأمير على خراجهاصالح بن عبد الرحمن ، وهو من موالي تميم ، وكان الحجاج قتل أخاه آدم بن عبد الرحمن لأن آدم كان يرى رأي الخوارج ، فانتهز صالح التهمة الموجهة من الخلافة إلى محمد بن القاسم فحبسه في واسط وأساء اليه ، فقال محمد :

ولئن ثويت بواسط وبأرضها ... رهن الحديد مكبلا مغلولا
فلربّ فتية فارس قد رعتها ... ولرب قرن قد تركت قتيلا

وتغنى مرة وهو يتقلب في محبسه :

لو كنت أجمعت الفرار لوطئت ... إناث أعدت للوغى وذكور
ومادخلت خيل السكاسك أرضنا ... ولا كان من عكٍّ عليّ أمير
ولا كنت للعبد المزوني تابعاً ... فيا لك دهر بالكرام عثور !

وأصدق ما وصف به محمد بن القاسم الثقفي قول حمزة بن بيض أحد شعراء بني حنيفة :

إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قربَ ذلك سؤدداً من مولد

وقول غيره من معاصريه :

ساس الرجال لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك في أشغال

ذكرى محمد بن القاسم

وبعد فإني إذا ذكرت قراء العربية بمحمد بن القاسم لا أذكرهم ببطل تسنم ذروة البطولة وهو في ميعة الصبا ، ولكني أذكرهم بحامل رسالة الإسلام إلى الهند ، حتى كان منهم للإسلام ربع عدد أهله في هذا العصر او خمسهم على اقل تقدير . واجمل ما نذكر به هذا البطل عندما توّج الله الدعوة التي حملها الى الهند بإقامة دولة للإسلام في الهند لعلها - احسنتْ السير في طريق الاسلام الصحيح - ان تكون خير دولة عرفتها تلك البلاد العريقة في القدم . وقد عرفنا مسلمي الهند اوفياء للإسلام ، ومن حسن وفائهم ان يحسنوا تأسيس دولتهم على قواعده لنخجل نحن من انفسنا فنعود الى قواعد الاسلام ، ونتخذ منها اساساً لاوضاعنا ومستقبل كياننا . والله الهادي .

الجراح بن عبد الله الحكمي

القائد المجاهد الشهيد

وهذا نموذج كامل لقادة جيوش الإسلام التي كانت تحمل – في زمن التابعين – العدلَ والرحمة والطمأنينة، والتعاون على الحق والخير، إلى أقطار الأرض، حتى إذا رأى أهلها جمال الإسلام، وأخلاق العروبة، أنِسوا بهما، واطمأنوا اليهما، وتباروا في الإيمان بمبادئهما، والانضواء اليهما.

هو الجراح بن عبد الله بن جعادة بن أفلح بن الحارث بن درّة بن حرب بن سفيان بن سِلهم الحكمي، و (سلهم) أحد بني الحكم بن سعد العشيرة بن مذحج (واسمه مالك) ابن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. وجده الأعلى (الحكم بن سعد العشيرة) أخو جعفى بن سعد العشيرة الذين ينتسب الإمام محمد بن اسماعيل البخادى الجعفي إلى ولائهم، لأنه تربى في بيئتهم بعد إسلام قومه، فتلقى هو وآباؤه محبة الاسلام وأخلاق العروبة من بيوتهم، وكان للأخوين الحكم وجعفى إخوة آخرون منهم صعب وَجَزْء، ولكلٍّ ذرية مباركة حملت ألوية الجهاد في مختلف الآفاق، وملأت صفحات التاريخ بملاحم بطولتها، وفي دواوين الأدب ثمرات شهية من ثمرات قرائح شعرائها وخطبائها وسعد العشيرة أبو الحكم وجعفى كان له إخوة أنجبوا شعوباً وقبائل غنية بالشرف والفروسية والفصاحة والفضل، منهم عنس، وجلد (جد بني الحارث بن كعب، وهم أمة بأمجادها ومفاخرها) ومنهم يحابر (وهو مراد) وأبوهم جميعاً وهو مَذْحِج أخو طيء التي تربعت في ربوعها السماحة والبطولة والكرم، وأخو الأشعر جد أبي موسى الصحابي وبلال بن أبي موسى والامام الأشعري الذي تنسب اليه العقيدة الشائعة في العالم الاسلامي. فهذه البطون الغنية بالبطولة، وبالأخلاق،

وبالبلاغة ، وبالسماحة والكرم ، وبالعلم والتقوى ، وبالأدب والصلاح هي التي ظهر منها الجرّاح بن عبد الله الحكمي القائد المجاهد الفاتح في أذربيجان وأرمينية والقريم والقوقاس وما يليها من البلاد التي كانت في الحرب العالمية الثانية ميدان الصراع بين ألمانيا وروسيا .

اول ظهوره

والجراح الحكمي ، ككل مجاهد في دولة بني أُمية ، التحق بفيالق الجهاد عندما بلغ سن الرشد ، ولم يزل يحمل السلاح ويتقدم الرايات حتى اعترف له الأبطال بالرجولة والثبات يوم البأس والتقدم على الأقران ، وحينئذ بدأ يذكر اسمه عند القادة والولاة حتى أصبح عند الخلفاء من رجال الدولة وأركانها .

وأول ظهور هذا البطل واشتهار اسمه كان فيما وصل اليه علمي — في سنة ٨٢ ، عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد ثار على الدولة الأموية ، ونشبت بينه وبين جيش الحجاج بن يوسف الثقفي معركة دير الجماجم ، فكان الجراح الحكمي قائد كتيبة في جيش الخلافة وكانت له مواقف مأثورة في إطفاء تلك الفتنة . وكان له في صفوف الثائرين أقارب وأصدقاء إذا التقى سيفه بسيوفهم تحوّل الصداقة بين السلاحين ، فيكون للأخلاق حينئذ موقف من مواقف الرحمة والرفق جدير بالوصف والتدوين .

ولايته على البصرة

وفي سنة ٨٧ كان الجراح بن عبد الله الحكمي والياً على البصرة ، عندما كان عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة ، وقتيبة بن مسلم والياً على خراسان ، فبلوغ الجراح هذه المنزلة في زمن أمثالُ هذين من ولاته يعد أمراً عظيماً . وكان ذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك واستمرت ولاية الجراح على البصرة سنوات ، وهذه شهادة له بأنه رجل إدارة كما أنه رجل حرب .

ولايته على خراسان والمشرق

وفي سنة ٩٦ شغب على قتيبة بن مسلم أجنادُه فقتلوه ، فاستعمل الوليد بن عبد الملك عليها الجراح بن عبد الله الحكمي ، ويقول المؤرخون إن يزيد بن المهلب

استعان بالجراح في سنة ٩٧ (أي في أوائل خلافة سليمان بن عبد الملك) فناط به ولاية واسط في العراق ، ثم رأيناه والياً مرة اخرى على خراسان سنة ٩٩ ، واقره عليها امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ثم عزله عنها في رمضان سنة ١٠٠ لشدة بلغته عنه . وذلك ان الجراح كتب الى امير المؤمنين عمر : « اني قدمت خراسان ، فوجدت قوماً قد ابطرتهم الفتنة ، فهم ينزون فيها نزواً ، واحب الأمور اليهم ان تعود الفتنة ليمنعوا حق الله عليهم ، فليس يكفهم الا السيف والسوط . وكرهت الاقدام على ذلك الا بإذنك » . فكتب اليه عمر : « يا ابن ام الجراح انت احرص على الفتنة منهم ، لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً الا في حق . واحذر القصاص ، فإنك صائر الى من يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور » .

الجراح في موقف التهمة والدفاع

وكانت التهمة التي وجهت الى الجراح من اهل خراسان عند امير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز انه لا يشجع الناس على الدخول في الاسلام : فهم يقبلون على هذا الدين برغبة وفهم وايمان ، بالرغم من ان الخراج لا يرفع عنهم ، وان عشرين الفاً منهم تقدموا الى الجهاد بعد ان اسلموا ، والحكومة في خراسان لا تشجعهم على ذلك بصرف العطاء لهم وتزويدهم بالأرزاق .

فكتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح يقول له : « انظر من صلى قِبَلك الى القبلة فضع عنه الجزية » .

وكتب اليه ايضاً « ان الله بعث محمداً ﷺ هادياً ، ولم يبعثه جابياً » .

وما كاد الجراح يفعل ذلك حتى ازداد اسراع الناس الى الاسلام وكاد يخل ذلك بميزانية الدولة ، فأشار بعض رجال الحكومة في خراسان على اميرها الجراح الحكمي بإقامة السنّة فيمن يدخلون في الاسلام ، وذلك بأن يأمرهم بالاختتان ، وخاف الجراح ان يلومه عمر على ذلك فكتب اليه يستأذنه ، فكتب اليه عمر : « ان الله بعث محمداً ﷺ داعياً ، ولم يبعثه خاتناً » (الطبري ٨ : ١٣٤) .

ثم قال امير المؤمنين لمستشاريه من رجال دولته .

- ابغوني رجلا صدوقاً اسأله عن خراسان .

فقيل له : - قد وجدته ، عليك بأبي مجلز لاحق بن حميد .

فكتب امير المؤمنين الى الجراح ان اقبل ، واحمل ابا مجلز ، وخلّف على حرب خراسان (اي على قيادة جيوشها) عبد الرحمن بن نعيم الغامدي ،وعلى جزيتها (اي على ماليتها) عبيد الله بن حبيب .

ولما ازمع الجراح السفر الى دمشق صعد منبر المسجد ،وخطب الناس فقال:

« يا اهل خراسان . جئتكم في ثيابي هذه التي عليّ ، وعلى فرسي ، لم اصب من مالكم الا حلية سيفي » ولم يكن عنده الا فرس شاب وجهه ، وبغلةقدشاب وجهها . ولم يكن يملك نفقة سفره ، فاستدان من بيت المال عشرة آلاف درهم وقال : هي عليّ سلفاً حتى اؤديها الى الخليفة . ولما وصل الى دمشق قال له الخليفة : متى خرجت ؟ قال : لأيام بقين من رمضان وعليّ دين فاقضه عني . قال لو اقمت حتى تفطر ثم خرجت . قضيتُ عنك . فجمع له قومه اعانة من اعطياتهم ، فوفوا ما استدانه من بيت المال لسفره .

ودخل ابو مجلز على امير المؤمنين عمر في جفّة الناس ، فلم ينتبه له عمر، ثم خرج مع الناس . ولما سأل عنه الخليفة قيل له : دخل عليك مع الناس ثم خرج. فاستدعاه وقال له :

- يا ابا مجلز ، لم اعرفك .

فقال له ابو مجلز : فهلا انكرتني اذ لم تعرفني ؟

ثم استشاره الخليفة فيمن يصلح لولاية خراسان ، فوصف له رجال الدولة فيها بأدق ما يوصف به الرجال ، فولي عبد الرحمن بن نعيم الغامدي امامةالصلاة وقيادة الجيش والامارة ، وولي عبد الرحمن القشيري الخراج وإدارة المال .

ولم تستغن الدولة عن كفاءة رجلها الجراح الحكمي ، ذلك القائد العفيف الحازم الشديد ، فرأيناه في سنة ١٠١ والياً على كرمان .

مثال من مروءته

لقد رأيت عفة الجراح وعزوفه ، وانه لم يكن يملك اجرة سفره ، مع انه كان المتصرف في مقاطعات خراسان : جيشها ، وادارتها ، وبيت مالها . فعاد

منها بالثوب الذي جاءها به وعلى الفرس الذي كان معه، ولم يزدد الا حلية لسيفه.

وفي سنة ١٠٢ وقعت الكارثة المحزنة بعصيان آل المهلب والبطش بهم، وقد بلغ من استفزازهم شعور البيت المالك بهذا العصيان ان اراد الامير الحليم الكريم مَسلمة بن عبد الملك ان يبيع اولادهم اهانة لهم وغضباً عليهم، فتقدم الجراح في استنقاذهم الى ان اخلى مسلمة سبيلهم. ولو غير الجراح بن عبد الله الحكمي اراد ذلك في مثل هذا الموقف ما استطاع.

ولاية أرمينية وأذربيجان

وفي سنة ١٠٤ عهد الخليفة يزيدُ بن عبد الملك بالإمارة على أرمينية وأذربيجان الى الجراح بن عبد الله الحكمي، ليتولى – بحزمه وشدته – دفع الأذى من هجمات مشركي الترك على حدود البلاد الإسلامية، فقاد جيوشَ الخلافة بنفسه، وفتح الله له مدينة بلنجر، وتغلب على جموع الترك ومقاتليهم، وغرّقهم بمياه الأنهار التي حوّل مجاريها على معسكراتهم ثم تقدم إلى الحصون التي تلي بلنجر فأجلى عنها حماتها واستولى عليها جميعاً.

وثيقة أمانه لأهل تفليس

وجاءه اهل تفليس بنسخة عهد كان صدر اليهم في زمن امير المؤمنين عثمان بن عفان من قائده المجاهد حبيب بن مسلمة [١] فأقرها لهم الجراح بن عبد الله الحكمي، وجدد لهم العهد بالوثيقة الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من الجراح بن عبد الله لأهل تفليس في رستاق منجليس من كورة جرزان. أنهم اتوني بكتاب امان لهم من حبيب بن مسلمة، على الإقرار بصغار الجزية، وانه صالحهم على ارضين وكروم وارجاء يقال لها واري وسابينا من رستاق منجليس، وعن طعام وديدونا من رستاق فحويط من كورة جرزان، على ان يؤدوا عن هذه الأرجاء والكروم في كل سنة مائة درهم بلا ثانية. فأنفذتُ

---

(١) تقدم نصه ص ١٥٩ – ١٦٠.

لهم أمانهم وصلحهم وأمرتُ ألا يزاد عليهم . فمن قرىء عليه كتابي فلا يتعد ذلك فيهم إن شاء الله » .

اصلاحاته الادارية

وكان الجراح في أرمينية واذربيجان مثال الإداري العادل الحازم المصلح . رأى الباعة والتجار في اسواق مدينة (برذعة) يستعملون مكاييل وموازين مختلفة ، فيتضرر عامة الشعب من ذلك ، فأمر بإقامة موازينهم ومكاييلهم على العدل والوفاء (واتخذ لهم مكيالاً موحداً سموه (المكيال الجرّاحي) . ويقول ابو الحسن البلاذري انه بقي مستعملاً بهذا الاسم الى زمنه (وفاةالبلاذري سنة ٢٧٩) .

ونقل البلاذري عن أبي عبيدة ان الجراح بن عبد الله كان يتخذ نقراً من فضة وذهب ويجعلها تحت بساط في مجلسه على اوزان مختلفة ، فإذا دخل عليه الداخل من ذويه والمعتزين به رمى الى كل امرىء منهم مقدار ما يؤهل له . يستميل بذلك قلوبهم ويستعين بهم على الخير .

مواصلة الجهاد

ومضت سنة ١٠٤ ودخلت سنة ١٠٥ والجراح يتوغل في الأراضي التي تحكمها روسيا الآن من بلاد الخزر ، وتسمى بلاد اللان ، على مقربة من مضيق الدربند الذي كان يسميه العرب (باب الأبواب) فشاعت هيبة العروبة والإسلام في تلك الأرجاء ، واصبح اهلها يعتقدون في هذه الجيوش انها لا تُغلب .

ومات الخليفة يزيد بن عبد الملك ، فأقره الخليفة الجديد هشام بن عبد الملك على ولاية ارمينية ، ثم صرفه عنها سنة ١٠٨ ورده اليها سنة ١١١ عندما بلغه فساد الذين مردوا على الشرك من اتراك ما وراء الباب .

انتقاض اللان وشهادة الجراح

وفي سنة ١١٢ تآمر الترك والخزر وجميع البغاة من مشركي اللان والدربند وسواحل بحر الخزر ، ونظموا حركة انتقاض واسعة النطاق على حكم الإسلام ، والغدر بحماة المدن من مجاهدي المسلمين . وكانت القوة التي تحت يد الجراح لا

تبلغ عشر القوات المقاتلة التي اعدها المشركون للانتقاض ، ولو كان غير القائد المحنك الجراح الحكمي في ولاية تلك الجهات لكانت الكارثة عظيمة جداً . اما الجراح فعزم على ان يضحي بنفسه وبالقوة القليلة التي معه من جند الشام ريثما تستعد دار الخلافة لإدراك البلاد قبل ان تخرج من اليد . فاستخلف اخاه الحجاج ابن عبد الله الحكمي على ارمينية ، وعبر الكر بالقوة القليلة التي معه حتى قطع النهر المعروف بالسمور وصار الى الخزر - مركز الفتنة ومصدر الثورة - فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وقاتل اهل بلاد حمزين ،ثم صالحهم على ان نقلهم الى رستاق خيزان ، وجعل لهم قريتين منهم انزلهم فيهما . وتقدم الى اهل غوميك فأوقع بهم وسبى منهم . ثم قفل فنزل شكى ، فدهمه الشتاء بثلوجه وبرده القارس. فأنزل جنده في برذعة والبيلقان ريثما تنقضي حدة الشتاء . وفي خلال ذلك ثارت الخزر وعبرت الرس ، فحاربهم الجراح في صحراء ورثان فانحازوا الى ناحية اردبيل ، وفي حرج اردبيل كانت المعركة الأخيرة التي قضى فيها الجراح وكتيبة الله التي كانت تحت قيادته احرج يوم وليلة مرت على جيش من جيوش الدنيا ، لأن الكتيبة الصغيرة كانت تقابل عشرات اضعافها من المقاتلين ، وكانت متعبة ، وتحالف عليها العدو والشتاء والفاقة والانقطاع عن مصادر المدد . وظلت الجيوش العربية بعد ذلك الى امد طويل تضرب المثل لكل ليلة حربية شديدة بقولها « ليلة كليلة الجراح » ولكل يوم عصيب بقولها « يوم كيوم الجراح »،وفي ذلك اليوم وتلك الليلة استشهد القائد العظيم الجراح بن عبد الله الحكمي وكل من كان معه من المجاهدين الى آخر مقاتل فيهم (رحمهم الله ورضي عنهم ، واعلى مقامهم مع الصدّيقين في جنات النعيم) .

وقد سمي النهر الذي كانت تلك الوقعة على ضفافه (نهر الجراح) ، والجسر الذي كانت الوقعة على مقربة منه (جسر الجراح) .

خبر الوقعة في دمشق

واول ما طار الخبر الى قصر الخضراء (دار الخلافة بدمشق) عن هذه الكارثة المحزنة وصل محرّفاً ، ففهم امير المؤمنين هشام ان الجراح قصّر في الدفاع ، فدعا اليه احد رجال الحرب سعيد بن عمرو الحرشي فقال له :

ـ بلغني يا سعيد ان الجراح قد انحاز عن المشركين .

فأجابه سعيد بن عمرو :

ـ كلا يا امير المؤمنين ، الجراح اعرف بالله من ان ينحاز عن العدو ، ولكنه قتل .

قال هشام : فما الرأي ؟

قال : تبعثني على اربعين دابة من دواب البريد ، ثم تبعث اليّ كل يوم اربعين دابة عليها اربعون رجلاً ، ثم اكتب الى امراء الأجناد يوافوني بأجنادهم (ففعل ذلك هشام) .

يا لثارات الجراح !

وما وافى سعيد بن عمرو تلك الأصقاع حتى اصاب للترك ثلاثة جموع وفوداً الى خاقان بمن اسروا من المسلمين واهل الذمة ، فاستنقذ ما اصابوا ، واكثر القتلَ فيهم .

ولم يكتف هشام بإمداد سعيد بن عمرو الحرشي بأمراء الأجناد . بل دعا أخاه ليث الوغى مَسلمة بن عبد الملك ، وأمره بأن يتجهز للالتحاق بمعسكر الجهاد ، قال الطبري : فسار في شتاء شديد البرد والمطر والثلوج حتى جاز الباب في آثار الترك ، وخلف الحارث بن عمرو الطائي (احد قواده) بالباب الذي يسمونه الدربند لئلا يقطع عليه خط الرجعة .

شهامة مروان بن محمد

وكان في جيش مسلمة من الأمراء آل عبد شمس الأمير مروان بن محمد ، الذي صار فيما بعد آخر خلفاء بني أمية ، فاستبطأ خطوات مسلمة في البطش بمشركي الترك الذين غدروا بالجراح وفتكوا برجاله .

وفي ساعة من ساعات الصبح المبكر دخل حاجب الخلافة على أمير المؤمنين هشام وهو في (الدار الخضراء) من مدينة دمشق الواقعة وراء الجدار القبلي من مسجد بني أُمية وقال له :

ـ إن مروان بن محمد بن مروان (ابن عم الخليفة) يستأذن في الدخول .

فدهش هشام لهذا النبأ ، لأنه كان يعلم أن مروان في صفوف الحرب تحت

قيادة مَسلمة بن عبد الملك ببلاد الخزر ، فأذن له بالدخول حالاً . فلما صار بين يديه سأله عن سبب قدومه ، فقال مروان :

– لقد ضقت ذرعاً يا أمير المؤمنين بما سأذكره لك ، ولم أر من يحمله اليك غيري .

قال : – وما هو ؟

قال مروان : – لقد كان من غدر الترك بالمسلمين وقتلهم الجراح بن عبد الله الحكمي ومن معه من المجاهدين ما دخل به الوهن على المسلمين هناك . ثم رأى أمير المؤمنين أن يوجه أخاه مسلمة اليهم . فوالله ما وطىء من بلادهم إلا أدناها ، ثم إنه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك ، فكتب إلى الترك والخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر فاستعد القوم وحشدوا . فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية ، وكان قصاراه السلامة . وقد أردت أن تأذن لي في غزوة أُذهب بها عن المسلمين العار ، وأنتقم من العدو .

قال الخليفة : قد أذنت لك .

قال : وتمدّني بمائة وعشرين الف مقاتل .

قال : قد فعلت .

قال : وتكتم هذا الأمر عن كل أحد .

قال : قد فعلت ، وقد استعملتك على أرمينية .

فودع مروان ابن عمه هشاماً لساعته ، وانقلب مسرعاً إلى أرمينية والياً عليها . وسير اليه هشامُ الفيالق من الشام والعراق والجزيرة ، فاجتمع عند مروان من الجنود والمتطوعة مائة وعشرون الف مجاهد . فأظهر أنه يريد غزو اللان - وهي من بلاد الروس ، ويجري اليها نهر أتل ، وتقع بين أرمينية وبلاد الخزر على مقربة من الدربند : باب الأبواب – وبالفعل قصد مروان بلاد اللان ، وكتب إلى ملك الخزر يطلب منه المهادنة ليؤكد له أنه ليس مقصوداً بهذه الحملة الإسلامية الرهيبة ، وأن العرب اكتفوا بما كان من المعارك السابقة بينهم وبين الخزر بقيادة مسلمة بن عبد الملك . فكتب ملك الخزر إلى مروان بن محمد يجيبه بالموافقة على اقتراح الهدنة ، وحضرت من عنده وفود الصلح للمذاكرة فيه .

فلما وصلت وفود ملك الخزر إلى مروان في أرمينية أكرمهم وأمسكهم عنده ضيوفاً ، وماطل في البت معهم في شيء ، إلى أن استكملت جيوشه أهبتها ،

وتجهزت بكل ما يلزم لها ، فلما فرغ من استعداده ابتكر وسيلة تسوّغ له الإغلاظ لمندوبي ملك الخزر في القول ، واخبرهم انه صار مضطراً الى حرب ملكهم ، وقال لهم : اذهبوا الى صاحبكم واخبروه بانتهاء ما بيننا وبينه من هدنة ، واننا لا نستطيع ان نتفق معه على صلح يرضينا ، ثم وكل بهذا الوفد من يسير به الى ملك الخزر من طريق طويل . وزحف هو بجيوشه من اقرب الطرق. فما وصل الوفد الى ملك الخزر الا ومروان قد وافاهم بجيوشه من ورائهم . علم ملك الخزر من رجاله بما عند مروان من جيوش ، وما حشده واستعد به ، فاستشار ملك الخزر اصحابه ، فقالوا له :

ـ ان هذا قد اهتبل غرّتنا ، ودخل بلادنا ، فإن اقمنا الى ان نجمع له ما نحاربه به احتجنا الى مدة يبلغ فينا منا ما يريد. وان لقيناه على حالنا هذه هزمنا وظفر بنا . والرأي عندنا ان تتأخر ايها الملك الى اقاصي بلادك وتدعه وما يريد.

فقبل ملك الخزر رأي اصحابه ، وسار حيث اشاروا عليه . ودخل مروان بن محمد هذه الأصقاع الغنية الواسعة ، واوغل فيها حتى انتهى الى آخر بلاد الخزر ، ثم انتقل منها الى بلاد ملك السرير فأوقع بجيوشها وفتح قلاعها ودان له الملك وصالحه على غرامة حربية من جملتها مائة الف رقيق مدبر تحمل الى الدربند (باب الأبواب) فيتسلمها المسلمون هناك . وهكذا فعل في سائر ممالك القريم والقوقاز.

ومن ذلك اليوم استقر الإسلام في تلك الأصقاع ، واخذ علماء العواصم الإسلامية يذهبون الى هناك لينشروا الدعوة المحمدية ويحرّضوا اهل الخير من الشبان على السفر الى عواصم الإسلام لتلقي علومه ، فنبغ منهم مؤلفون وعلماء نرى تراجمهم مدونة في الكتب . وهذا من مناقب مروان بن محمد التي قلما يعرفها الناس له ، واحسب ان هذا القائد العظيم الجراح بن عبد الله الحكمي لم يَسمع حتى باسمه ـ اكثرُ الذين يظنون انهم يشتغلون بالتاريخ . وسبب ذلك ان معاهد العلم التي يتثقف فيها شباب المسلمين وابناء العروبة في عصرنا قد بُنيت مناهجها على الثقافات الأجنبية بتأثير الاستعمار العقلي الذي فرضه الأغيار علينا ، ثم خلفهم عليه الذين نبتوا من حقله ، ونشأوا في ظله . ومتى تحرّرنا من هذا الاستعمار العقلي فستكون للأذكياء منا دراسات في تاريخنا وادبنا وثقافتنا يكون منها البعث إن شاء الله .

مؤسس دولة التابعين

كما يؤمن به ويشهد له وليّ لله من أئمة الاسلام

نقل القاضي ابن خلكان في وفيات الأعيان عن أبي عليّ الغساني الجياني أن الإمام المجاهد العظيم عبد الله بن المبارك (١١٨ – ١٧٢) سُئل :

– ايما افضل : معاوية بن أبي سفيان ، أم عمر بن عبد العزيز ؟

فأجابهم : – والله إن الغبار الذي دخل في أنف معاوية مع رسول الله ﷺ أفضل من عمر بن عبد العزيز بألف مرة . صلى معاوية خلف رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « سمع الله لمن حمده » فقال معاوية « ربنا ولك الحمد » ، فما بعد هذا ؟ !

وعبد الله بن المبارك الذي يقول هذا الكلام هو الذي قال فيه الإمام أحمد « لم يكن في زمان ابن المبارك أطلبُ للعلم منه » . وقال فيه شعبة « ما قدم علينا مثل ابن المبارك » . وقال فيه اسماعيل بن عياش « ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك » وقال فيه الفضيل بن عياض وهو واقف أمام الكعبة «ورب هذا البيت ما رأت عيناي مثل ابن المبارك » . وقال عبد الله بن سنان : قدم ابن المبارك مكة وأنا بها . فلما خرج شيّعه سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وودّعاه ، فقال أحدهما « هذا فقيه أهل المشرق » فقال الآخر « وفقيه أهل المغرب » .

ولما شهد ابن المبارك لمعاوية رضي الله عنه هذه الشهادة العظيمة كان في دولة بني العباس ، فهي شهادة لله وللحق ، وليس عبد الله بن المبارك ممن يشهد لغير الله او بغير الحق بل ان عبد الله بن المبارك وامثاله من اولياء الله كانوا يرون انهم محتاجون لأن يشهد معاوية لهم ، لا لأن يشهدوا له .

وشهادة لابنه

أول ما انتشرت الأكاذيب عن الخليفة الثاني لدولة بني أُمية يزيد بن معاوية من دعاة ابن الزبير قبل وقعة الحرّة ، فقد نقل الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٨ : ٢٣٣) أن عبد الله بن مطيع داعية ابن الزبير مشى هو وأصحابه إلى محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية فأرادوه على خلع يزيد ، فأبى عليهم ، فقال ابن مطيع : إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب ، فقال محمد بن علي : ما رأيت ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة ، متحرياً للخير ، يسأل عن الفقه ملازماً للسنّة قالوا : فإن ذلك كان منه تصنعاً لك . قال : وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إليّ الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟ فإن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا : إنه عندنا الحق وإن لم نكن رأيناه ! فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ ، ولست من أمركم في شيء . قالوا : فلعلك تكره أن يتولى الأمرَ غيرك (يعنون ابن الزبير) ،فنحن نوليك أمرنا . قال : ما استحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً .

وكان موقف عبد الله بن عمر بن الخطاب من هؤلاء الدعاة في هذه المسألة مثل موقف محمد بن علي بن أبي طالب (أنظر صحيح البخاري ك ٩٢ ب ٢١ - ج ٨ ص ٩٩ ، وصحيح مسلم ك ٣٣ ح ٥٨ - ج ٦ ص ٢٢) . بل كان موقف رأس أهل البيت زين العابدين علي ابن الحسين يجانب الولاء والوفاء في بيعته للخليفة يزيد بن معاوية والبراءة من البغاة عليه كما شهد بذلك مؤرخ الشيعة أبو مخنف : أنظر الطبري (٧ : ٤ - ٥) والمنتقى من منهاج الاعتدال ٢٩٤ .

سجايا العرب في التراث الاسلامي

إنما كانت الفضائل بالعمل بها لا بالعلم بها ، وماذا يفيد العلم بأن الصدق خير إذا لم يُعمل به ؟ وماذا يفيد التحدُّث عن فضيلة الإيثار وامتداحها والحض عليها من أعلى المنابر وأفخمها إذا لم تكن هذه الفضيلة مما يتبارى فيه مادحها والممدوحة له ؟ وأقدرُ أمم الأرض على العمل بالفضائل الأمة التي تعمل بها عن سجية متوارثة ، لا عن تكلف وتظاهر وتقليد . وقديماً كانت العرب تقول :

ومن يبتدع خُلقاً سوى خلق نفسه   يدعه وترجعه اليه الرواجع

وإنما استطاع الإسلام أن يثب وثبته الأولى التي لا يزال المؤرخون حائرين في تعليلها ويعدونها من معجزات التاريخ – إذ لم ير التاريخ نظيراً لها فيما تقدمها ولا فيما جاء بعدها – لأن الله عز وجل اختار لحمل رسالة الإسلام أُمة يعدُّ الكثير من فضائل الإسلام في جملة سجاياها المتوارثة وأخلاقها التي طبعت عليها ، وقد جاء الإسلام لينظم هذه الفضائل وليركز توجيهها إلى الخير : فيبعث فيها نوراً خالداً وخيراً باقياً ، إلى أن تشيع معانيها في الأمم الأخرى ، فتدخل الإنسانية في طور السعادة التي تنشدها ولا تجدها ، وإنما كانت لا تجدها لأنها لا تريد أن تسلك اليها طريقها الذي لا طريق إلى السعادة سواه .

من هذه الفضيلة فضيلة (الايثار) ، وهي فضيلة تتحدث عنها الأمم جميعاً في كتب الأخلاق والفضائل ، وتعدها من صفات الانسانية الممتازة ، ولكنها قلما تستطيع أن تضرب الأمثال العملية والتاريخية على الاتصاف بها إلا في توافه الأمور ، أما في المواقف الجلى ، وعندما يتناول الايثار أفضل ما في الحياة – ولو كان الحياة نفسها – فقلما نجد التاريخ يتحدَّث عن ذلك إلا بلغة العرب ،

في تاريخ العرب ، عن رجال العرب الذين اختـــارهم الله لحمل أمانـــة الاسلام والتبشير برسالته .

كان فتيان من فتيان بني إياد قد خرجوا عن منازلهم في شواطىء نهر سنداد بعد لصاف وشَرْج وناظرة وراء نجران الكوفة ، وعلى رأسهم الفتى كعب ، ابن سيدهم وأميرهم مامة بن عمرو بن ثعلبة بن سلولة بن شبابة الايادي ، والظاهر أنهم أوغلوا في البادية فضلوا الطريق ولم يكن معهم إلا بعض الماء . فلما أشرفوا على الهلاك ، نزلوا ، فجمعوا ما في أسقيتهم من الماء ، واقتسموه على السوية ، لئلا يكون مع أحد منهم أقلُّ من الذي مع غيره . وفيما هم سائرون يلتمسون الطريق شرب الفتيان نصيبهم من الماء ، واستبقى رئيسهم كعب بن مامة نصيبه لساعة الشدة ، ولما حانت تلك الساعة العصيبـــة لقيهم أعرابي من بني النمر بن قاسط فصحبهم ، وكان النمري قد اشتد به الظمأ يومه ذاك ، فجعل ينظر إلى سقـاء الأمير الشاب وفيه تلك البقية من الماء التي تتوقف عليها حياة من يتبلـّغ بها ، فلحظه كعب ، وأدرك أن موقفه من هذا النمري هو الموقف الذي اعتاد العربي أن يشتري فيها فضيلة (الايثار) ولو بالحياة كلها ، حتى لو كانت حيـاة أمير نبيل وصاحب شرف أثيل ، لأنـه الموقف الذي يبرهن فيه العربي على كريم معدِنه وأصالة شرفه ، فآثر كعب بن مامة ضيفه النمري ببقية الماء التي لم يبق غيرها مع القوم جميعاً في تلك المفازة ، ورضي لنفسه أن يواجه الموت ظمأً . ومثل هذه الحادثة الخلقية يرى فيها العربي معنيين من معاني حياته الاجتماعية : أحدهما معنى الايثار الذي ندير هذا الكلام حوله ، وهو يكون بـين العربي وصاحبه كائناً من كان ، والمعنى الآخر معنى الضيافة للنازل الطارىء – كهذا الرجل النمري الذي لقي الشبان الاياديين في الطريق ولم يكن معهم من قبل – وإمدادُ الضيف بما يحتاج اليه – ولا سيما الغذاء والماء – يعد في دستور العرب (حقاً) لا (كرماً) .

ولما طال الأمر على الاياديين – وهم يسيرون في طلب الماء – اشتد الظمأ على كعب ، وشعر بأنـه لم تبق له قوة على السير معهم ، فجعل أصحابه يعللونـــه بالأمل ويقولون له :

— يا كعب ، هذا الماء قريب منا ، وسنرد عليه عن قليل .

لكنه كان قد بلغ منه الاعياء كل مبلغ ، فمات عطشاً . فلما وصلوا إلى قصر أبيه على شاطىء سنداد أخبروه بما كان منه ، وبإيثاره النمري على نفسه بما بقي معه من الماء ، فقال أبوه يرثيه :

أوفى على الماء كعب ثم قيـــل له ... رِدْ كعب، إنك ورّاد ، فماوردا
ما كان أسقى لنـا جود على ظمأ ... خمراً بمـــاء إذا ناجودهـــا بردا
من ابن مامة كعب ، ثم عيّ به ... زَوُّ المنية إلا حرة وقدا

وبعد عشرات من السنين مرّ خليفة الاسلام الأعظم عمر بن عبد العزيز بن مروان على هذه البقاع التي تداول الحكم والسيادة فيها قبل الاسلام أمراء إياد وملوك غسان من آل جفنة والمناذرة من بني لخم بن عدي ، فأنشده مولاه مزاحم قول الأسود بن يعفر النهشلي يصنها :

ومن الحوادث لا أبالـك أنني ... ضُربت عليّ الأرض بالأسداد
لا أهتدي فيها لمدفع تلعـــة ... بين العراق وبـين أرض مراد
ماذا أؤمل بعـــد آل محرّق ... تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنـق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد
حلوا بأنقرة يسيـــل عليهم ... ماء الفـرات يجيء من أطواد
أرض تخيرها لطيب مقيلهـــا ... كعب بن مامة وابن أم دُؤاد
جرت الرياح على عراص ديارهم ... فكأنمـــا كانوا على ميعـــاد
ولقـد غنوا فيها بأفضل عيشة ... في ظل ملـــك ثابت الأوتاد
فأرى النعيم وكل ما يلهى بـــه ... يوماً يصير إلى بـــلى ونفـــاد

وعلى ذكر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز نقول: إن العارفين بمعنى (الزهد) على حقيقته كانوا إذا وصفوا أهـله قالوا : ليس الزهـــد أن يكون المرء فقيراً محروماً فيزعم أنه زاهد ، ولكن الزهد أن يملك الرجل أقطار الأرض المعمورة في آسيا وإفريقية إلى أقصى بلاد إسبانيا والبرتغال من أوربا ثم يزهد بكل ماتحت يده من نعيمها ومتعتها ، كما فعل سيد الأرض وملـك المشرق والمغرب عمر بن عبد العزيز ، ولا يكتفي عظيم الدنيا بهذا بل يسترضي زوجته فاطمة بنت عبد

الملك بن مروان وكان أمير المؤمنين ، وأخت هشام والوليد وسليمان ويزيد وكانوا كلهم أمراء المؤمنين ، فيأخذ منها حليها التي كانت من أثمن ما يتوارثه الملوك ، ويردُّها إلى بيت مال المسلمين ايثاراً منـــه لاخوانه في الدين على نفسه وزوجه وولده ، وزهداً منه في حطام الدنيا وألاعيبها الصبيانية . ويعيش في بيتـه مع أسرته وهو خليفة الأرض – عيشه الشظف والزهد والقنـاعة بأقل ما تقوم به الحياة . وانما استطاع عمر بن عبد العزيز بن مروان أن يفعل هذا بفضيـلة (الايثار) التي آمن بها في جملة ما آمن به من فضائل الاسلام ، وكان لهـذه الفضيلة في مجرى الدما من شرايينه ميراث معدود من سجايا العرب فاستطاع بما جمع من ايمان دينه الى سجايا اصله ان يضرب للدنيا مثلاً في الزهد والايثار قلما يستطيع ان يضربه للناس احد ممن بلغ مبلغه في سعة الملك وقدرة التصرف بأكثر ما على وجه الأرض من ثروة ومتعة ونعيم . ولذلك قال فيه جرير :

أقول اذا اتينَ على قرَوْرى ... وآلُ البيد يطّـرد اطّـرادا :
عليكم ذا الندى عمر بن ليلى[1] ... جواداً سابقاً ورث الجيـادا
الى الفاروق ينتسب ابن ليـلى ... ومروانَ الذي رفع العـمادا .
تزودْ مثل زاد ابيـك فينا ... فنعم الزادُ زاد ابيـك زادا
فما كعب بن مامة وابن سُعدى[2] ... بأجود منـك يا عمر الجوادا
وانت ابن الخضـارم من قريش ... همُ نصروا النبوّة والجهـادا
وقادوا المؤمنـين ولم تُعوّدْ ... غداة الروع خيلهم القيادا
اذا فاضلتَ مـدك من قريش ... بحور عمّ زاخرُها الـثمادا

فأنت ترى ان سجية الايثار والتضحية بالنفائس سجية جُبل عليهـا العربي منذ كان ابن الصحارى والأودية والجبال ، فتجلت في تصرُّف الأمير كعب بن

---

(١) ليلى أم عمر بن عبد العزيز ، وهي أم عاصم بنت عاصم ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان عبد العزيز بن مروان لما أراد أن يتزوج بها دعا قيم أملاكه وقال له : اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالي وخالص حلاله ، فاني اريد ان اتزوج من اهل بيت لهم صلاح ، وبهذا المال الحلال الطيب تزوج هذه السيدة العمرية النبيلة ام عمر بن عبد العزيز .

(٢) ابن سعدى هو اوس بن حارثة بن لأم الطائي ، وهو ايضاً واحد من الوف ممن يضرب المثل بايثارهم وتضحيتهم في تاريخ العرب .

مامة الايادي عندما آثر على نفسه ذلك الأعرابي من بني النمر بن قاسط بالماء بل بالحياة ثم هذّب الاسلام هذه السجية الممتازة ونظمها وركز توجيهها الى الخير الأعلى فتجلت في تصرف سيد آخر من سادات العرب المتشبعين بالاسلام الى اقصى مداه ، وهو امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الاموي ، فضرب للتاريخ مثلاً لمن يحوز الدنيا بحذافيرها ، ويقبض عليها بجميع ما في يد العربي القوي من اعصاب متينة ، ويزهد مع ذلك – بجميع ما استحوذ عليه من متع الدنيا ونعيمها . وروى رجال دولته – امثال المهاجر بن يزيد ومحمد بن قيس – ان فقراء البيوت المستورة الذين كانت لهم الصدقات من بيت مال المسلمين اثروا في عهده فصاروا هم يدفعون الزكاة عن اموالهم لبيت المال ، وراح المزكون يبحثون عمن يستحق الزكاة ليدفعوا اليه زكاتهم فلا يجدونه .

روى ابو محمد عبد الله بن الحكم المصري (١٥٠ – ٢١٤) عن يحيى بن سعيد قال : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية ، فاقتضيتها . وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً ، ولم نجد من يأخذها مني ، قد اغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريتُ رقاباً فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين .

هذا وعمر نفسه – وهو امير المؤمنين – لم يكن في بيته غير الثوب الذي على بدنه ، فإذا أراد غسله انتظر حتى يجف فيعود الى لبسه ويخرج به الى الناس . وروى معاصره سعيد بن سويد ان رجلاً من القوم لم يطق الصبر على هذا الحال فقال لعمر :

يا امير المؤمنين ، ان الله قد اعطاك ، فلو لبست وصنعت !...

فنكس عمر رأسه ملياً حتى عرفنا أن ذلك قد ساءه ، ثم رفع رأسه وقال :

« إن أفضل القصد عندة الجِدَة ، وأفضل العفو عند القدرة » .

وزوجته السّرية النبيلة التي كانت زوجة خليفة ، وبنت خليفة ، وأخت أربعة من الخلفاء ، كانت راضية بعيشة الشظف مع زوجها بطيب نفس وعظيم اطمئنان ، لأنها هي أيضاً تنزع بعرف شريف الى ذلك الاصل العظيم الذي كان الايثار سجية فيهم زادها الاسلام تهذيباً وقد حدثتك بأن حليها الثمينة النادرة التي جاءت بها من بيت أبيها أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان جرّدها أمير

المؤمنين عمر بن عبد العزيز من يديها وعنقها وأذنيها – برضى منها – ووضعها في بيت مال المسلمين، فلما كان بعد زمن طويل من وفاةزوجها عمربنعبدالعزيز ابن مروان وولاية أخيها الثالث يزيد بن عبد الملك بن مروان قال لها أخوها الخليفة :

– ان حليك التي وضعت في بيت المال هي من مالك الحلال ، ولا تزال محفوظة بعينها كما كانت ، فهل أن أردها عليك ؟

فأجابته : « إن أمير المؤمنين عمر قد استحسن أن تكون هذه الاشياء حيث هي الآن ، وأنا قد وافقته على ما استحسن ، وما كنت لاطيعه حياً واعصيه ميتاً » .

قالت هذا هي واولادها وبناتها احوج الناس الى هذه الحلي ، لان ما كان يملكه عمر بن عبد العزيز من ضياع واملاك رده على بيت المال في الاسبوع الاول من خلافته ، ومزق حجج ملكيته وهو على منبر مسجد بني أميةبدمشق على ملأ من الوف الاعيان والامراء ووجهاء الناس . وارادت زوجته من بعده ان لا تكون اقل منه ايثاراً وتضحية واختارت ان تبقى عنقها واذناها ويداها عاطلة من تلك الحلي ، ولو كانت اخت الخليفة يزيد بن عبد الملك .

وزير مسيحي

يصف الشريعة الاسلامية

خطب الأستاذ فارس الخوري – أحد وزراء سوريا السابقين – في حفل عظيم أقيم لذكرى المولد المحمدي بدمشق في ربيع الأول عام ١٣٥٤ ،ومما قاله:

« إن محمداً أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بمثله بعد . والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها .

« وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذي دعا الناس اليها باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم ، مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .

« إن محمداً الذي تحتفلون به وتكرمون ذكراه أعظم عظماء الأرض ، سابقهم ولاحقهم . فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم ، على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها » .